

المقالة الاولى

في الزهد في هذا العالم الباطل واعتزاله .

١ ـ لما كان الهنا وملكنا الصالح بل الكلي الصلاح والفائق الصلاح (إذ يحسن أن تستهل كلامنا بذكر الله ما دمنا نكتب إلى خدام الله) قد كرّم سائر خلائقه الناطقة ، من ملائكة وبشر ، بالحرية الذاتية ، فإننا نرى فيهم من هم احباؤه ، ومن هم له خدام مخلصون ، أو عاطلون ، ومن هم غرباء عنه بالتمام ، ومن هم ، على ضعفهم ، معاندون له . أما احباؤه فاقصد بهم ، أنا الحقير ، أيها الرئيس الجليل ، الجواهر العقليين العادمي الأجساد الذين يحيطون به . وأما خدامه المخلصون فهم الذين عملوا ويعملون مشيئته المقدسة بدون كسل ولا تقصير . وأما خدامه العاطلون فهم الذين يظنون انهم قد أهلوا لمعموديته الالهية ، لكنهم نكثوا العهود التي قطعوها على انفسهم حينذاك . وأما الغرباء المقصون عنه فاعني بهم غير المعمدين أو الهراطقة . وأما محاربوه فهم الذين لا يكتفون برفض وصايا الرب ونبذها ، بل يعمدون أيضاً إلى محاربة العاملين بها محاربة شديدة .

٢ ـ وبما أن كلاً من الفئات السابق ذكرها تستوجب إفراد بحث خاص بها ، فلا يوافقنا نحن الجهلة أن نتورط في تناولها كلها بالشرح والتفنيد . ولذلك دعونا بالحري نذعن للطاعة ونمد يدنا العاجزة إلى فئة خدام الله المخلصين الذين يقتسروننا بتقواهم ويضطروننا بثقتهم فنتسلم قلم الكلام من معرفتهم ونغمسه في حبر تواضعهم الخاشع والمشرق معاً ونسطّر على قلوبهم البيضاء النقية الالهية ، وكأننا نسطرها على رقوق بل على ألواح روحية فنقول :

٣ ـ الله هو لجميع الذين يختارونه . وكذلك الحياة والخلاص فهما لجميع الناس ، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين ، عادلين أو ظالمين ، اتقياء أو كافرين ، خطأة أو صديقين ، رهباناً أو علمانيين ، حكماء أو بسطاء ، اصحاء أو مرضى ، احداثاً أو شيوخاً ، وذلك

على غرار اندفاق النور وشروق الشمس وتوالي فصول السنة من اجل الناس كافة على السواء . نعم وليس الأمر على خلاف ذلك لأنه وليس عند الله محاباة»[1] .

٤ ـ فالكافر كائن ذو نفس ناطقة وطبيعة فانية يقصي ذاته عن الحياة باختياره إذ يحسب أن خالقه الازلي غير موجود . والمتعدي الشريعة هو من يحرّف شريعة الله طبقاً لفساد بصيرته ويبتدع ما يضاده تعالى ظاناً أنه يؤمن به . والمسيحي هو من يتشبه بالمسيح في أقواله وأفعاله وأفكاره قدر استطاعة الانسان ويؤمن بالثالوث الأقدس إيماناً قويماً خالياً من العيب . والمحب الله هو من يحسن استعمال الخيرات الطبيعية ولا يتوانى في عمل الصالحات قدر طاقته . والضابط هواه هو الذي يحاول بكل قوته ، في وسط التجارب والمكايد والقلاقل ، أن يماثل حال الذين لا يبالون ولا ينفعلون في القلاقل . والراهب هو من يحقق ، في جسد مادي هيولي وسخ ، رتبة العادمي الأجساد وسيرتهم . الراهب هو الحافظ وصايا الله وحدها في كل زمان ومكان وعمل . الراهب هو الذي لا يكف عن كبح طبيعته وحفظ حواسه . الراهب جسد عفيف وفم طاهر وذهن مستنير . الراهب نفس حزينة لا تنفك تلهج بالموت في النوم واليقظة . واعتزال العالم هو مقت طوعي وجحود للطبيعة لأجل البلوغ إلى ما يفوق الطبيعة .

٥ ـ إن جميع الذين بادروا إلى الزهد في العالم لا بد انهم زهدوا فيه إما في سبيل الملكوت الآتي أو لكثرة خطاياهم أو حباً بالله . وإن كان اعتزالهم العالم ناجماً عن سبب آخر فهو اعتزال أحمق ، غير أن المنا الصالح واضع هذا الجهاد ينتظر نهاية سعيهم ليحكم عليه .

٦ ـ من اعتزل العالم لكي يزيل عنه حمل خطاياه فليماثلن الجالسين بين المقابر خارج المدينة ، ولا يكفن عن سكب الدموع السخينة وعويل القلب الخفي حتى يرى يسوع آتياً إليه ومدحرجاً عن قلبه حجر القساوة ، وحالاً لعازر عقله من جدائل خطاياه وموعزاً إلى خدامه الملائكة بأن يحلوه من اهوائه ويدعوه يمضي إلى اللاهوى المبارك ، وإلا فلا يكون قد انتفع من تركه العالم شيئاً .

٧ ـ نحن الراغبين في الخروج من مصر هرباً من وجه فرعون نحتاج حتماً بعد الله إلى موسى آخر يتوسط لنا عند الله فيقف بين العمل والتأمل ويرفع يديه من أجلنا إلى أن

---

[1] رو ٢ : ١١

نعبر بارشاده بحر خطايانا ونهزم عماليق اهوائنا . فالذين يتكلون على انفسهم ويتوهمون أنهم لا يحتاجون إلى مرشد يرشدهم هم مخدوعون . إن الذين خرجوا من مصر قد اتخذوا موسى مرشداً لهم ، والذين هربوا من سدوم كان الملاك هاديهم . فالذين يسعون إلى شفاء اهواء النفس بعناية الاطباء يمثلون الخارجين من مصر . أما الهاربون من سدوم فهم المتوخون استخراج نجاسة الجسد ولذا هم بحاجة إلى ملاك ، أعني الى انسان معادل لملاك لكي يعينهم . لأننا بمقدار ما يزداد تقيح جروحنا نحتاج إلى طبيب أكثر مهارة .

٨ ـ إن الذين يعتزمون الصعود إلى السماء بأجسادهم يلزمهم بالحقيقة اقتسار ذواتهم وتكليفها آلاماً متواصلة ، لا سيما في بدء زهدهم ، إلى أن يتحول خلقنا المحب اللذة وقلبنا الفاقد الإحساس إلى خلق عفيف ومحب لله نتيجة توبة صادقة . لأنها في الحقيقة مشقة كبيرة وكبيرة جداً ومرارة لا تحتمل ، لا سيما للعائشين منا في التواني والكسل ، إلى أن نجعل ذهننا ، ذاك الكلب الشغوف بفضلات اللحوم لدى أبواب القصابين ، محباً للعفة ولمراقبة الذات عن طريق روح البساطة وعدم الغضب بتأنٍ والاجتهاد . أما نحن معشر الضعفاء المستعبدين للأهواء فلنتشجع ونعترف للمسيح بضعفنا وعجزنا بايمان غير مرتاب فنحصل على معونته بالتأكيد أكثر مما نستحق ، اللهم إذا تواضعنا باستمرار إلى قعر الاتضاع .

٩ ـ ليعلم جميع الذين يدخلون هذا الجهاد الصالح ، الذي هو قاس وصعب وفي الوقت نفسه سهل ، انهم إنما يقدمون على القفز في النار إن كانوا يريدون أن تسكن فيهم النار الروحية . فليمتحن إذاً كل واحد ذاته ثم يأكل خبز الزهد المعجون بالمرارة ويشرب كأسه الممزوجة بالعبرات ، لئلا يجلب على نفسه الدينونة . إن كان المعمدون لا يخلصون جميعهم بالضرورة فسأصمت عن الرهبان .

١٠ ـ على الذين يتقدمون إلى هذه السيرة أن يجحدوا كل شيء ويستهينوا بكل شيء ويهزأوا بكل شيء ويطرحوا عنهم كل شيء لكيما يضعوا أساساً صالحاً . والأساس الصالح المثلث الركائز هو الاقلاع عن الشر ، والصوم ، والاعتدال . فليبتدىء الذين ما زالوا بعد اطفالاً في المسيح بممارسة هذه الفضائل الثلاث مقتدين بالاطفال . فإنه ليس عند هؤلاء شر أو خداع ، وليس عندهم نهم أو تخمة ، ولا جسد بهيمي ملتهب بالشهوة ، إذ انهم لا يزيدون غذاءهم إلا بقدر ما يحتاج نموهم إلى حرارة .

١١ ـ ولعمري أنه لقبيح حقاً ومؤذن بالخطر أن يجبن المصارع حال دخوله حلبة المصارعة فيعطي الكل الدليل على قرب سقوطه . هذا ولا شك في أن ابتداءنا في السيرة الرهبانية بنشاط يفيدنا فيما بعد في اوقات التواني ، لأن ذكر الهمة الاولى ينخز النفس الشهمة إذا مالت إلى الاسترخاء . ولذلك كثيراً ما استعاد البعض اندفاعهم بفعل هذا النخز .

١٢ ـ إذا أضاعت النفس حرارتها المباركة فلتبحث عن العلة بعناية ولتقاومها بكل عزمها وحرصها . إذ ليس لها أن تستعيد حرارتها المنشودة إلا من الباب الذي خرجت منه .

١٣ ـ من يزهد في الدنيا خوفاً من العقاب قد يشبه يوماً البخور الذي تفوح رائحته الزكية أول ما يحرق ثم ينتهي بدخان . ومن يزهد طمعاً بالثواب يشبه حمار الطاحون الذي يدور دائماً على منوال واحد . ومن يعتزل العالم حباً بالله يمتلك للحال ناراً كالتي إذا ما ألقيت في غابة تضرم كل يوم ناراً اشد اشتعالاً .

١٤ ـ يبني البعض فوق الحجارة لبناً . ويشيد غيرهم على التراب اعمدة . ويعدو آخرون مسافة فتسخن منهم الأوصال والأعصاب فيزداد عدوهم إسراعاً . من يستطيع أن يفهم هذا القول الرمزي فليفهم .

١٥ ـ ما دامت أيامنا معدودة فلنسع بهمة ونشاط كمن دعاهم الههم وملكهم لئلا نوجد بلا ثمر يوم الوفاة فنهلك جوعاً . ولنرض الرب كما يرضي الجند الملك لأننا سنطالَب بدقة ما دمنا قد انخرطنا في خدمته . ولنخش الرب كما نخشى الوحوش ، لأني رايت اناساً ذاهبين ليسرقوا وهم لا يخافون الله ، ولكنهم إذ سمعوا في المحلة صوت كلاب رجعوا أدراجهم في الحين ، فما لم يصنعه خوف الله صنعه خوف الوحوش . ولنحب ربنا كما نجل اصدقاءنا ، لأني كثيراً ما شاهدت اناساً قد اساؤوا إلى الله ولم يبالوا بذلك البتة ، ثم رأيتهم هم انفسهم قد اسخطوا اخلاّءهم لسبب تافه فسعوا لتلافي الأمر بكل وسيلة وحيلة وندم واعتذار ، مباشرة أو عن طريق الاصدقاء ، غير ضانين بالهدايا لكيما يستعيدوا حبهم الاول .

١٦ ـ من البين أننا نمارس الفضائل في اوائل زهدنا بتعب ومرارة . وإذا تقدمنا في

الطريق لا نعود نحس بغم ، أو نشعر بقليل من الغم في ممارستها . أما إذا اجتاحت الغيرة قلبنا واستولت عليه فنعود نمارس الفضائل بكل فرح وهمة وشوق وباضطرام الهي .

١٧ ـ بمقدار ما يجب الثناء على الذين يمارسون الفضائل ويتممون الوصايا بفرح وهمة منذ بدء زهدهم ، بذلك المقدار ينبغي التحسر على الذين يطول زمانهم في النسك ولا يزالون يمارسون الفضائل بتعب وإن كانوا يمارسونها .

١٨ ـ لا ترذلن أو تذمّن الزهد الناجم عن ظروف عارضة ، فإني رأيت اناساً كانوا هاربين فصادفوا الملك آتياً نحوهم فاضطروا إلى الانضمام إلى مرافقيه اضطراراً ودخلوا معه قصره واكلوا على مائدته . وشاهدت بذاراً قد سقطت على ارض عَرَضاً فأثمرت ثمراً يانعاً بوفرة ، ولكني شاهدت العكس أيضاً . ورأيت انساناً مريضاً قدم إلى المستشفى لحاجة ما غير الاستشفاء ، ولكن لطف الطبيب اسره فعولج مرغماً فأزيلت الغشاوة عن عينيه . وهكذا صارت الأعراض الكرهية عند البعض اثبت من الافعال الطوعية وانفذ .

١٩ ـ لا يتذرعن احد بثقل خطاياه وكثرتها مدعياً أنه غير مستحق للاسكيم الرهباني ، وهو لأجل تمتعه بأهوائه يظن أنه يتواضع في حين أنه يتعلل بعلل الخطايا . لأنه حيث يكثر القيح تشتد الحاجة إلى التداوي في سبيل استخراج النتن . أما الأصحاء فلا يذهبون إلى الطبيب .

٢٠ ـ لو استدعانا ملك من ملوك الأرض ورغب الينا في أن نخدم بين يديه لما تمهلنا أو تأخرنا البتة عن تلبية دعوته بل لتركنا كل شيء وبادرنا بنشاط إلى الالتحاق به . فإن كان ملك الملوك ورب الأرباب وإله الآلهة يدعونا إلى خدمته السماوية فلنحترس بالتالي لئلا نستعفي من الخدمة بدافع التهاون والتواني فنوجد بلا عذر في يوم الدين . ولعمري فإن من يرتبط بهموم هذا العمر واغلاله الحديدية قد لا يعجز عن المشي ولكنه يمشي بعناء . لأن المصفّدة ارجلهم في الحديد قد يمشون إلا أنهم لا ينفكون يتعثرون ويتجرحون . أما المرتبط بأعمال هذا الدهر دون أن يكون متزوجاً فيشبه من أوثقت يداه فقط ولذا لا يوجد ما يمنعه من الانخراط في السيرة الرهبانية متى شاء . وأما المتزوج فيماثل من قيدت يداه ورجلاه معاً .

٢١ ـ قال لي ذات مرة اناس عائشون في العالم بالتواني : كيف نستطيع أن نسلك رهبانياً ونحن متزوجون ومنهمكون في هموم الحياة ؟ فأجبتهم : افعلوا ما استطعتم من الصالحات، لا تعيّروا احداً، لا تخدعوا احداً، لا تسرقوا احداً، لا تتشامخوا على أحد، لا تمقتوا احداً، لا تنقطعوا عن صلوات الكنيسة، اعطفوا على المحتاجين، لا تعثروا احداً، لا تقتربوا من نصيب غيركم بل اكتفوا بنسائكم. إن فعلتم هذا فلن تكونوا بعيدين عن ملكوت السماوات.

٢٢ ـ لنعدُ في الجهاد الصالح بفرح وخشية ولا نخف اعداءنا لأنهم إنما يراقبون وجوه نفوسنا وهم غير منظورين، فإن رأوها متغيرة من الخوف فطنوا لجبننا حالاً وهاجمونا بأكثر ضراوة. فلنقاتلهم إذاً بشجاعة وشهامة، لأن من يحارب بشهامة لا يهاجمه احد.

٢٣ ـ إن الرب يخفف القتال عن المبتدئين وذلك سياسة منه لئلا يخوروا فيرجعوا للحال إلى العالم. فافرحوا إذاً بالرب في كل حين يا سائر عبيده، واعلموا أن هذه إنما هي العلامة الاولى لمحبة السيد لنا ولدعوته إيانا. ولكن الله أيضاً، إذا ما رأى نفوساً شجاعة، كثيراً ما يعرّضها للقتالات منذ البدء، كما هو معروف، مبتغياً أن يكللها سريعاً. وهو يخفي عن العائشين في العالم مشقة معركة الزهد، (بل سهولتها في الحقيقة)، لانهم لو عرفوها لما زهد في الدنيا أي ذي جسد.

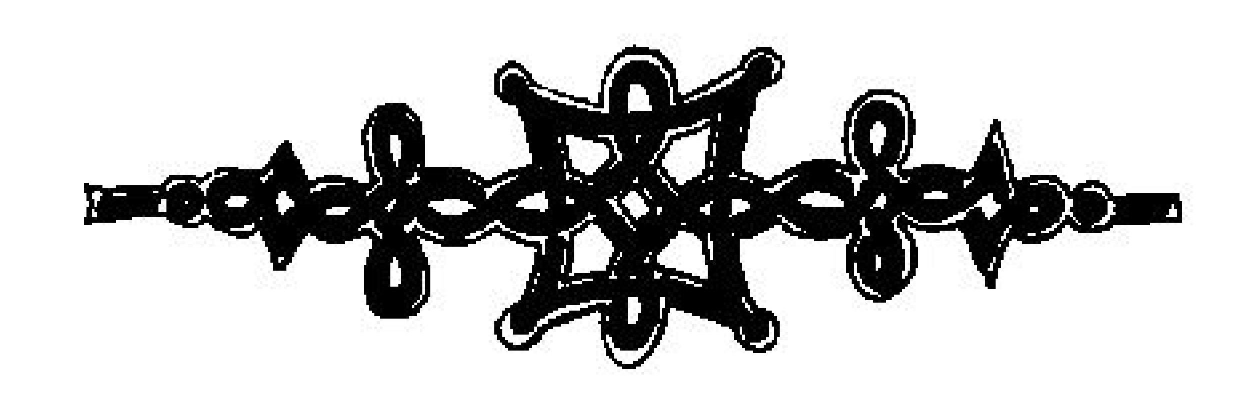
٢٤ ـ قدّم للرب أتعاب شبابك فتفرح في شيخوختك بغنى اللاهوى. فإن ما يدخر في الصبا يغذي الذين يضعفون في الشيخوخة ويعزّيهم. فلنبذل إذا جهدنا في حداثتنا ونجدّ في السير ساهرين لأن ساعة الموت مجهولة، واعداءنا اشرار حقاً وشرسون، مخادعون ومحتالون، أشداء لا ينامون قط، وهم غير منظورين ولا جسديون، وفي ايديهم نار يرغبون أن يحرقوا بها هيكل الله لاتّقاد حسدهم. فلا يقبلن احد في شبابه مشورة اعدائه الشياطين القائلين له : لا تضنِ جسدك لئلا تنتابك الأمراض والأسقام. لأننا نكاد لا نجد شاباً، لا سيما في جيلنا الحاضر، يعزم على إماتة جسده حقيقة وإلى النهاية، وإن كان يحرم ذاته كثيراً من الأطعمة اللذيذة. وغرض الأبالسة من إيحائهم هذا أن يجعلوا دخولنا في معركة الزهد مشوباً بالاسترخاء والتواني منذ البدء، وبالتالي أن يجعلوا النهاية مطابقة للبداية.

٢٥ ـ على الذين عزموا على خدمة المسيح حقيقة أن يعمدوا قبل كل شيء إلى اختيار المكان والطريقة والسكنى والممارسات النسكية التي تلائمهم ، وذلك باستطلاعهم الشخصي ومعونة الآباء الروحيين ، لأن الاديرة ذات المعيشة المشتركة لا توافق كل الناس من جهة الشراهة ، وكذلك فإن مواضع العزلة والسكون ليست للجميع من جهة الغضب . فليفحص كل واحد إذاً ما يوافقه .

٢٦ ـ تنحصر السيرة الرهبانية كلها في مناهج ثلاثة وهي الاعتزال في جهاد منفرد ، أو الإخلاد إلى السكون برفقة شخص أو شخصين آخرين ، أو الإقامة بصبر في دير ذي معيشة مشتركة . ويقول الكتاب : لا تملْ يمنة ولا يسرة[٢] ، بل اسلك الطريق الملوكية[٣] ، لأن الطريقة الوسطى بين المناهج الثلاثة الآنفة الذكر تلائم الكثيرين ، وقد قيل : «ويل لمن هو وحده لأنه إن وقع» في ضجر أو غفوة أو توان أو يأس «فليس له من يقيمه»[٤] ، لكن «حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون في وسطهم» يقول الرب[٥] .

٢٧ ـ فمن هو يا ترى الراهب الأمين الحكيم ؟ هو من يحفظ غيرته متقدة إلى النهاية ، ولا يزال حتى الممات يزيد كل يوم على ناره ناراً وعلى اضطرامه اضطراماً وعلى شوقه شوقاً وعلى همته ونشاطه نشاطاً دون انقطاع .

هذه درجة اولى ، ومن وطئها فلا يعودن إلى الوراء .



(٢) امثال ٤ : ٢٧ .
(٣) عدد ٢٠ : ١٧ .
(٤) الجامعة ٤ : ١٠ .
(٥) متى ١٨ : ٢٠ .



المقالة الثانية

التخلي عن كل شيء

١ ـ إن من يحب الله حقيقة ، ويلتمس الملكوت حقيقة ، ويتوجع حقيقة لهفواته ، ويلهج حقيقة بذكر الدينونة والعذاب الأبدي ، وتلازمه حقيقة مخافة ساعة الموت ، لن يتعلق ولن يهتم ولن يبالي بأموال أو املاك أو والدين أو مجد دنيوي أو اصدقاء او اخوة أو أي شيء أرضي على الاطلاق ، لكنه إذ قد طرح عنه كل ارتباط وكل انشغال بأمور الأرض ، بل مقت جسده قبلها ، فهو يتبع المسيح عارياً بلا هم ولا تثاقل ، متطلعاً دوماً إلى السماء ومتوقعاً المعونة من هناك ، حسب القول المبارك : «التصقت نفسي بك»[1] والقول الآخر : «إنني لم أكلّ في اتباعي إياك ولم اشته يا رب يوم انسان ولا راحة انسان»[2] .

٢ ـ إنه لخزي عظيم أن نترك امور الدنيا بدعوة من الله لا من الناس ثم نعود فنهتم بما لا ينفعنا في أوان الشدة أعني في ساعة الموت . لأن هذا هو الالتفات إلى الوراء الذي قال عنه السيد أنه لا يصلح لطلاب ملكوت السموات[3] . وإذ عرف الرب سرعة عطبنا وزللنا ، نحن المبتدئين ، واحتمال رجوعنا إلى العالم بأيسر مرام إذا عاشرنا العلمانيين او تحدّثنا معهم ، قال لمن استأذنه أن يمضي ويدفن اباه : «دع الموتى يدفنون موتاهم»[4] .

٣ ـ ويوصي الينا الشياطين بعد تركنا العالم أن نغبط العلمانيين الشفوقين المحسنين إلى الفقراء ونرثي لأنفسنا لحرماننا فضيلة اولئك جملة . وغرض اعدائنا أن يعيدونا إلى العالم بتواضع كاذب ، أو أن يوقعونا في اليأس إن بقينا رهباناً . هذا وقد

(١) مز ٦٢ : ٨ .
(٢) ارميا ١٧ : ١٦ (كثيراً ما يورد السلمي آيات الكتاب غيباً وبالتالي بشيء من التصرف) .
(٣) لو ٩ : ٦٢ .
(٤) متى ٨ : ٢٢ .

يحدث أن نستخف بأهل العالم بدافع الغرور أو نعمد إلى ازدرائهم في غيابهم هرباً من القنوط والتماساً للرجاء .

٤ - لنصغ إلى ما قاله الرب للشاب الذي كان قد حفظ معظم الوصايا : «تعوزك واحدة بعد : أن تبيع ما لك وتعطي الفقراء»[٥] ، وتصير انت فقيراً تتقبل الصدقة .

٥ - لنتأمل ونفطن ، نحن الذين عزمنا على السير سيراً حثيثاً دؤوباً ، كيف حكم الرب بأن جميع المقيمين في العالم هم أموات وإن كانوا احياء ، وذلك حين قال : «دع الموتى (العلمانيين) يدفنون الموتى (بالجسد)»[٦] . لم تكن ثروة ذلك الشاب حائلاً بينه وبين اقتباله المعمودية[٧] ، وبالتالي باطل هو قول القائلين بأن الرب قد اوعز إليه ببيع ما له في سبيل المعمودية وليس في سبيل الترهب ويكفينا هذا دلالة على مدى سمو دعوتنا الرهبانية .

٦ - إن الذين يفنون ذواتهم في العالم بأسهار وأصوام واتعاب وأنواع من الحرمان والنكد ، متى انقطعوا عن الناس وأتوا إلى العيشة الرهبانية كالى ميدان امتحان أو قتال لا يعودون يمارسون نسكهم السابق الفاسد والكاذب . فقد رأيت غروساً كثيرة من الفضائل المختلفة غرسها الذين هم في العالم وكان العُجب يسقيها (كما من حمأة خفية) والتباهي يفلحها والمدائح تسمّدها . ولكنها لما نقلت إلى أرض مقفرة لا يسلكها العلمانيون ولا يسقيها ماء الغرور المنتن جفت للحال . هذا لأن الغروس المعتادة على الري لا تثمر في الأراضي القاحلة العديمة الماء .

٧ - من أبغض العالم نجا من الحزن ، ومن تعلق بشيء من المنظورات لم يعتق منه بعد . إذ كيف لا يحزن لفقده ما يحب ؟ إننا نحتاج في كل شيء إلى تيقظ بليغ ولكن علينا أن ننتبه قبل أي شيء آخر للأمر التالي : إني رأيت كثيرين قد افلتوا في العالم من هيجان الجسد وذلك من جراء الهموم والشواغل والثرثرات والاسهار العالمية . ولكن لما أتوا إلى الحياة الرهبانية وانقطع عنهم كل اهتمام دنيوي دنستهم حركة الجسد تدنيساً يرثى له .

٨ - لنحذر أن نضل انفسنا فنقول أننا سالكون الطريق الضيقة الضاغطة في حين

(٥) مر ١٠ : ٢١ .
(٦) متى ٨ : ٢٢ .
(٧) بل بينه وبين الترهب .

أننا متمسكون بالطريق العريضة الواسعة . فمعالم الطريق الضيقة إنما هي التضييق على البطن ، والوقوف ما طال الليل ، وشرب الماء بالمعيار ، وعدم الشبع من الخبز ، وتجرع الإهانات المطهرة ، والتعرض لصنوف الاستهزاء والسخرية والتهكم ، وقطع المشيئة الذاتية ، والصبر على الصدمات ، وعدم التذمر من الهوان ، واحتمال المسبات ، والتجلد بازاء الظلم ، وعدم الاغتياظ من الثلب ، وعدم الغضب بسبب الازدراء ، والتواضع أمام الادانة والحكم . طوبى للناهجين هذا الطريق فإن لهم ملكوت السموات .

✓ [٩ ـ لن يدخل احد الخدر السماوي مكللاً ما لم يزهد الزهد الاول والثاني والثالث اعني التخلي أولاً عن كل شيء وعن جميع الناس وعن الوالدين ثم قطع المشيئة الذاتية ، وأخيراً طرح الغرور الناجم عن الطاعة . «اخرجوا من بينهم واعتزلوا ولا تمسوا نجساً من نجاسات العالم يقول الرب»(٨)] لانه من من اولئك اجترح يوماً عجائب ؟ من أقام الموتى ؟ من طرد شيطانا ؟ لا احد . فهذه المعجزات كلها إنما هي حوائز خاصة بالرهبان ولا مكان لها في العالم ، وإلا لكان النسك والتوحد فضلة زائدة .

١٠ ـ إذا عمد الشياطين ، بعد اعتزالنا العالم ، إلى اذكاء ذكر والدينا واخوتنا في قلوبنا فلنتدرع ضدهم بالصلاة ونلهب نفوسنا بذكر النار الأبدية لكيما نخمد بها النار المقلقة التي في قلبنا .

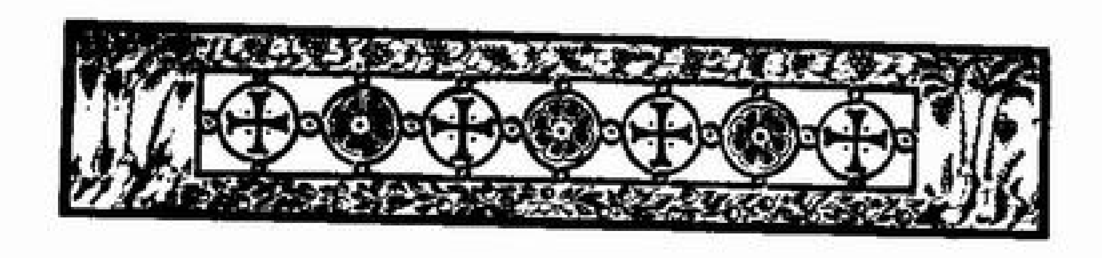
١١ ـ من يظن أنه غير متعلق بشيء يملكه ويغتم لفقده هو مخدوع تماماً .

١٢ ـ على الشباب الذين يميلون إلى عشق الأجسام ورخاء العيش ، ويرغبون في دخول السيرة الرهبانية ، أن يبادروا ويجدّوا في التدرب على التيقظ والاحتراز ويعقدوا النية على الإحجام عن كل تنعم وكل مساءة لئلا «تصير أواخرهم شراً من اوائلهم»(٩) . إن الميناء مكان للنجاة وللأخطار في آن ، والسالكون في البحر العقلي يعرفون ذلك . ولعمري إنه مشهد يرثى له أن يرى الذين نجوا في اللجة يغرقون في الميناء .

هذه درجة ثانية ، يا من دخلها لا تشابه امرأة لوط ، بل اجرِ هارباً إلى الأمام مماثلاً لوط ذاته .

---

(٨) ٢ كو ٦ : ١٧ . (٩) متى ١٢ : ٤٥



المقالة الثالثة

في الغربة

١ ـ الغربة هي الإعراض النهائي عن كل شيء يعيقنا في وطننا عن بلوغ التقوى التي نشدناها . الغربة خلق عديم الدالة ، وحكمة مجهولة عند الناس ، وفطنة مخفية عنهم ، وعيشة محتجبة ، وغاية مكتومة ، وتدبير خفي ، وتوق إلى التذلل ، واشتهاء للضيق ، ومنطلق للشوق إلى الله . هي كثرة الحب ، وجحود العُجب ، وتوغل في الصمت .

٢ ـ إن الهاجس الذي يلح عادة على محبي الرب الحاحاً لجوجاً ومتواصلاً كأنه نار الهية هو هاجس يحث عشاق الكمال ، في بدء زهدهم ، على الابتعاد عن الأهل طلباً للتذلل . ولكن هذا الفكر الصالح ، بقدر ما هو سام وجدير بالمدح ، يتطلب تمييزاً كثيراً في اتباعه إذ ليست كل غربة قصوى حسنة .

٣ ـ إن كان «ليس لنبي كرامة في وطنه» كما قال الرب[١] ، فلنحذر ألا تصير لنا الغربة باعثاً على العُجب . لأن الغربة هي الانفصال عن كل شيء بغية بقاء الذهن غير منفصل عن الله . إنها شغف بالنوح الدائم على الخطايا أو سبب له . الغريب هو من يهرب من كل اتصال بأهله وبالغرباء عنه على السواء .

٤ ـ إذا حزمت أمرك وقصدت الغربة أو الوحدة لا تؤجل ذهابك منتظراً أن يرافقك أحد ممن يحبون العالم لأن اللص يتخفى . فكثيرون حاولوا أن يخلّصوا معهم أناساً آخرين متوانين أو مترددين فهلكوا سوية ، إذ خبت مع الزمن نار نفوسهم . فأنت متى اقتبلت ذاك اللهب إمض مسرعاً لأنك لا تعلم متى ينطفىء ويتركك تتسكع في الظلام . أما تخليص الآخرين فلسنا كلنا مطالبين به لأن الرسول الالهي يقول : «لا بد

(١) يو ٤ : ٤٤

لكل واحد منا يا اخوة أن يعطي لله حساباً عن نفسه[٢]» ، وأيضاً : «يا من تعلّم غيرك أما تعلّم نفسك» ؟[٣] فلا شك أن الجميع مطالبون بتخليص نفوسهم .

٥ ـ احترس في تغربك من شيطان الجولان المحب اللذة ، فإن الغربة تتيح له الفرص .

٦ ـ صالح هو التجرد عن كل شيء ، والغربة تلده . فمن تغرب لأجل الرب فلا يتعلقن بشيء فيما بعد لئلا يظهر وكأنه يدور في سبيل اهوائه .

٧ ـ يا من تغرب عن العالم لا تعد تدنو إليه ، لأن الأهواء من طبعها تطلب العودة .

٨ ـ لقد نفيت حواء من الفردوس كرهاً ، وتغرب الراهب عن وطنه طوعاً . أما تلك فلأنها لو بقيت لكانت ستشتهي شجرة المعصية ثانية ، وأما هو فلأنه لو بقي لكان ولا شك قد عرّض نفسه للخطر كل يوم من جراء أهله بالجسد .

٩ ـ اهرب من أماكن السقطات هربك من السياط ، لأنك لا تشتهي الثمرة اشتهاء متواصلاً إذا كانت غائبة عنك .

١٠ ـ لا يخف عليك نهج اللصوص وغشهم . فانهم يوحون الينا الا نفارق أهل العالم زاعمين أننا إنما نجني ثواباً عظيماً إذا شاهدنا النساء وضبطنا ذواتنا . فينبغي الا نصدق ذلك بل الاولى بنا أن نعمل بخلافه .

١١ ـ متى فارقنا ذوينا مدة سنة أو أكثر واجتنينا لأنفسنا قليلاً من الورع ، أو نخس القلب ، أو الإمساك عن الاهواء ، تقف حينذاك بنا أفكار البطل الكاذبة وتوحي الينا بالعودة إلى الوطن لكي نبني كثيرين ونكون ، على زعمها ، مثالاً ومنفعة لمن شهدوا أعمالنا الفاسدة فيما سلف . أما إن كنا قد بلغنا شيئاً من الفصاحة والمعرفة فتوسوس لنا حينذاك بالرجوع إلى العالم بمنزلة معلمين ومخلّصين للنفوس حتى تبدد في اللجة ما جمعناه حسناً في الميناء . فلنجتهد بالتالي أن نماثل لوط لا امرأته ، إذ إن النفس التي تعود إلى

---

(٢) رو ١٤ : ١٢ .

(٣) رو ٢ : ٢١ .

المكان الذي خرجت منه تفسد وتصير في توانيها كعمود ملح بلا حراك . اهرب من مصر ولا تلتفت إلى الوراء لأن القلوب التي رجعت إليها لم تعاين اورشليم ، ارض الانعتاق من الأهواء . وقد يحدث أن يبدأ فيترك البعض ذويهم لطفولتهم في الحياة الروحية ثم يتطهروا تطهيراً كاملاً فيعودوا إليهم عوداً موافقاً نافعاً ، لعله في سبيل تخليص آخرين بعد تخليصهم انفسهم ، علماً بأن موسى الذي عاين الله وأرسل من قبله تعالى لانقاذ بني جنسه قد صادف في مصر اخطاراً كثيرة ، هي ظلمات العالم .

١٢ ـ حسن أن نُحزن الوالدين ولا نحزن الرب ، لأن الرب خلقنا وخلصنا ، أما الوالدون فكثيراً ما تسببوا في هلاك الذين أحبوهم ، ودفعوهم إلى العقاب .

١٣ ـ متغرب حقاً هو من يساكن قوماً ويكون بينهم كمن لغته غير لغتهم ، وذلك بمعرفة وليس عن جهل.

١٤ ـ نحن لا نفارق ذوينا كرهاً بهم أو ببلدنا، لا سمح الله، بل تجنّباً للضرر الذي قد يلحقنا بسببهم. لقد صار المسيح مرشداً ومعلماً لنا في هذا الصدد أيضاً. إذ من البين انه كثيراً ما ترك والديه بالجسد، ولما سمع البعض يقولون: «إن امك واخوتك يطلبونك» اظهر حالاً، كمعلم صالح، كراهية خالية من الهوى، إذ قال: «أمي واخوتي هم الذين يصنعون مشيئة ابي الذي في السموات»[٤].

١٥ ـ ليكن اباك من يرضى ويستطيع أن يتعب معك في رفع حمل خطاياك عنك . ولتكن امك التوبة القادرة على غسلك من ادرانك . وليكن اخاك من يكد ويناضل معك في الطريق إلى العلى . واقتن قرينة لا تنفصل عنك هي ذكر الموت . ولتكن اناث قلبك اولادك الأحياء . واملك جسدك عبداً لك ، ولتكن اصدقاءك القوات القدوسة القادرة أن تنفعك وقت خروج نفسك . «فهذا هو جيل الذين يبتغون الرب»[٥] .

١٦ ـ الشوق إلى الله يلاشي الشوق إلى الوالدين. ومن يزعم أنه يمتلك كلا الشوقين معاً يضل نفسه إذ يسمع قول القائل : «لا يقدر احد أن يخدم ربين»[٦] . . .

---

(٤) متى ١٢ : ٤٩ .

(٥) مز ٢٣ : ٦ .

(٦) متى ٦ : ٢٤ .

ويقول الرب أيضاً وما جئت لألقي على الأرض سلاماً، أي محبة الوالدين والاخوة ، للمزمعين أن يخدموني ، وبل حرباً وسيفاً[٧] يفصل محبي الله عن محبي العالم ، والجسدانيين عن الروحانيين ، والمتكبرين عن المتواضعين . لأن الرب يسر بمن ينفصلون عن العالم من أجل حبه .

١٧ ـ انظر واحذر لئلا تتراءى لك كل الأشياء بهية ندية من جراء تعلقك وكلفك بممتلكات ذويك ، فتنجرف وتغرق معهم في طوفان حب العالم . لا تشفق على دموع والديك واصدقائك وإلا فأنت مزمع أن تبكي إلى الأبد . فمتى احاط بك اهلك كالنحل ، وبالأحرى كالزنابير ، منتحبين عليك ونادبين ، اشخص حالاً بنظر النفس إلى ساعة موتك ، وسياق حياتك ، ولا تلتفت اليهم ، لكي يمكنك أن ترد حزناً بحزن . وقد يخدعنا اهلنا ، وهم في الوقت نفسه ليسوا بأهلنا ، فيعدوننا بأن يقضوا لنا كل ما نحب ، مبتغين بذلك عرقلة مسيرتنا الفاضلة واستمالتنا إلى غايتهم .

١٨ ـ لننصرف من بلدنا إلى مكان أقل تعزية وشرفاً وأكثر اتضاعاً ، وإلا فسنهرع إليه مصطحبين معنا اهواءنا .

١٩ ـ اكتم شرف نسبك ولا تتباه بسمعتك لئلا تكون في اعمالك على غير ما انت عليه في أقوالك .

٢٠ ـ لم يستسلم احد لمثل غربة ذاك الذي سمع النداء التالي : واخرج من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك[٨] ، مع أن ذلك العظيم كان مدعواً للذهاب إلى أرض غريبة ، غير متحضرة ، ولغة اهلها غير لغته .

٢١ ـ إن هناك من تغرب على مثال ذاك الجليل فمجده الله تمجيداً اعظم[٩] ولكن ، وإن كان مثل هذا المجد عطية من الله ، فحسن أن يُرَد بترس التواضع .

٢٢ ـ إذا اثنى علينا الشياطين أو الناس بسبب غربتنا كأننا أكملنا عملاً عظيماً فلنذكر من تغرب من السماء إلى الأرض لأجلنا . فنجد انفسنا حينذاك عاجزين إلى ابد

(٧) متى ١٠ : ٣٤ .

(٨) هو ابراهيم في سفر التكوين ١٢ : ١ .

(٩) ربما يقصد به يوسف بن يعقوب .

الأبد عن وفائه .

٢٣ ـ إن التعلق بأحد من ذوينا أو من الغرباء عنا لا يخلو من خطر إذ إنه قادر على اجتذابنا شيئاً فشيئاً إلى العالم وعلى إخماد نار توبتنا بالكلية . فكما أنه يستحيل الاشارة بعين واحدة إلى السماء وبالعين الأخرى إلى الأرض هكذا يستحيل أن لا يتعرض للخطر من لا يتغرب بالتمام فكراً وجسداً عن جميع ذويه وغير ذويه .

٢٤ ـ إن الخلق الصالح القويم لا يثبت فينا إلا بتعب وكد جزيل . ولكن ما حققناه بكد جزيل يمكن أن يتلاشى في لحظة واحدة . لأن المحادثات الرديئة ، الشائنة منها أو العالمية البطالة على السواء ، تفسد الطبائع الصالحة . من يخالط أو يجاور أهل العالم بعد زهده في العالم لا بد أن يؤخذ في حبائلهم أو يدنس قلبه بالتفكير في أحوالهم . وإن لم يتدنس بدين المتدنسين ومن ثم يتدنس هو بذلك .

في احلام المبتدئين

٢٥ ـ ليس بمقدوري أن أخفي عجز عقلي عن المعرفة وامتلاءه من كل جهل ، لأنه كما أن الحلق يميز الأطعمة كذلك يميز السمع تعبير الأفكار ، وكما تكشف الشمس ضعف البصر تفضح الكلمات جهل النفس . ولكن شريعة المحبة تضطرني إلى القيام بما يفوق قدرتي . وبناء عليه فإني أرى (ولا أجزم) أنه ينبغي أن يدرج هنا ، بعد الكلام عن الغربة ، أو بالحري في سياقه ، شيء عن الاحلام ، حتى نكون على بيّنة من مكر الماكرين في هذا المضمار .

٢٦ ـ الحلم هو تحرك الذهن عند رقاد الجسد . الرؤيا خدعة للعين عند هجوع العقل . الرؤيا سهو للذهن في يقظة الجسد . الرؤيا مشهد لا أساس له في الواقع .

٢٧ ـ لا يخفى أن السبب الذي دعانا ترتتي التكلم عن الاحلام بعد الغربة هو أن الشياطين ، متى تركنا بيوتنا واهلنا لأجل الرب ، وبعنا ذواتنا للغربة حباً بالمسيح ، يحاولون إقلاقنا عن طريق الاحلام ، فيصورون لنا اهلنا إما نادبين أو محتضرين أو مسجونين وفي عناء بسببنا . فمن يصدق الأحلام يشبه بالتالي من يركض وراء ظله .

٢٨ ـ إن شياطين العُجب يتنبأون لنا في النوم عن امور وشيكة الحدوث يستدلون

عليهـا بمكرهم . وإذا تحقق مـا رأيناه في الحلم تعجبنـا وتكبرنـا كأننـا أوشكنا عـلى اقتناء موهبة معرفة المستقبل . وكثيراً ما يكون هذا الشيطان بمرتبة نبي عند الـذين يصدقونه . ولكن خداعه ينفضح دائماً عند الذين يزدرونه . لأنـه إنما يشـاهد مـا يحدث في الهـواء ، كـونه روحـاً ، وإذا فطن لاحتضـار احد يسبق فينبيء عن مـوته في الحلم أكـثر الأخوة خفة وغباوة . إلا أن الشياطين لا يعلمـون شيئاً عن المستقبـل من قبيل سـابق المعرفـة . وقد يستطيع الأطباء أيضاً أن «يتنبأوا» لنا عن الموت .

٢٩ ـ كثيراً ما يغيّر الشياطين شكلهم إلى ملائكة نور أو هيئة شهداء ويصورون لنا في الحلم انهم يظهرون لنا . وإذا أفقنا من النـوم غمرونـا بعجب وفرح بـاطلين . ولكن إليـك هذه العـلامة لفضـح مكرهم : إن المـلائكة الحقيقـين إنما يصـورون لـنا العقـاب والـديتونة والانفصال عن الله فـنستيقظ مـرتعدين مغمـومـين . أمـا إذا أخـذنـا نصـدق الشياطين في أحلام النوم فـانهم سيلعبون بنـا في اليقظة . من يصـدق الاحلام هـو عادم الخبرة بالكلية . ومن يكذبها كلها فهـو حكيم . صدّق فقط الـذين يبشرونـك بالعقـاب والدينونة . ولكن إن ألمّ بك يأس من جراء ذلـك فاعلم أن هـذه الاحلام أيضـاً هي من الشياطين .

هذه درجة ثالثة تساوي عدد الثالوث ، فمن بلغها لا يلتفت يمنة أو يسرة



المقالة الرابعة

في الطاعة المغبوطة الدائمة الذكر

١ ـ لقد وصلنا الآن في سياق بحثنا إلى الكلام عن المصارعين صراع الطاعة حباً بالمسيح . إذ إنه كما تعقب الثمرة الزهرة كذلك تعقب الطاعة التغرب بالجسد والمشيئة . لأن الطاعة المقدسة إنما تصعد إلى السماء بواسطة هذين التغربين بالجسد والمشيئة اللذين هما بمثابة جناحيها الذهبيين . ولعلهما المقصودان بما قاله داود بالروح مترنماً : «من يعطيني جناحين كالحمامة فأطير» بالعمل «وأستريح»[1] بالتأمل والاتضاع .

٢ ـ فلا نهملنّ إذاً ، إن شئتم ، وصف قتال هؤلاء المحاربين الشجعان ، مبيّنين بإسهاب كيف يقتنون الإيمان بالله ترساً ، إذا جاز القول ، يردّون به كل ارتياب أو تردد ، وكيف يشرعون سيف الروح كل حين يقطعون به كل مشيئة ذاتية تقترب إليهم . وكيف يتدرعون بالدرع الحديدي درع الصبر والوداعة فيحطمون به كل طعنة وتعيير أو تكبر ، وكيف يحتمون بخوذة خلاص هي صلاة رئيسهم ، وكيف لا يضمون رجلاً إلى أخرى بل يمدون الواحدة إلى العمل والخدمة ويثبتون الثانية في الصلاة .

٣ ـ الطاعة جحود تام للنفس يتجلى في أعمال الجسد . أو لعلها بالعكس إماتة الجسد ، فيما الفكر حي . الطاعة إقدام بدون بحث ، موت طوعي ، سيرة بلا تعقيد ، عدم الاكتراث للأخطار ، حماية تلقائية من لدن الله ، عدم الخوف من الموت ، إبحار أمين ، سفر أثناء النوم . الطاعة قبر للمشيئة وقيامة للاتضاع . فالميت لا يناقض أو يباحث لا في الصالحات ولا في ما يحسب أنه من غير الصالحات . لأن الذي أسلم إليه الراهب روحه حباً بالله سوف يجيب عنه بشأنها كلها . الطاعة هي التخلي عن التمييز في وفرة من التمييز .

٤ ـ في بداية إماتة الجسد والمشيئة مشقة ، وفي منتصفها بعض المشقة ، أما في

---

(١) مز ٥٤ : ٦ .

نهايتها فزوال الشعور بأية مشقة ، بـل يشقى ذلك المطيع المغبـوط ، الحي والميت في آن واحـد ، ويتألم اذا لاحظ انه يصنع ارادته ، وذلـك خـوفـا من عبء المشيئـة الـذاتيـة وتبعتها .

٥ ـ انتم الذي عزمتم ان تخوضوا معـركة الشهـادة ، انتم الـذين آثـرتم ان تحملوا نير المسيح ، انتم الـذين بادرتم الى إلقـاء حملكم على عنق غيـركم ، انتم الذين أسـرعتم باختياركم الى كتابة صك عبوديتكم راغبين ان يُكتب لكم العتق والحريـة بالمقـابل ، انتم الذين تعبـرون هذا البحر الكبير مرفوعين على أيدي غيركم ، اعلموا انكم قـد عزمتم ان تـسلكوا طريقا قصيرة بقدر ما هي وعرة ، طريقا فيها ضلالة واحـدة : هي اتّباع الانـسـان هواه . لأن من يجحد اتّباع هواه جحودا كاملا حتى في ما يبدو له صالحا وروحيـاً ومرضيـاً لله قد وصل قبل انطلاقه للسفر . وذلك أن الطاعة هي عدم وثـوق المرء بنفـسـه حتى آخر عمره في تقدير ما هو صالح له .

٦ ـ متى أزمعنا بدافع الاتضاع وطلبـا للخلاص ان نُخضـع ذواتنا لشخص آخـر ونـأتمنه في الـرب ، فلنعمد اولا الى الفحص والتـدقيق بل الى اختيـار مرشـدنا اذا جـاز القول ، لا سيما اذا كنا على شيء من الخبث او التكبر ، وذلك لئـلا نصادف نـوتيـاً بـدلا من ربان ، ومريضا بدلا من طبيب ، وانسانا مستعبدا للأهـواء بدلا من انسـان متحرر منها ، ولجة بدلا من ميناء ، فنلاقي غرقا وشيكا لنفوسنا . اما بعد دخولنا ساحة التقوى والطاعة فلا نعودنّ ندين مرشدنا في اي شيء بالكلية ولو رأينا فيه زلات ذميمة ، مـا دام انسـانا . والا فلا ينفعنا خضوعنا شيئا .

٧ ـ لا بـد للطالبين ان يؤمنـوا بأوليـائهم ايمانـا راسخا لا ريـب فيـه أن يحفظوا في قلوبهم حفظا لا يمحى ما أحكمه هؤلاء من الفضائل وان يذكروه على الـدوام ، حتى اذا زرعت الشياطين فينا عدم الثقة بهم نـسكتها بذكر تلك الفضائل الثابت فينا . لأنه بمقدار ما تنمو الثقة في القلب ينشط الجسد في الخدمة . اما اذا عثر احد في الشك فقـد سقط ، « لأن كل ما ليـس من الايمان فهو خطيئة »[٢] . فاهرب من الفكر الموحي اليك بالفحص عن رئيسك او الحكم عليه هربك من فكر الزنى . ولا تفسـح لهذه الحيـة اي مجال البتـة للدخول اليك . بل قل لـذلك التنين : ايها المحتـال انا ليـس لي سلطان ان احكم عـلى

(٢) رو ١٤ : ٢٣ .

رئيسي بل هو له سلطان ان يحكم علي . لست انا قاضيا عليه بل هو قاض علي .

٨ ـ لقد حدد الآباء ان تلاوة المزامير سلاح والصلاة سور والدمعة النقية حميم . اما الطاعة المغبوطة فقد حكموا بأنها شهادة لن يبصر الرب بدونها احد من المستعبَدين للأهواء .

٩ ـ من يُخضع ذاته لغيره يحكم هو على نفسه فينجو من الدينونة . لأنه ، اذا كانت طاعته كاملة لأجل الرب ، وان ظن انها غير كاملة ، فهو «يستهلك» دينونته . أما اذا صنع مشيئته في شيء ما ، فانه يحمل وزر نفسه ، ولو ظن نفسه مطيعا . فاذا عمد الرئيس الى توبيخه دون انقطاع فقد ينتفع . اما ان سكت عنه فليس لي ما اقول في امره . ولعمري ان الذين يخضعون لغيرهم بكل بساطة في الرب يعبرون الميدان بسلام ولا يحركون على انفسهم مكر الشياطين بميلهم الى التدقيق .

١٠ ـ لنقرّ بخطايانا لقاضينا الصالح وحده قبل اي انسان . وان أمَرنا فلنعترف بها لكل الناس . لأن الجراحات اذا شُهرت لا تصير الى حال اسوأ بل تشفى .

١١ ـ شهدت مرة في دير راعٍ وقاضٍ صالح حكما مريعا . فقد اتفق لما كنت هناك ان لصاً محترفا تقدم الى السيرة الرهبانية ، فأمر ذلك الراعي الفاضل والطبيب الحاذق ان ينعم اللص براحة كاملة مدة اسبوع يقتصر فيها على ملاحظة النظام المتبع في الدير . وبعد انقضاء الاسبوع استحضره الراعي على انفراد وسأله ان كان يرضى بالسكنى معهم . ولما رآه راضياً بذلك بكل صدق سأله أيضاً عن طبيعة المعاصي التي ارتكبها في العالم . ولما رآه قد بادر الى الاعتراف بها بنشاط قال ممتحنا اياه : اريدك ان تشهر اعمالك هذه بحضرة جميع الاخوة . واذ كان قد مقت خطيئته حقا ، ولم يبال بالخجل قط ، قبل بهذا بلا ارتياب وقال : ان شئت فاني اعترف بها في وسط الاسكندرية . وفي يوم الاحد التالي جمع الراعي كل اغنامه الناطقة البالغ عددها مائتي وثلاثين راهبا ، وبعد تلاوة الانجيل اثناء اقامة الخدمة الالهية أُحضر ذلك المجرم المزكى ، يجره بعض الاخوة ويلطمونه برفق ، وقد كتفت يداه وراء ظهره ، وأُلبس مسحا من شعر ، ونثر على رأسه رماد . فانذهل الجميع لهذا المشهد واخذوا يجهشون بالبكاء ، اذ لم يكن احد على علم بما يجري . ولما وصل الى باب الكنيسة على هذه الحال صرخ به ذلك الرئيس القديس والقاضي الرؤوف بصوت عظيم قائلا : قف عندك ، فانك لست اهلا ان

تدخل الى هنا . فاندهل من صوت الراعي الذي اتاه من الهيكل كل الانذهال (اذ ظن انه لم يسمع صوت انسان بل صوت رعد ، على ما اكد لنا بقسَمٍ فيما بعد) ، وجثا على وجهه للحال ، مرتجفا بجمله ومرتعشا من الخوف . واذ كان طريحا على الارض يبلّها بدموعه امره ذلك الطبيب العجيب مجددا ان يبوح امام الجميع بكل ما اجترمه وذلك لكيما يحقق خلاصه ويجعله للجميع مثالا للخلاص والاتضاع . فاعترف بالتفاصيل ، وهو مرتعد ، بكافة جرائمه وقد استغربها واستهولها كل من سمع بها . اذ ان خطاياه لم تكن خطايا جسدية ، طبيعية وغير طبيعية ، اقترفها مع الناس والبهائم وحسب ، لكنها بلغت الى جرائم التسميم والقتل وغيرها مما لا يجوز سماعه او كتابته . ولما اتم اقراره هذا امر الرئيس حالا بقص شعره واحصائه في عداد الاخوة .

١٢ ـ فعجبت لحكمة ذلك البار وسألته على انفراد : لماذا صنعت به هذا الامر الغريب ؟ فأجابني ذلك الطبيب الحقيقي قائلا : لغرضين اثنين ، اولهما لكيما اخلصه من الخزي الآتي بواسطة الخزي الحاضر ، وهذا ما تم فعلا ، لانه بالحقيقة ، يا اخي يوحنا ، ما ان نهض عن الارض حتى كان قد حظي بالصفح عن خطاياه كلها . لا تشك بصحة ذلك فان احد الاخوة الحاضرين اسرّ لي بانه قد رأى شخصا رهيبا يمسك ورقة مكتوبة وقلماً ، فكان يشطب بقلمه على كل خطيئة يقر الطريح بها . وهذا بعدل وانصاف ، لانه قيل : « قلت اعترف للرب بذنبي وانت صفحت عن خباثة قلبي »[٣] . اما الغرض الثاني فهو ان عندي بين الاخوة من قد اقترفوا ذنوبا لم يكشفوها فبهذه الطريقة استحثهم على الاعتراف بها ، اذ بدون هذا الاعتراف لا ينال احد الصفح عن زلاته .

١٣ ـ ولقد شاهدت عند ذلك الراعي النبيه وفي رعيته امورا اخرى جديرة بالاعجاب والذكر ، وسأحاول ان اورد لكم اكثرها . لأني اقمت عندهم زمانا ليس بيسير اتتبع سيرتهم وأدهش كل الدهش لمعاينتي هؤلاء الارضيين يماثلون السماويين .

١٤ ـ كان رباط المحبة بينهم قد اصبح لا ينفصم ، والامر الاعجب من هذا ان محبتهم كانت خالية من كل دالة وكل كلام بطال . كانوا يحرصون قبل كل شيء على ان لا يجرح احد وجدان اخيه في اي حال ، واذا أبدى احدهم مقتا لرفيقه نفاه الراعي الى الدير الخاص بالمذنبين . وقد حدث مرة ان عيّر احد الاخوة رفيقه بحضرة الراعي فأوعز

(٣) مز ٣١ : ٥ .

الكلي البر على الفور بطرده قائلا : لست اسمح ان يكون في الدير شيطان منظوراً كان او غير منظور .

١٥ ـ ورأيت عند هؤلاء القديسين اعمالا خيّرة حقا وجديرة بالاعجاب . رأيت اخوة متحدين وملتحمين في الرب يجودون في العمل والتأمل الى درجة مذهلة ، لأنهم كانوا يدربون انفسهم على ممارسة الاعمال الالهية باستمرار ، حتى انهم كادوا يستغنون عن تنبيه الرئيس لهم ، اذ كانوا ينبهون بعضهم بعضا تلقائيا الى التيقظ الالهي . فكانت لهم ممارسات مقدسة مدروسة وثابتة ، فان اشارة خفية معينة كانت كافية في غياب الرئيس لتنبيه من اخذ يعيّر او يدين غيره او ينطق بمجرد كلام بطال . وفي حال عدم انتباهه عمد من يذكّره الى السجود له الى الارض ثم انصرف . واذا وجب الكلام فيما بينهم كان ذكر الموت والدينونة حديثهم الدائم الذي لا ينضب .

١٦ ـ ولن أصمت عن ذكر الفضيلة النادرة التي تحلّ بها طاهي ذلك الدير فاني لما رأيته يتأمل باستمرار ويبكي اثناء خدمته تضرعت اليه ان يخبرني كيف أُهّل لنعمة كهذه . فأجاب مرغما : لم افكر يوما اني اخدم الناس بل الله ، واذ حكمت على ذاتي بأني لا أستحق اية راحة[4] فان هذه النار المنظورة تذكرني كل حين باللهيب الآتي .

١٧ ـ ولنسمع عنهم فضيلة نادرة اخرى ، فان هؤلاء المغبوطين لم يكونوا ليكفوا عن العمل العقلي اذ اعتادوا ان يذكّروا بعضهم بعضا بالصلاة الداخلية حتى اثناء الطعام . وذلك باشارة او علامة خفية معنية . وكنا نراهم يفعلون ذلك ليس فقط على المائدة بل في كل لقاء واجتماع .

١٨ ـ وكان اذا أذنب أحدهم يتضرع اليه الاخوة رفاقه ان يدعهم يعتذرون عن الذنب لدى الراعي ، لاقتبال التوبيخ عوضا عنه . فاذ درى هذا العظيم بذلك كان يخفف العقوبة لعلمه بأن من يحتملها غير مذنب . ولم يكن بالطبع يفحص عمن ارتكب الذنب بالفعل .

١٩ ـ اين منهم الكلام البطال او المزاح ؟ اذا شرع احدهم ينافر قريبه كان من يجتاز بهما يعمد الى السجود له فيزيل بذلك غيظه . وان شعر بأنهما حاقدان كان لتوّه يخبر

---

(٤) قد يقصد هنا هدوء التوحد.

بأمرها الراعي الثاني بعد الرئيس وكان هذا يعمل على مصالحتها قبل غروب الشمس . اما اذا استمرا على تصلبهما فكان يعاقبهما بعدم تناول الطعام الى ان يتصالحا او يطردا من الدير .

٢٠ - ولم يمارسوا هذا التشدد المحمود باطلا ، اذ قد أينع ثمرا وافرا ، فان كثيرين من هؤلاء الابرار قد برزوا في ميدان العمل والتأمل ، في التمييز والاتضاع . وكنت ترى مشهدا مهيبا ملائكيا : آباء وقورين جليلين مقبلين على الطاعة كالاطفال ، وكان تواضعهم هذا فخرا عظيما لهم . ورأيت بينهم من كانوا يقيمون في الطاعة منذ حوالي خمسين سنة ، فتوسلت اليهم ان يفيدوني عن اية تعزية جنوها من مثل هذا التعب . فأجاب البعض بأنهم انحدروا الى قعر التواضع الذي يُبعد عنهم كل قتال ، وقال آخرون انهم حازوا عدم التألم بل عدم الانفعال بالكلية ازاء التعييرات والشتائم .

٢١ - ورأيت بين هؤلاء الدائمي الذكر آخرين ذوي شيبة ملائكية يشعون براءة عميقة وبساطة حكيمة تلقائية ملهمة من الله ، وليس كالشيوخ الفاقدي الادراك الذين ألف الناس في العالم ان ينعتوهم بالخرف ، بل كانوا في ظاهرهم لطيفين عطوفين وديعين مشرقين ، بلا تكلف ولا تصنع ولا غش ، في كلامهم وفي طباعهم على السواء ، وهذا ما يندر وجوده . اما في داخلهم فكانوا يستمدون الروح كاطفال انقياء من الله نفسه ومن ابيهم الرئيس ويثبّتون نظر ذهنهم بجرأة في وجه الشياطين .

٢٢ - لا يكفي زمان حياتي ، ايها الرئيس الجليل والجماعة المحبوبة من الله ، لأخبركم بفضائل هؤلاء الرهبان المباركين وسيرتهم السماوية . غير انه من الافضل ان اُجمل حديثي لكم بذكر بعض اتعابهم واعراقهم من ان اعمد الى نصائحي التافهة لإنهاض غيرتكم الى محبة الله ، لأنه «بدون اي مشاجرة، الادنى يُعمَّل من الاسمى»[٥]. فأسألكم فقط ان لا يظن احد اني اكتب ما اكتب لكي اغرّكم، فان الارتياب يبطل الفائدة. فلنعدْ اذا الى سياق حديثنا.

٢٣ - ان رجلاً اسمه ايسيدوروس من رتبة القضاة في الاسكندرية كان قد ترك العالم منذ بضع سنين وقصد الدير المذكور حيث وجدته . فلما استقبله في الدير ذاك

(٥) انظر عب ٧:٧.

الراعي البار ، لاحظ انه شرير الطبع ، فظ ، شرس ومتعجرف جدا . فعمد الكلي الحكمة ، في سبيل التغلب على الشياطين ، الى الاحتيال على خبثهم بحيلة بشرية وقال لايسيدوروس : ان كنت عزمت على حمل نير المسيح أريدك ان تُحكم الطاعة قبل سائر الفضائل ، فأجاب : اني اطاوعك كما يطاوع الحديد الحداد ايها الاب القديس . فاغتنم الرئيس العظيم هذا التشبيه حالا ليروض « ايسيدوروس الحديد » وقال : أريدك يا اخي في الطبيعة ان تقف عند باب الدير وتسجد سجدة واحدة لكل من يدخل ويخرج منه قائلا : يا ابتاه صلِّ من اجلي فاني مصروع . فاطاعه ايسيدوروس طاعة الملاك للرب ، وأمضى واقفا هناك سبع سنوات بلغ في نهايتها الى اقصى الاتضاع وتوجع القلب . حينئذ رأى الرئيس الجليل ، بعد انقضاء السنين القانونية السبع وبالنظر لصبر ايسيدوروس المنقطع النظير ، انه اهل لأن يحصى مع الاخوة الرهبان ويشرطن كاهنا . اما هو فتضرع الى الراعي بلجاجة وبواسطة رهبان آخرين وبواسطتي انا الحقير ليدعه يتابع سعيه هناك مقيما على حاله السابق ، واشار بقول خفي الى قرب وفاته ودعوة الرب له . وهكذا كان . فانه اذ سمح له المعلم بأن يبقى حيث كان رقد بالرب بعد عشرة ايام مشرّفاً من جراء رفضه التشريف . وفي اليوم السابع لرقاده اخذ الرب اليه بواب الدير الذي كان قد وعده ايسيدوروس المغبوط بأنهما سوف يجتمعان قريبا اجتماعا لا ينقطع إن حظي بدالة لدى الرب . وهذا ما جرى في الواقع لأجل وفرة طاعته العظيمة غير المعاية وتواضعه الالهي .

٢٤ ـ وقد سألت ايسيدوروس العظيم ، حين كان على قيد الحياة ، عن افكاره لما كان واقفا بالباب ، فلم يكتم عني الامر ، متوخيا منفعتي ، وقال : كنت أتصور في البداية اني قد بعت بسبب خطاياي ، ولذا كنت أسجد السجدة بكل مرارة ومشقة ودم . وبعد انقضاء عام واحد اصبحت لا اغتم بل اتوقع من الله اجر طاعتي . وبعد مرور سنة اخرى كنت افكر بكل صدق اني غير مستحق لسكنى الدير ولا لمعاينة الآباء ومخاطبتهم ، ولا لتناول الاسرار الالهية او النظر الى وجه احد . فكنت أطرق الى الارض بنظري واتذلل أكثر بفكري متوسلا الى الداخلين والخارجين ان يصلوا لأجلي .

٢٥ ـ وحدث مرة بينما كنا جالسين الى المائدة ان ذاك المعلم الكبير أمال فمه المقدس الى اذني وقال : أتشاء ان أريك نبلا الهيا في شيبة قصوى ؟ فالتمست منه ان يمنّ علي بذلك ، فنادى راهباً عن المائدة الثانية اسمه لفرنتيوس كان في الدير منذ حوالي ثمان

واربعين سنة وهو الكاهن الثاني في الشركة . فلما جاء جثا على ركبتيه امام الرئيس طلباً للبركة . وعند وقوفه لم يقل له الرئيس شيئا البتة بل تركه امام المائدة منتصبا ، والبقية يأكلون (وكان ذلك حين دخولنا الى الطعام) ، فلبث واقفاً اكثر من ساعة بل حوالي الساعتين . وكنت اخجل ان اتطلع الى وجه ذلك المجاهد ذي اللحية البيضاء البالغ الثمانين من عمره . فلما مكث هكذا الى النهاية دون ان يكلمه الرئيس بشيء وقمنا عن المائدة ارسله البار ليقول لايسيدوروس العظيم ان يتلو بداية المزمور التاسع والثلاثين[٦] .

٢٦ ـ ولم يفتني انا الكثير الخبث ان اجرب الشيخ بسؤالي اياه عما كان يفكر اثناء وقوفه لدى المائدة فأجاب : لقد وضعت صورة المسيح على الراعي امامي ولم احسب قط انه هو الذي يأمرني بل الله . لذلك يا ابت يوحنا كنت احسب كأني واقف امام مذبح الله اصلي وليس امام الناس ، ولم يخالجني اي ظن سيء نحو الرئيس اطلاقا وذلك لإيماني به وحبي له . لأنه قيل : « المحبة لا تظن السوء »[٧] فاعلم ايها الأب انه اذا بذل احد ذاته طوعا للبساطة ومباينة الشر فلن يتيح للخبيث مكانا او فرصة للدخول اليه فيما بعد .

٢٧ ـ وقد نظر الله الى ذلك الراعي الفاضل والمخلّص الحقيقي للأغنام الناطقة بتأييده تعالى فأرسل له آخر نظيره نادر العفة والوداعة ليكون مديرا للدير . واتفق في يوم من ايام الآحاد ان انتهره الشيخ الكبير قاصدا منفعة الآخرين وأمر بطرده من الكنيسة بلا سبب موجب . واذ علمت انه بريء مما نسب اليه دافعت عنه على حدة امام الرئيس العظيم . فأجاب الحكيم : انا اعرف هذا ايضا يا ابت ولكن كما انه لا يصح انتزاع قطعة الخبز من فم طفل جائع بل هو امر يدعو للشفقة والترثي كذلك فان المشرف على النفوس يظلم ذاته ومن معه اذا لم يوفر لهم في كل مناسبة اكاليل الصبر على الشتائم والاهانات وصنوف الاستهزاء والاحتقار ، بحسب تقديره لطاقة كل منهم في الاحتمال . لأنه يفوّت بذلك ثلاث فوائد جليلة ، الاولى: يفقد أجر الانتهار ، والثانية: يستطيع ان ينفع البعض من فضيلة غيرهم ولا يفعل ، والثالثة وهي الاهم : ان

(٦) وهي الآية: «انتظرت الرب بصبر فاصغى الي . .».
(٧) اكو ١٣ : ٥ .

الذين يظنون انهم صبورون على الضيقات كثيراً ما يفقدون ما عندهم من وداعة وصبر اذا أهملهم رئيسهم زماناً طويلاً بدون تقريع او توبيخ كونهم متأسين في الفضيلة. لأن نقصان ماء الهوان من شأنه ان يجعل ارضهم، وان كانت جيدة ومخصبة، تعشب وتنبت شوك الغرور وفساد الاخلاق والاستهتار. وهذا ما ادركه الرسول العظيم فبحث يقول لتيموثاوس: «وبّخْ وعظ في وقت موافق وغير موافق»[٨].

٢٨ ـ فاعترضت انا ذلك المرشد الحقيقي مذكرا اياه بضعف البشر وبأن كثيرين قد ينفصلون عن الرعية بسبب توبيخ باطل او ربما توبيخ محق. فعاد ذاك الراعي الكلي الحكمة وأجاب: إن نفساً ارتبطت بحبِّ راعيها والإيمان به من أجل المسيح لا تنفصل عنه ولو كلفها هذا بذل دمها، لا سيا اذا كان قد احسن اليها بمداواة جراحها لأنها تذكر القائل: «فانه لا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا أية خليقة اخرى يمكنها ان تفصلنا عن محبة المسيح»[٩]. أما إذا كانت النفس غير مرتبطة بالراعي ولا مقيدة به وملتصقة على هذه الصورة فاني لأعجب كثيراً ان كانت لا تعيش في ذلك الدير باطلا. لأنها انما تكون مرتبطة به بطاعة كاذبة. وفي الواقع لم يخب هذا العظيم في سعيه بل ارشد وقاد الى الكمال وقرّب للمسيح اغناما كثيرة لا عيب فيها.

٢٩ ـ لنسمع ونندهش لحكمة الله المستودعة في آنية ترابية. فاني قد عجبت هناك لايمان المبتدئين وثباتهم وصبرهم الجميل على فنون انتهارات الرئيس وتعييراته وطرده لهم احيانا، وليس على تعييرات الرئيس فحسب بل من هم دونه بكثير ايضا. فقد استوضحت مرة لأجل بنياني احد الاخوة اسمه اباكريس كان قد قضى في الدير خمس عشرة سنة مظلوما مضاما من الجميع تقريبا، وكان خدام المائدة يطردونه احيانا لأنه لا يقوى على ضبط لسانه عن شيء من الثرثرة، وقلت له: مالي اراك يا اخي اباكريس تُطرد كل يوم من المائدة وكثيرا ما تنام بلا عشاء؟ فأجابني: صدقني يا ابي ان آبائي يمتحنوني ليروا ان كنت اصلح للرهبنة، وهم لا يفعلون ذلك عن قساوة حقيقية. وبما اني علمت بقصد ابينا الكبير وقصد الأخوة هذا فاني اصبر على هذا الضيم بلا استثقال. وها انه لي خمس عشرة سنة لا ازال افكر، كما قالوا لي عند دخولي الدير، أنهم يختبرون الآتي اليه حتى تمام ثلاثين سنة. ولعمري فانهم يفعلون هذا بحق يا ابت يوحنا، لأن

(٨) انظر ٢ تي ٤: ٢.

(٩) انظر رو ٨: ٣٨.

الذهب لا يصير ذهبا صافيا خالصا ما لم يمتحن في الكور .

٣٠ ـ فلبث هذا الراهب الاصيل اباكريس سنتين في الدير بعد قدومي اليه ثم انتقل الى الرب و قد قال للآباء عندما فاضت روحه : اني اشكر الله واياكم شكرا جزيلا لأني بسبب امتحانكم لي لأجل خلاصي قد بقيت مدى سبعة عشر عاما غير مجرب من الشياطين. حينئذ حكم الراعي العادل بأن يوضع جسده باستحقاق في الموضع الخاص بالقديسين منزلا اياه منزلة المعترف.

٣١ ـ هذا ولا ريب اني سأظلم الاخوة الغيورين ان سكتُّ عن ذكر فضيلة مكدونيوس رئيس الشمامسة وجهاده . فقد حدث مرة انه التمس من الراعي بالحاح الذهاب الى الاسكندرية قبل عيد الظهور الالهي بيومين لقضاء حاجة ماسة له واعطى وعداً بأن يعود عاجلا للاستعداد للعيد . ولكن الشيطان مالت الخير عاقه فتأخر عن الموعد الذي حدده له الرئيس. ولما وصل الى الدير بتأخير يوم واحد أقاله الراعي من الشموسية وجعله مع المبتدئين . اما « شماس الصبر » هذا بل « رئيس شمامسة الثبات » فقبل قرار الأب الرئيس بهدوء تام كأن القصاص موجه الى غيره لا اليه. ولما قضى اربعين يوما في رتبة المبتدئين اعاد له الراعي الحكيم رتبته الاولى . ولكن لم يكد يمضي يوم واحد حتى طلب من الرئيس إبقاءه في وضع المبتدئين قائلا : اني اجترمت في المدينة ذنباً عظيماً لا يغتفر . فعلم البار ان هذا القول غير صادق وانما طلب مكدونيوس ذلك حبا بالتواضع والهوان ، فلبى رغبته . فكان عندئذ مشهد غريب : شيخ وقور كلل الشيب هامته يقضي ايامه كمبتدىء ويتضرع الى الكل بإخلاص ليصلّوا من اجله قائلا : اني سقطت في زنى عدم الطاعة . ولكن مكدونيوس العظيم هذا أسرَّ لي انا الحقير سبب التماسه الطوعي لهذا الوضع الذليل فأكد لي قائلاً: لم أشعر قط في حياتي بمثل هذه الراحة من كل حرب وبمثل حلاوة النور الالهي التي أحس بها الآن. واستطرد قائلاً: ان الملائكة لا يسقطون وربما يستحيل عليهم السقوط، كما يقول البعض. اما الناس فيستطيعون ان ينهضوا كلما سقطوا مهما تكرر ذلك. ولكن الشياطين وحدهم اذا سقطوا لا ينهضون من بعد.

٣٢ ـ وقد صادقني مدبر الدير فأسرَّ لي قائلا : عندما كنت شابا ومكلفا الاعتناء بدواب الدير سقطت مرة سقطة روحية كبيرة ، ولكني ، اذ اعتدت ألاّ أُخفي البتة حية

ما في وكر قلبي ، اشهرتها حالا للطبيب . فربت على خدي بوجه مبتسم وقال : « إذهب يا بنيّ وتابع عملك كالسابق ولا تخف إطلاقاً » . واذ قبلت ذلك منه بإيمان ملتهب احسست يقينا بشفائي بعد ايام قليلة واكملت طريقي بفرح وخوف معا .

٣٣ ـ وكما ان هناك فوارق كثيرة بين افراد الفئة الواحدة من كل فئات الخلائق ، على ما يقول البعض ، كذلك كانت هناك فوارق بين اخوة تلك الشركة سواء في النمو او في الطباع . ولذا لما لاح لذاك الطبيب ان البعض منهم يحبون التظاهر والتباهي عند قدوم اهل العالم لزيارة الدير عمد الى تعييرهم امام هؤلاء بأقسى التعبيرات والى إلزامهم بأحقر الاعمال ، حتى انهم صاروا ينصرفون عاجلا عند حضور الناس ، وحتى أصبح هذا الحضور عينه مدعاة لتغليبهم على انفسهم . فكنت ترى مشهدا عجيبا غريبا : الغرور يطارد ذاته ويهرب من الناس .

٣٤ ـ واذ لم يشأ الرب ان يرحمني صلاة اب قديس ، اخذ الله اليه قبل مغادرتي الدير بأسبوع واحد رجلا عجيبا يدعى ميناس كان الرجل الثاني في الشركة بعد الرئيس وقد عاش في الدير تسعا وخمسين سنة اضطلع فيه خلالها بمختلف الاعمال . وفي اليوم الثالث لرقاده ، بعد إتمامنا الصلوات التجنيزية عليه ، ملأت فجأة المكان كله رائحة زكية . فأمرنا الرئيس بكشف التابوت الذي كان قد وضع فيه ، وعند كشفه رأينا جميعا طيبا زكيا يفيض من قدميه الكريمتين كمن ينبوعين . فقال المعلم اذ ذاك للجميع : انظروا ، ان عرق قدميه واتعابه الكثيرة قد قُرِّب لله بمنزلة طيب وقُبل حقا . هذا وقد حدثنا الآباء عن الكثير من نوادر ذاك القديس ميناس ومن جملتها الحادث التالي : أراد الرئيس مرة ان يمتحن صبره فلما اتى ميناس اليه عند المساء وسجد له الى الارض طالبا تعليماته كالعادة تركه الرئيس هكذا منطرحا مدة طويلة الى ان حان ميعاد الصلاة وعندئذ فقط باركه . وبعد ان وبخه لأجل حبه للظهور وعدم صبره أنهضه . لقد علم الرئيس القديس ان ميناس سوف يحتمل كل ذلك بشجاعة وبالتالي صنع هذا لبنيان الآخرين . وقد أكد لنا احد تلامذة القديس ميناس صحة ذلك واضاف قائلا : لقد سألته عما اذا كان النوم قد تغلب عليه اثناء سجوده امام الرئيس فأكد لي انه تلا غيباً سفر المزامير بكامله اثناء انطراحه على الأرض .

٣٥ ـ ولن يفوتني أن أرصّع تاج هذه المقالة بالدرّة التالية ايضا . فقد أثرت مرة ،

مع بعض الشيوخ الأكثر شهامة بين الاخوة ، موضوع المفاضلة بين حياة الشركة وحياة التوحد ، فقالوا لي بوجه طلق وخلق باش : يا ابانا يوحنا بما اننا جسدانيون نحن نتبع سيرة جسدانية . لأننا رأينا ان نخوض الحرب على قدر ضعفنا ، وحسبنا ان الافضل ان نصارع الناس ، الذين يستشيط غيظهم حيناً ويندمون حيناً آخر ، من ان نصارع الشياطين الذين يتحفزون ويثورون علينا كل حين .

٣٦ ـ ومرة اخرى قال لي بلطف أحد الآباء الدائمي الذكر الذي كان قد احبني حباً جماً في الرب واثقاً دالة علي : [« ان كنت قد اقتبلت القوة التي فعلت في القائل من كل قلبه « أستطيع كل شيء بالمسيح الذي يقويني »(١٠) ، وان كان قد حل عليك الروح القدس مع ندى الطهارة كحلوله على البتول ، وان كانت قوة العلي قد ظللتك بالصبر ، فانهض ايها الحكيم عن عشاء التوحد ، وتمطق حقوقك بإزار الطاعة كما فعل المسيح الاله واغسل ارجل الاخوة بروح منسحق ، بل ألق بذاتك تحت اقدام الجماعة باتضاع واقم على ابواب قلبك حراسا صارمين لا ينامون ، اضبط فكرك الشارد بإضناء جسدك ، وأحكم هدوءا عقليا وسط اضطراب حواسك ، بل كن في وسط الانفعال غير منفعل ، اكبح لسانك عن جموحه وقفزه في الحجيج ، سبعة في سبعين مرة في اليوم اقمع هذا العاتي ، سمّر عقلك في نفسك كما على صليب ، مضروبا بالمطرقة كالسندان ، مهزوءا به ، مثلوبا ، مقرعا ، مظلوما ، دون ان يتكسر او يثلم قط ، بل مستمرا في كامل هدوئه وعدم انفعاله . اخلع مشيئتك الذاتية كمن يخلع ثوب خزي وانزل الى المعترك ، تسربل درع الايمان النادر الوجود ولا تنثلم او تنجرح بعدم الايمان برئيسك . اضبط بلجام العفة لمس غير المحتشم واكبح بذكر الموت جموح عينيك المشغوفتين دوما برونق الاجسام وجمالها . وأبكم عقلك المنشغل باهتماماته الخاصة ، والمتسرع في إدانة الاخوة ، وأظهر كامل حبك وودك لقريبك عمليا وفي كل مناسبة] فبهذا يا ابت العزيز يعلم الجميع اننا تلاميذ المسيح حقا ، ان كان لنا حب بعضنا لبعض ضمن شركة الاخوة » . ثم قال لي هذا الصديق الكريم : « هلمّ هلمّ واسكن معنا ، تعال واشرب الاستهزاء كل ساعة بمنزلة ماء حي ، فان داود لما تقصى كل الخيرات التي تحت السماء انتهى الى القول بانذهال : « هوذا ما احسن وما اجمل ان تسكن الاخوة معا »(١١) . فاذا

(١٠) في ٤ : ١٣ .

(١١) مز ١٣٢ : ١ .

كنا لم نؤهّل بعد لهذا الخير اعني لمثل هذا الصبر وتلك الطاعة فالأفضل لنا ان نعرف ضعفنا ونقف بعيدا عن ميدان الجهاد ونغبط المجاهدين وندعو لهم بالصبر .

فانغليت للحجيج الوجيهة التي اتاني بها على منوال انجيلي وتبوي ذلك الأب والمعلم الفاضل ، بل الصديق الكريم ، ووافقته كل الموافقة على تفضيل سيرة الطاعة المباركة على سيرة التوحد .

٣٧ ـ هذا وقد تذكرت فضيلة مفيدة اخرى من فضائل هؤلاء المغبوطين الشابعة كمن فردوس ، سأوردها قبل ان اعود الى اشواك الاقوالي وقحطها العادم النضارة والنفع . فقد لاحظ الراعي بعض الاخوة يتحادثون مرارا وقت الصلاة الجماعية فأمرهم بالوقوف على باب الكنيسة اسبوعا كاملا والسجود لكل من الداخلين والخارجين رغم انهم كانوا من الاكليريكيين بل من الكهنة .

٣٨ ـ ولاحظت مرة اثناء تلاوة المزامير ان احد الاخوة يقف مصلياً بإحساس قلبي يفوق احساس الكثيرين وانه يبدو على وجهه وكأنه يخاطب قوما قد أُلِفَ مخاطبتهم . فسألته مستفسراً أمره . ولما كان يعلم انه لا يجوز إخفاء ما هو للمنفعة قال : يا ابانا يوحنا اني قد اعتدت عند بدء التسبيح ان اجمع افكاري وعقلي ونفسي وادعوها صارخا بها : « هلموا نسجد ونركع للمسيح ملكنا والهنا » .

٣٩ ـ وراقبت مرة الأخ المكلف بغرفة الطعام فلاحظت انه يحمل على الدوام دفترا صغيرا معلقًا في زناره ، ثم علمت انه يكتب عليه كل يوم خلاصة افكاره ليكشفها للأب الرئيس . ثم رأيت ان كثيرين آخرين يصنعون كذلك ايضا ، وقيل لي ان هذا انما هو بأمر مرشدهم العظيم .

٤٠ ـ وحدث يوما ان طرد الرئيس احد الاخوة لأنه وشى برفيقه ناعتاً اياه بالثرثرة والهذر . فلبث الراهب المطرود على باب الدير اسبوعا كاملا متوسلا من اجل العودة والغفران . ولما علم به الرئيس المحب النفوس وتحقق انه لم يتناول شيئا من الطعام ستة ايام كاملة قال له : ان كنت ترغب كل الرغبة في ان تبقى في الدير فسأنزلك الى رتبة التائبين . ولما قبل الراهب التائب ذلك بفرح امر الراعي بارساله الى الدير الخاص بالمتنحين على زلاتهم . وهكذا كان . وما دمنا ذكرنا هذا الدير فلنتكلم عنه قليلا .

٤١ ـ كان ذلك سجناً بعيداً عن الدير مقدار غلوة واحدة[١٢] يخلو من كل تعزية . لم يكن يُرى هناك نار لطبخ الطعام قط ولا خمر ولا زيت ولا شيء آخر سوى الخبز والبقول الخفيفة . وكان الراعي يسجن فيه الذين يرتكبون الزلات بعد زهدهم في العالم . ولم يكونوا يسكنون معاً بل كلاً على حدة أو اثنين اثنين على الأكثر . وكانوا يبقون هناك إلى أن يعلن الرب تقويمهم للرئيس . وكان قد أقام عليهم رجلاً عظيماً اسمه اسحق كان يُلزمهم بصلاة تكاد تكون بلا انقطاع . وكان عندهم كمية كبيرة من الخوص لضفر السلال منعاً للضجر . تلك هي حال الذين «يلتمسون حقاً وجه اله يعقوب»[١٣] ، وتلك هي حياتهم وسيرتهم .

٤٢ ـ ولعمري إن الاعجاب بأتعاب القديسين حسن والاقتداء بهم يؤول إلى الخلاص . أما مماثلة سيرتهم دفعة واحدة فأمر متعذر وغير معقول .

٤٣ ـ إذا كان ضميرنا ينخسنا بسبب مخازينا فلنثابر على ذكر خطايانا بتوجع إلى أن يرى الرب صبرنا ، صبر من يغصبون ذواتهم من أجله ، فيمحوها وينقل حزن قلبنا إلى فرح ، لأنه قيل «ككثرة أكداري في قلبي فرّحت تعزياتك عن نفسي»[١٤] . وأيضاً : «ما أكثر وما أمرّ الأحزان التي أريتني لكنك عدت فأحييتني ومن أعماق الأرض أصعدتني»[١٥] .

٤٤ ـ مغبوط هو من يعيَّر ويزدرى به كل يوم فيضبط نفسه من أجل الرب ، فإنه سينضم إلى مصف الشهداء ويناجي الملائكة . مغبوط الراهب الذي يحتسب نفسه مستوجباً كل حين لكل مهانة وتحقير . مغبوط هو من يميت إرادته حتى النهاية ويسلم امره لمرشده في الرب ، فإنه سيقف عن ميامن المصلوب . إذا أبى أحد أن يقبل توبيخاً ، محقاً كان أو غير محق ، فقد رفض خلاص نفسه ، وإذا قبل التوبيخ بتعب ، أو حتى بغير تعب ، حظي سريعاً بغفران خطاياه .

٤٥ ـ أظهر لله بالروح إيمانك بأبيك وحبك الصادق له وهو عز وجل سيوحي إليه

---

(١٢) نحو ١٨٥ متراً .

(١٣) مز ٢٣ : ٦ .

(١٤) مز ٩٣ : ١٩ .

(١٥) مز ٧٠ : ٢٠ .

بطرق يعلم بها أن يعطف عليك حسب ميلك انت إليه .

٤٦✓ ـ من يشهر لمرشده كل أخفى من أفاعي افكاره يُظهر أن له ايماناً جلياً بـه . أما من يخفيها فهو لا يزال تائهاً في قفار لا طريق فيها ولا دليل .

٤٧✓ ـ يعرف المرء صدق حبه لأخيه ومودته له متى حزن لهفواته وفرح لتقدمه وما يناله من النعم .

٤٨✓ ـ من يبتغي إقامة قوله في الحديث[١٦] ولو كان قوله حقاً فليعلم أنه مريض بمرض الشيطان[١٧] . وإن كان يفعل ذلك مع أترابه فقد يشفيه يوماً انتهار من هم أكبر منه . أما إذا كانت هذه حاله مع من هم أكبر منه واوفر حكمة فلا شفاء لمرضه عند البشر .

٤٩ ـ من لا يكون مطيعاً في كلامه فمن البيّن أنه لن يكون مطيعاً في عمله . لأن غير الأمين في القليل غير أمين في الكثير وعديم الانصياع . إنه يتعب عبثاً ولن يجني من الطاعة المقدسة سوى دينونة لنفسه .

٥٠ ـ من كان ضميره نقياً كل النقاوة من جهة طاعته لأبيه فذاك ينتظر الموت كل يوم كأنه نوم بل كأنه حياة ولا يرتاع منه لعلمه اليقين بأنه عند انتقاله لن يحاسَب هو بل يحاسَب رئيسه عنه .

٥١ ـ من تسلم طوعاً عملاً ما من أبيه في الرب فتعرض فيه لسقطة غير متوقعة فلا ينسبها إلى من سلّم السلاح بل إلى من استلمه ، لأنه استلمه لمحاربة العدو ولكنه عطفه إلى قلبه . أما إذا كان قد ألزم نفسه بقبول ذلك العمل من أجل الرب بعد أن بيّن ضعفه لمن أمره به فليتشجع فإنه لم يمت وإن كان قد سقط .

٥٢ ـ لقد فاتني أيها الأصدقاء أن أضع أمامكم كخبز لذيذ الطعم الفضيلة الآتية ، فإني رأيت في ذلك الدير رهباناً يعرّضون ذواتهم طوعاً للتعيير والهوان من أجل

---

(١٦) أي ترجيح قوله على قول الآخرين .
(١٧) أي بالتكبر .

الله لكي يعيشوا بهذا أنفسهم ولا يعودوا يخشون الهوان العارض لهم من الآخرين .

٥٣ ـ إذا عزم المرء على الاعتراف بخطاياه على الدوام فإن هذا العزم يكون له بمثابة لجام يردعه عن ارتكاب الخطيئة ، لأن ما لا نعترف به نفعله دون خوف كما في الظلام .

٥٤ ـ متى غاب رئيسنا فتصورنا وجهه أمامنا وحسبنا أنه واقف معنا ، وتراجعنا عن كل لقاء أو كلام أو طعام أو نوم أو غيره مما يكرهه فينا ، فلنعلم أن طاعتنا هي طاعة حقيقية لا غش فيها . إن أولاد الحرام يفرحون بغياب معلمهم ، أما اولاد الحلال فيعدّونه خسارة .

٥٥ ـ سألت مرة أحد الرهبان الأكثر خبرة كيف تأتي بنا الطاعة إلى التواضع فقال : إن المطيع الفطن ، وإن أقام الموق وحاز موهبة الدموع والعتق من القتال ، يعتقد كل الاعتقاد أن صلاة أبيه هي التي فعلت ذلك ، فيبقى بالتالي غريباً عن الغرور إذ كيف يقدر أن يتكبر وهو نفسه يقول أن ما حظي به إنما كان له بمعونة ابيه وليس بجهده ؟

٥٦ ـ أما المتوحد فليس كذلك لأن أتعابه النسكية توحي له أنه قد أحكم ما أحكم باجتهاده الذاتي فتبعث فيه الغرور .

٥٧ ـ من يعيش بالطاعة يتخطى فخين اثنين ويستمر خادماً مطيعاً للمسيح إلى الأبد .

٥٨ ـ فإن الشيطان يقاتل[١٨] العائشين في الطاعة بتدنيسهم وتقسية قلوبهم احياناً ، واحياناً اخرى بإلقائهم في اضطراب غير اعتيادي ، أو يجعلهم جافين وعقيمين ، شرهين وكسالى في الصلاة ، غافلين ومظلمين ، وذلك ليكفهم عن جهادهم موهماً إياهم بأنهم لم ينتفعوا من الطاعة شيئاً بل عادوا إلى الوراء . لأنه لا يدعهم يفطنون إلى أن فراغنا من الصالحات كثيراً ما يؤول بنا بتدبير الهي إلى تواضع اعمق .

---

(١٨) إنه الفخ الأول.

٥٩ ـ ولكن كثيراً ما يهزم البعض هذا الماكر الخداع بالصبر، إلا أنه ما أن يصمت حتى يقف بنا شيطان آخر محاولاً أن يخدعنا بصورة أخرى[١٩] . فقد رأيت رهباناً مطيعين قد أصبحوا بحماية أبيهم الروحي سريعي التوجع على خطاياهم ، عطوفين ، ضابطين أنفسهم عن الأهواء، نشيطين، غير محازبين حازين بالروح. ولكن الشياطين وقفوا بهم وأوحوا إليهم أنهم أصبحوا قادرين على حياة التوحد وأنهم سيدركون فيها الجمالة الأخيرة ألا وهي التحرر من الأهواء. فانخدعوا وغادروا الميناء إلى اللجة حيث دهمتهم العاصفة. وإذ لم يكن لهم مدبر تورطوا تورطاً يرثى له في خطر هذا البحر الوسخ المر.

٦٠ ـ لا بد أن يتعكر هذا البحر ويضطرب ويهتاج حتى يردّ إلى اليابسة ما جرفته إليه أنهر الأهواء من اخشاب واعشاب وكل عفن. فإننا إذا انتبهنا نجد أن سكوناً عميقاً يخيّم على البحر بعد كل عاصفة تهبّ عليه.

٦١ ـ من يطيع اباه احياناً ويعصاه احياناً اخرى يشبه رجلاً يقطر في عينيه دواء احياناً ، واحياناً احد الحوامض . وقد قيل : «واحد بنى وآخر هدم فماذا انتفعنا سوى التعب ؟»[٢٠] .

٦٢ ـ أيها الابن والعبد المطيع للرب لا تنخدع بروح الغرور فتكشف ذنوبك لمرشدك كأنها ذنوب شخص آخر . فإنك لا تستطيع الهرب من العار إلا بالعار . ومن عادة الشيطان في كثير من الأحيان أن يقنعنا بألا نعترف البتة أو بأن نعترف وكأننا نقر بخطايا غيرنا ، أو أن نلقي اللوم في خطيئتنا على الآخرين . أكشف جرحك للطبيب مجرداً عارياً . قل ولا تخجل : يا ابت هذا الجرح جرحي ، هذه الضربة ضربتي ، قد حدثت من توانيّ فقط . أنا احدثتها بإهمالي وحسب ولا يلام بسببها انسان ولا روح ولا جسد ولا شيء آخر سوى تهاوني . . .

٦٣ ـ حين اعترافك بخطاياك انسحق بخلقك ومظهرك وفكرك كأنك مجرم تحاكم . أطرق برأسك إلى الأرض وبلّ بدموعك إن أمكنك قدمي قاضيك وطبيبك كأنه المسيح .

---

(١٩) وهو الفخ الثاني .

(٢٠) ابن سيراخ ٣٤ : ٢٣ .

٦٤ ـ إن كان كل شيء يخضع للعادة ويتبعها فبالاحرى كثيراً ممارسة الأعمال الصالحة لأن الله منجد عظيم لها .

٦٥ ـ يا بُنيّ إن أنت سلمت ذاتك في بدء طريقك ، ومن كل نفسك ، إلى مكاره الهوان فلن تتعب سنين كثيرة حتى تجد السلام .

٦٦ ـ لا تستصغر أن تعترف بخطاياك باستحاق كأنك تعترف بها لله معينك ، فإني رأيت مجرمين قد ليّنوا صرامة القاضي وحوّلوا غضبه إلى رأفة بفضل خلقهم المنسحق واعترافهم الصادق الحار وضراعتهم . ولذلك كان يوحنا السابق أيضاً يسأل القادمين إليه أن يعترفوا قبل اعتمادهم ، ليس لأنه كان محتاجاً إلى اعترافهم بل تحقيقاً لخلاصهم .

٦٧ ـ لا تعجبنّ لاستمرار القتال علينا بعد اعترافنا بخطايانا فإن مصارعة الأفكار أفضل من مصارعة الغرور .

٦٨ ـ لا تثيرنّك اخبار الآباء المتوحدين وتحرّكنك إلى اقتفاء آثارهم فانك منتظم في جيش الشهيد الأول[٢١] . وإذا سقطت فلا تنصرف من الميدان لأننا حينذاك نحتاج إلى طبيب أكثر من أي وقت آخر . فإن من صدم بحجر رجله مع الإعانة كان عتيداً بدون إعانة لا لأن يعثر فقط بل لأن يموت .

٦٩ ـ عندما نكون مطروحين أرضاً تسارع الشياطين إلى الوقوف بنا ، مغتنمة فرصة سقطتنا كحجة معقولة ، وبالحري غير معقولة ، لتحضنا على إيثار حياة التوحد على حياة الطاعة . وغاية اعدائنا من ذلك أن يزيدونا جروحاً بعد سقوطنا .

٧٠ ـ إذا تذرع الطبيب بعجزه عن مداواتك فلا بد من الذهاب إلى طبيب آخر إذ يندر شفاء احد بدون طبيب . ومن ذا الذي يخالفنا في أن السفينة التي تغرق بادارة ربان محنك سوف تُفقد كلياً بلا ربان ؟

٧١ ـ يتأتى التواضع من الطاعة ، واللاهوى من التواضع ، ولأن الرب في مذلتنا ذكرنا وخلصنا من اعدائنا»[٢٢] فليس إذاً ما يمنع القول بأن اللاهوى يتأتى من الطاعة ،

---

(٢١) المسيح .

(٢٢) مز ١٣٥ : ٢٣ ـ ٢٤ .

أما التواضع فيعود ويكتمل باللاهوى. لأنه وإن كان قد ولد اللاهوى ، كما اعطى موسى الشريعة ، غير أن الابنة تكمِّل الأم بدورها كما كمّلت مريم مجمع اليهود.

٧٢ ـ إن النفوس المريضة التي تتداوى لـدى طبيب وتنتفع منـه ثم تتركـه قبل أن تشفى تماماً، مفضّلة عليـه طبيباً آخـر، تستحق كل قصـاص من الله. لا تفلت من بدي الذي حملك إلى الرب فإنك لن تُجِلّ في حياتك أحداً نظير إجلالك له.

٧٣ ـ إن الجندي العادم الخبرة الذي ينفصل عن جماعة الجند وينفـرد في القتال لا يسلم من الخطر . وكذلك الراهب الذي ينفصل عن جماعة الاخوة ويتوحد قبل أن يختبر نفسه مدة طويلة متبيناً اهوائها ومتدرباً على محاربتها يعرّض نفسه للخطر ، فالأول يغامر بجسده أما الثاني فبنفسه ، وقـد قال الكتـاب : «اثنان خير من واحد»[٢٣] أي خير أن يشارك الأب ابنه في مجاهدة اهوائه بقـوة الـروح الالهي . من يعـدم الاعمى مـرشـده والقطيع راعيه والضال هاديه والطفل أباه والمريض طبيبه والسفينة ربانها يعرّضهم جميعاً للخطر . وكذلك فإن الأرواح الشريرة تميت من يصارعها خلواً من عضد .

٧٤ ـ عـلى الداخلين إلى المستشفى بيـان أوجاعهم ، وعـلى القادمين إلى الطاعة إظهـار اتضاعهم . لأن سكـون أوجاع الاولـين وازدياد سلامـة الآخرين لأنفسهمْ هما العلامة الثابتة الوحيدة لشفائهم .

٧٥ ـ حسبك أن يكون ضميرك مرآة لطاعتك .

٧٦ ـ إن العائشين في التوحد خاضعين لأب روحي تعاندهم الشياطين فقط . أما العائشون في جماعة الاخـوة فيتصارعـون مع الشيـاطين والبشـر . الاولون هم تحت نظر معلمهم عـلى الدوام ولـذا يحفظون اوامـره بدقـة ، أما الآخرون فبسبب عـدم حضـور معلمهم بقربهم حضوراً متواصلا كثيرا ما لا يتقيـدون بوصـاياه . غير أن الغيورين منهم والمجتهدين يعوّضـون عن هذا التقصير بصبرهم عـلى الصدمات والمضايقـات فيجنون اكاليل مضاعفة .

٧٧ ـ لنحترس لأنفسنا كل الاحتراس لأن السفن تحطم بعضها بعضاً بسهولة في

(٢٣) جامعة ٤ : ٩ .

الميناء إذا كان مزدحماً لا سيما المنخورة منها بالغيظ كما بدودة خفية .

٧٨ ـ لتُحكم غاية الإحكام الصمت والجهل في حضرة رئيسنا . فإن الرجل الصامت هو ابن للحكمة يزداد معرفة على الدوام .

٧٩ ـ رأيت راهباً بارعاً في التقاط الحديث من فم رئيسه . ولما رأيته منقاداً للتباهي بذلك وليس للاتضاع يئست من طاعته .

٨٠ ـ لنتيقظ كل التيقظ وننتبه ونرصد كي نعرف متى وكيف يجب تفضيل الخدمة على الصلاة، لأنه لا ينبغي تفضيلها كل حين ولا على الإطلاق.

٨١ ـ انتبه لنفسك حين وجودك مع الاخوة ولا تبادر قط في أي ظرف كان أن تظهر أوفر براً منهم ، فإنك تعمل بهذا شرّين : تفرّعهم بغيرتك الكاذبة وتُوجد لنفسك سبياً للاستعلاء .

٨٢ ـ كن غيوراً في داخلك ولا تظهر غيرتك البتة لا بحركاتك ولا بهيئتك ولا بكلامك ولا بتلميحك . هذا اللهم إذا كنت قد كففت عن ازدراء قريبك . أما إذا كنت لا تزال تجنح إلى ازدرائه فصرْ بالحري شبيهاً باخوتك لا مختلفاً منهم بغرورك .

٨٣ ـ رأيت تلميذاً بطالا يتباهى لدى بعض الناس بما أحكمه معلمه من الفضائل ظاناً أنه يدّخر لنفسه مجداً من قمح ليس له ولكنه سبّب لنفسه بالأحرى هواناً لما قالوا جميعهم : «كيف أفرعت شجرة جيدة غصناً بلا ثمر ؟» .

٨٤ ـ لا نحكمنّ بأننا صبورون إذا احتملنا استهزاء ابينا بشجاعة بل إذا احتملنا الاستهزاء من أي انسان نستهين به ، لأننا إنما نخشى أبانا فنحتمله عن اضطرار .

٨٥ ـ اشرب الاستهزاء برغبة بمثابة ماء حي من كل انسان يتوخى أن يسقيك دواء منقياً لفسقك ، فتشرق في نفسك حينذاك طهارة عميقة ولن يغيب نور الله عن قلبك .

٨٦ ـ لا يفتخرن أحد في قلبه إذا رأى أنه قد أراح جماعة الاخوة فإن السراق يحيطون به ، بل لنتذكر دائماً القائل : «إذا عملتم ما أُمرتم به فقولوا إننا عبيد بطالون ، إنما صنعنا ما توجب علينا»[٢٤] . ولسوف نعرف قيمة اتعابنا عند وفاتنا .

---

(٢٤) لو ١٧ : ١٠ .

٨٧ ـ الذين سماه لرضية فلنحثّ إذاً قلوبنا على أن تكون فيه كملائكة يخدمون الرب . إن قلوب القاطنين في هذه السماء تكون احياناً قاسية كالحجر ، ولكنهم احياناً اخرى ينعمون بالتعزية من خلال نخس التوبة ، وذلك لكي ينجوا من الغرور ، فتخفف الدموع وطأة اتعابهم .

٨٨ ـ نار قليلة تلينّ شمعاً كثيراً ، وهوانٌ يسير كثيراً ما يلينّ ويسكّن فجأة كل نزق قلبنا وغفلته وقساوته ويزيلها .

٨٩ ـ شاهدت مرة اثنين جالسين يرصدان خفية اتعاب المجاهدين ويستمعان إلى تأوهاتهم . أما الواحد فبغية التشبه بهم وأما الآخر فلكي يشهر يوماً ما سمع وذلك ازدراءً بعمال الله وليقطعهم عن عملهم الصالح .

٩٠ ـ لا تكن صامتاً أبكم إذا كان هذا يسبب قلقاً ومرارة للآخرين ، ولا تكن كسولاً متباطئاً في خطواتك إذا أمرت أن تسرع ، وإلا فقد صرت شراً من الهائجين الفائرين . وكثيراً ما رأت عيني كما يقول ايوب[٢٥] نفوساً تنزعج من المتمهلين المتباطئين، ولكني رأيت غيرها تنزعج من النشيطين العجولين . فعجبت لتنوع الشر .

٩١ ـ لا يستطيع الراهب في وسط الجماعة الاستفادة من ترتيل المزامير بقدر استفادته من الصلاة الداخلية ، لأن اختلاط الأصوات يشوّش المزمور ويشتت الانتباه إليه .

٩٢ ـ صارع فكرك بلا انقطاع وكلما شرد طائشاً عد وارجعه . لأن الله لا يطلب من العائشين في الطاعة صلاة خالية من شرود الذهن . فلا تقلق إذاً إن اختُلس انتباهك ، بل تشجع واسترجع دائماً ذهنك إليك ، فإن الملاك وحده لا يُسلب انتباهه .

٩٣ ـ من عقد النية في سريرة نفسه على ألا ينصرف من ميدان المصارعة حتى النفس الأخير ، ولو تحمل الوف الميتات في جسده ونفسه ، لن يعثر بسهولة بأي من هذه الشوائب وأمثالها لأن ارتياب القلب وعدم امانته للمكان يؤولان به دائماً إلى التعثر والسقوط . فالجانحون إلى الانتقال من مواضعهم بأيسر مرام يفشلون كلياً . إذ لا شيء كعدم الصبر ينشىء عدم الإثمار.

---

(٢٥) ايوب ١٣ : ١ .

٩٤ - إن اتيت إلى طبيب ومستشفى لا تعرف شيئاً عنهما فكن بمثابة مجتاز بذاك المكان ، واختبر سراً جميع الذين هناك . فإن شعرت بفائدة في مداواة أمراضك لدى الاطباء والمساعدين ، ولا سيما في ما تتوخاه من علاج لانتفاخ النفس فأقدم حينذاك وبع ذاتك لهم بذهب التواضع وصك الطاعة ، بأحرف الخدمة وشهادة الملائكة . ومزق في هذه الصفقة صك مشيئتك الذاتية تمزيقاً . لأنك إن تمسكت بها فلسوف تتسبب في إبطال فداء المسيح لك . وليصر لك ذاك المكان قبراً قبل القبر ، فإنه لا يخرج أحد من القبر قبل القيامة . وإن كان قد خرج البعض من ديرهم فانظر : أنهم قد ماتوا . فنتوسل إلى الرب ألا يصيبنا مثل هذا .

٩٥ - إذا وجد الكسالى أن الاوامر في الدير ثقيلة عمدوا إلى تفضيل الصلاة على الطاعة . وإذا وجدوها خفيفة هربوا من الصلاة هربهم من النار .

٩٦ - يوجد من إذا كان يباشر عملاً وطلب إليه أحد الاخوة أن يقوم به عوضاً عنه يسمح به من أجل إراحة الأخ . ويوجد من يسمح به بدافع الكسل ، أو لا يسمح به بدافع المجد الباطل ، كما يوجد من لا يسمح به لغيرته ونشاطه .

٩٧ - إن كنت قد التزمت فارتبطت بالمكان ثم لاحظت إن عين نفسك لا تزداد فيه استنارة فلا تطلب أن تحل التزامك . فالصالح صالح في كل مكان والعكس بالعكس . إن التغيير يؤول في العالم إلى الاثراق . أما في جموع الرهبان فإن الشراهة تولد السقوط ومن ثم الارتحال ، فإن تسلطت على سيدك[٢٦] فأينما أقمت تبلغ إلى التحرر من الأهواء . أما إذا تسلط هو عليك فما دمت خارج القبر فسوف تكون في خطر حيثما حللت .

٩٨ - الرب الذي يعطي الحكمة للعميان[٢٧] ينبه ألحاظ المطيعين إلى فضائل مرشدهم ويغمضها عن نقائصه . أما ماقت الخير فيفعل عكس ذلك .

٩٩ - ليكن لنا «الزيبق» يا اخوة رسماً للطاعة الفضلى ، فإنه من ساعته يرسو في العمق تحت كل شيء ولا يختلط بأي وسخ .

---

(٢٦) بطنك .

(٢٧) مز ١٤٥ : ٨ .

١٠٠ - ليتنبه المجتهدون ألى عدم ادانة المتوانين لئلا يقعوا تحت دينونة أعظم . ويلوح لي أن لوط قد تبرر لأنه وهو يقيم بين المتوانين لا يبدو قط أنه قد أدانهم يوماً .

١٠١ - لنبق على الدوام هادئين غير قلقين ، خاصة في الكنيسة وقت التسابيح . فإن غرض الشيطان من إقلاقنا هو ملاشاة صلاتنا .

١٠٢ - إن خادم الله هو الذي اثناء الصلاة يقرع بعقله السماوات فيما جسده بين الناس .

١٠٣ - إن الشتائم والإهانات وأمثالها هي عند المطيع كمرارة الافسنتين ، في حين أن المدائح والاكرام والتأييد عند محبي اللذة هي كالعسل تولد كل حلاوة . ولكن فلننظر إلى طبيعة كل من الافسنتين والعسل : فالاول يطهر من كل عكر داخلي بينما الثاني يزيد في إفراز مادة الصفراء المرة .

١٠٤ - لنأتمن المتقلدين امرنا في الرب باطمئنان ولو امرونا بما يبدو منافياً لخلاصنا . لأنه حينذاك وحينذاك فقط يختبر إيماننا بهم كما في أتون من الاتضاع . لأن علامة الإيمان الأكثر صدقاً هي أن نطيع أولياءنا دون تردد حين يأمروننا بعكس ما نرجو أو نتوقع .

١٠٥ - يتولد التواضع من الطاعة كما سبق القول ، ومن التواضع التمييز كما يعلّم كسيانوس العظيم بحكمة فائقة السمو في مقاله عن التمييز . ومن التمييز تتولد الفطنة . ومن الفطنة التبصر في الأمور وإدراكها قبل وقوعها . فمن ذا الذي لا يعدو في طريق الطاعة هذه وهو يرى هذه الخيرات المعدة له ؟ ولقد قال فيها ذلك المرنم الجليل : «لقد هيأت بصلاحك للفقير المطيع يا الله حضورك في قلبه»[٢٨] .

١٠٦ - لا تنس مدى حياتك ذاك المجاهد العظيم الذي لم يسمع من رئيسه ، بأذنيه الخارجيتين طيلة ثماني عشرة سنة ، كلمة «علّك تخلص» . أما بأذنيه الداخليتين فكان يسمع من الرب ليس كلمة «علّك تخلص» التي هي مجرد تمنٍّ غامض ، بل «أنت خالص» ، التي هي تأكيد واضح .

١٠٧ - إن بعض العائشين في الطاعة يستغلون تساهل رئيسهم ولطفه ليستأذنوه في

(٢٨) انظر مز ٦٧ : ١٠ .

اتّباع ما يوافق رغائبهم . ولكن فليعلم هؤلاء انهم بحصولهم على ما يريدون يحرمون انفسهم كلياً من إكليل الجهاد . لأن الطاعة غريبة عن المداهنة والرغبات الخاصة .

١٠٨ ـ هناك من يتلقى أمراً ثم يدرك أن من أصدره لا يرضى ولا يرغب في تحقيقه ، فيمتنع عن تنفيذه . وهناك من يفطن لذلك ولكنه يطيع فينفّذ الامر على علاته . تُرى من منهما أحسن التصرف أكثر ؟

١٠٩ ـ لا يمكن أن يوحيَ الينا الشيطان بما ينافي إرادته . وليقنعك بهذا الذين يقضون حياة سهلة مسترخية وهم يقيمون سواء في منسك أو في دير ولا يجربهم الشيطان بالانصراف . بل فلتكن تجربة الانصراف من مكاننا إذا حاربنا الشيطان بها برهاناً على حسن إرضائنا لله فيه ، ما دامت تلك التجربة علامة على أننا في نضال وحرب .

١١٠ ـ لن أكون بخيلاً ظالماً باحتفاظي لنفسي بما لا يجوز السكوت عن الإخبار به . فقد حدثني يوحنا السابـاوي الذائع الصيت عن أعمال جديرة بالسماع ، وأنت تعرف بالخبرة أيها البار أن ذاك رجل متحرر من الأهواء ، متطهر من كل كذب ومن كل عمل أو كلام شرير ، فقال : وإن أحد الشيوخ في ديري في آسيا الصغرى (إذ كان قد قدم من هناك) كان متوانياً وفظاً جداً . وأقول هذا لأكون صادقاً ولست أدينه . هذا الشيخ لا اعلم كيف اقتنى تلميذاً عجيباً اسمه أكاكيوس، كان بسيط الخلق، فطناً، وَقد صبر على مصاعب جمة لا تصدّق أنزلها به شيخه، الذي لم يكن يعذبه كل يوم بالشتائم والإهانات وحسب بل بالضرب أيضاً. ولم يكن صبره هذا عن حماقة. وكنت أراه كل يوم شقياً بمنزلة عبد حقير فأقول له حين أصادفه: ما هذا يا أخي أكاكي؟ كيف حالك اليوم؟ فكان يريني للوقت عينه مسودّة متورمة أو رقبته متهشمة أو رأسه مفدوغاً. ولعلمي أنه مجاهد كنت أقول له: حسناً حسناً، إصبر تنتفع. هذا أقام مدة تسع سنوات مع ذلك الشيخ الظالم ومضى إلى الرب. وبعد دفنه في مدفن الآباء بخمسة أيام ذهب معلمه إلى أحد الشيوخ الكبار وقال له: يا أبانا لقد مات الأخ اكاكيوس. فما أن سمع هذا حتى أجاب: في الحقيقة أيها الشيخ لا أصدّق! فقال: تعال وانظر، فنهض مسرعاً حتى وصل إلى المدفن بصحبة معلم ذاك المجاهد المغبوط، وصاح كأنه يخاطب شخصاً حياً راقداً: يا أخانا أكاكي هل متّ؟ فأوضح المطيع طاعته حتى بعد الممات وأجاب: يا ابت كيف يمكن أن يموت انسان قد حفظ الطاعة؟ حينئذ إرتاع معلمه المزعوم وسقط على

وجهه يذرف الدموع. وعلى أثر ذلك طلب إلى رئيس الدير قلاية كانت ملاصقة لذلك القبر وعاش هناك بقية عمره بتعقل قائلاً للآباء: «إنني قد ارتكبت جريمة القتل». ويبدو لي يا ابت أن يوحنا العظيم هذا هو الذي كلّم الميت. لأن ذاك المغبوط روى لي قصة أخرى عن شخص كأنها عن غيره، في حين أنها كانت عنه، كما استطعت أن اتأكد من ذلك فيما بعد.

١١١ ـ روى فقال: «وكان في ذلك الدير نفسه في آسيا راهب آخر متلمذ لشيخ وديع لطيف هادئ». وإذ لاحظ أن الشيخ يكرمه ويراعيه رأى صواباً أن هذا التصرف غير آمن للجميع، فتضرع إليه أن يطلقه فتم ذلك بسهولة إذ كان للشيخ تلميذ آخر. وهكذا ذهب مزوداً برسالة من معلمه ودخل ديراً في البنطس. وفي اثناء ليلته الاولى في الدير أبصر في الحلم رجالاً أتوا يطالبونه بدين عليه تبيّن بعد حساب دقيق ومرعب أنه يبلغ مئة ليرة ذهبية. وعندما أفاق من نومه أدرك معنى الحلم وقال مخاطباً نفسه: أيها المسكين انطيوخوس (إذ كان هذا اسمه) نعم إن علينا ديوناً باهظة يجب إيفاؤها. ثم تابع حديثه قائلاً: وبعد أن بقيت لهذه الغاية ثلاث سنوات في ذلك الدير أطيع طاعة كلية غير مشروطة وقد سمح الله أن يعدّني الاخوة غريباً عن الشركة (إذ لم يكن هناك راهب آخر غريباً غيري) وأن يحتقروني ويضايقوني رأيت في الحلم من جديد رجلاً جاءني وأعطاني وصلاً بعشر ليرات ذهبية من أصل ديني. فلما افقت من نومي ادركت ما رأيت وقلت: أواه لم أف بعد إلا عشر ليرات فقط؟ فمتى يا ترى استطيع إيفاء الباقي أيضاً؟ عندئذ قلت لنفسي: أيها المسكين انطيوخوس لا بد لك من مزيد من الأتعاب والإهانات. فبدأت منذ ذلك الحين اتصرف كأنني مختل العقل، ولم أكن مع ذلك اهمل تأدية أية خدمة للاخوة اجمعين. ولما رآني الآباء العادمو الشفقة في هذا الاستعداد وهذه الغيرة صاروا يكلفونني بكل اعمال الدير الثقيلة. وبقيت على هذه الصورة مدة ثلاث عشرة سنة رأيت في نهايتها في الحلم الرجال انفسهم الذين ظهروا لي في المرة الأولى، فأعطوني وصلاً بايفاء كامل ديني. وعما لا شك فيه أني كلما كان رهبان الدير يضايقونني بشيء كنت أذكر ديني واحتملهم بشجاعة». لقد روى لي ذلك يوحنا الكلي الحكمة يا ابت كأنه عن شخص آخر سمّاه انطيوخوس ولكنه بالحقيقة هو الذي مزّق صك دينه بالصبر بتلك الشجاعة الكبيرة..

١١٢ ـ ولنسمع أي تمييز صار إليه هذا البار بفضل طاعته القصوى. فإنه لما أقام

في دير القديس سابا قصده يوماً ثلاثة من الشبان يبتغون التتلمذ له . فاستقبلهم بسرور وأضافهم بلطف ليريحهم من تعب السفر . وعند انتهاء اليوم الثالث قال لهم : «في الحقيقة يا اخوتي أنا أميل بطبعي إلى الزنى ولا أقدر أن أقبل واحداً منكم» . فلم يرتابوا إذ كانوا قد سمعوا بسيرته . ولما لم يقدروا أن يقنعوه رغم تضرعهم إليه كثيراً ارتموا على قدميه وتوسلوا إليه أن يرسم لهم على الأقل كيف وأين ينبغي لهم أن يعيشوا . فأجاب الشيخ سؤالهم إذ عرف أنهم سيتقبلون قوله بتواضع وانصياع فقال لأحدهم : «إن ربنا يشاء منك يا ابني أن تقيم في مكان عزلة مع أب روحي تكون في طاعته» . وقال للثاني : «اذهب وبع ارادتك لله واحمل صليبك مقيماً بثبات في دير للأخوة فتملك كنزاً في السماء لا محالة» . وقال للثالث : «اذكر مع كل نَفَس من انفاسك قول القائل : من يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ، واذهب ولا تسمح إن أمكن أن يكون بين البشر مروّض أكثر تقريعاً وأوفر صرامة من مروضك في الرب ، واثبت عنده واشرب استهزاءه وتهكمه كل يوم كمن يشرب لبناً وعسلاً» . فأجاب الأخ : يا ابتاه إن كان مروضي هذا يعيش في التواني فماذا اعمل ؟ فقال الشيخ : ولو شاهدته يزني فلا تنزح من عنده بل قل لذاتك : يا صاحب لماذا جئت إلى هنا ؟ وحينئذ تبصر الصلف يتلاشى فيك والشهوة تضمحل .

١١٣ ـ لنناضل بكل قوتنا نحن الذين اخترنا خوف الرب لئلا نحصّل في مدرسة الفضيلة خبثاً ورذيلة وحباً للايذاء وخداعاً ودهاء وغيظاً . وقد يحدث ذلك ولا عجب ، فإن المرء ما دام مواطناً عادياً أو بحاراً أو فلاحاً لا يمعن اعداء الملك في محاربته . أما إذا رأوه قد اتخذ راية الملك وتناول الترس والرمح والسيف والقوس وارتدى زي الجندي فحينئذ يصرون عليه بأسنانهم ويبذلون كل وسعهم في إهلاكه . لذلك لا نغفون يا اخوة .

١١٤ ـ رأيت اطفالاً انقياء صالحين جاؤوا المدرسة طلباً للحكمة والأدب والمنفعة ، ولكنهم بمعاشرتهم للصبيان الآخرين ، لم ينشأوا فيها إلا على حب الإيذاء والرذيلة . من له عقل فسوف يفقه ذلك .

١١٥ ـ يستحيل على من يتعلمون صناعة ما برغبة كلية ألا يتقدموا فيها يوماً . إلا أن البعض يدركون تقدمهم والبعض الآخر ، بتدبير الهي ، يجهلونه . لا شك أن

الصراف الحريص يحسب ربحه وخسارته كل مساء ، لكنه لن يعرفها بالضبط ما لم يقيّد حسابه على دفتر ساعة فساعة . لأن حساب كل ساعة يُظهر جملة حساب اليوم .

١١٦ ـ إذا عُيِّر الجاهل أو انتُهِر يلذع ويمتعض فيحاول أن يجيب ويناقض أو تراه يسجد بسرعة لمن أنّبه ولكن لا تواضعاً منه بل ليكف عن نفسه مكاره التعيير . أما أنت فإذا خُزِيء بك فاسكت وتقبل هذه النار المحرقة بل المطهرة والمنيرة لنفسك . ومتى سكن حنق الطبيب فحينئذ تب إليه واستغفر فلعله لا يقبل اعتذارك في غضبه .

١١٧ ـ في نضالنا ضد الأهواء فلنقاتلن نحن العائشين في الأديار اثنين منها بصورة خاصة في كل حين أعني الشراهة والحدّة ، لأنهما إنما تجدان مادتهما في حياة الشركة .

١١٨ ـ يثير الشيطان في العائشين في الطاعة شهوة إلى فضائل متعذرة عليهم . وكذلك يشير على المتوحدين بممارسة فضائل غير مناسبة لهم . فإذا فتحت ذهن المبتدئين العادمي الخبرة تجد فيه اهتماماً مخدوعاً : شهوة لتوحد ، لصوم أقصى ، لصلاة بلا طياشة ، لنجاة كلية من المجد الباطل ، لذكر مستمر للموت ، لخشوع دائم ، لعدم غضب كامل ، لصمت عميق ، لطهارة فائقة . ولما كانوا ، بتدبير الهي ، لا يبلغون إلى هذه الفضائل في بداية ترهبهم فإنهم يسعون وراءها بانطلاقهم على غير هدى إلى حياة أخرى وهم مخدوعون . لأن العدو إنما يجعلهم يطلبون هذه المحامد قبل أوانها لئلا يصبروا فيمتلكوها في حينها . أما المتوحدون فالمحتال الماكر يطوّب لديهم فضائل العائشين في الطاعة ، كضيافة الغرباء والخدمة والمحبة الأخوية ، والعيشة المشتركة ، وافتقاد المرضى ، وذلك لكي يجعلهم فاقدي الصبر في وحدتهم كأولئك في حياتهم المشتركة .

١١٩ ـ إن سيرة التوحد هي لعمري لأفراد قليلين : لأولئك فقط الذين حظوا بالعزاء الالهي استنهاضاً لهم في الاتعاب ونجدة في القتال .

١٢٠ ـ لنميز ونتبين الأهواء التي فينا لنختار ما يلائمنا من أنواع الطاعة . فإذا كنت جانحاً إلى الشهوة الجسدية فالأفضل لك أن يكون مروضك متقشفاً لا يقبل بأية تعزية في الطعام من أن يكون صانعاً للعجائب ومستعداً في كل حين لاستقبال الضيوف وبسط المائدة . أما إذا كنت متكبراً فاختر لك مروضاً حاد الخلق متشدداً ، غير وديع ولا

وادّ للناس . لا تفتش عن مرشدين يعرفون المستقبل ويرون الحوادث قبل وقوعها ، بل بالحري عمن هم متواضعون وتوافق طريقتهم وسيرتهم الأمراض التي فيك . واعمل بطريقة البار ابكاريوس الأنف الذكر ، فإنها صالحة للطاعة ، وهي أن تفتكر دائماً أن رئيسك يختبرك وإذ ذاك لا يخيب سعيك البتة . إذا كان رئيسك يقرّعك بلا انقطاع وانت تحفظ له حباً جماً وتؤمن به إيماناً كبيراً فاعلم أن الروح القدس قد حل فيك غير منظور وأن قوة العلي قد ظللتك .

١٢١ ـ ولكن متى احتملت الشتائم والإهانات بشجاعة فلا تفتخر ولا تسرّ بل الاولى بك أن تنوح لأنك عملت ما يستوجب التعيير وأوغرت صدر رئيسك عليك . لا تدهشن مما أعتزم قوله ، لأن لي في ذلك موسى سنداً : الأوفق لنا أن نخطأ إلى الله من أن نخطأ إلى أبينا ومرشدنا ، لأننا إذا اغضبنا الله يستطيع مرشدنا أن يستعطفه لنا . أما إذا أزعجنا مرشدنا فليس لنا من يسترحمه من بعد . ومع ذلك يبدو لي أن خطيئتنا في كلا الحالين تؤول إلى نهاية واحدة .

١٢٢ ـ لنفحص بانتباه ولنميز متى ينبغي أن نحتمل طعن الآخرين بنا لدى الراعي شاكرين وصامتين ، ومتى ينبغي أن نوضح له حقيقة الأمر . ويلوح لي أنه علينا أن نصمت في كل الحالات التي تسبب لنا الهوان ، لأنها مناسبات ربح لنا . أما في الوشايات التي تسيء إلى شخص آخر غيرنا فيجب الدفاع عنه وذلك حفاظاً على رباط المحبة والسلام .

١٢٣ ـ إن الذين طفروا من الطاعة يخبرونك عن منفعتها لأنهم قد ادركوا الآن في أية سماء كانوا يقيمون .

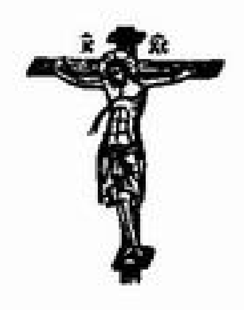
١٢٤ ـ من يعدو ماضياً إلى اللاهوى ومن ثم إلى الله يحسب كل يوم لا يعيَّر فيه خسارة كبيرة له . وكما إن الأشجار التي تهزها الرياح تتأصل اصولها في الأرض كذلك ترسخ نفوس المقيمين في الطاعة فلا تضطرب ولا تتزعزع .

١٢٥ ـ من توحد ثم عرف ضعفه فعاد وباع ذاته للطاعة فقد استعاد نظره بلا مشقة (بعد أن كان اعمى) وأبصر المسيح .

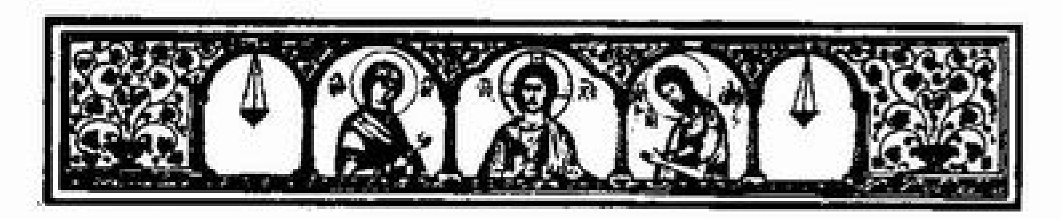
١٢٦ ـ أثبتوا ، اثبتوا يا اخوتي المجاهدين واقول أيضاً اثبتوا سائرين في جهادكم

قدماً ، إذ تسمعون الحكمة تقول عنكم عالياً : لقد محصهم الله تمحيص الذهب في البودقة ، أو بالحري في شركة الاخوة ، وقبلهم في احضانه كذبيحة محرقة[٢٩] ، له المجد والسلطان إلى الأبد مع ابيه الازلي وروحه القدوس . آمين .

هذه درجة رابعة تساوي الانجيليين عدداً فيا ايها المجاهد اثبت في سعيك بلا خوف .



(٢٩) حكمة ٣ : ٦ .



المقالة الخامسة

في التوبة الدائبة المتواصلة الظاهرة جلياً في سيرة الرهبان المعاقبين الابرار وفي السجن المخصص لها

كما أن يوحنا سبق بطرس يوماً[1] هكذا تقدمت الطاعة الآن على التوبة ، لأن الذي سبق كان رمزاً للطاعة وأما الآخر فللتوبة .

١ ـ التوبة تجديد للمعمودية . التوبة عهد مع الله لبدء حياة اخرى . التائب هو من يبتاع التواضع . التوبة هي التخلي الدائم عن التعزيات الجسدانية . التوبة هي الحكم على الذات والاهتمام بالنفس دون الارتباك بأي شيء آخر . التوبة ابنة للرجاء وجحود لليأس . التائب مجرم غير مرذول . التوبة مصالحة مع الرب بعمل الصالحات المضادة للزلات السابقة . التوبة تطهير للوجدان . التوبة صبر على كافة المكدرات . التائب هو من يبتدع العقوبات لذاته . التوبة تضييق شديد على المعدة وتقريع حاد للنفس .

٢ ـ أسرعوا وتقدموا يا جميع الذين أغضبوا الله . تعالوا اسمعوا فأخبركم ، اجتمعوا وتفهموا ما أعلنه الله لي لأجل بنيانكم . لنقدّر ونجلّ اولئك المجاهدين ، المرذولين والمكرمين معاً ، الذين سنروي قصتهم . لنسمع ونتيقظ ونعمل نحن جميع الذين سقطوا سقطة سمجة غير منتظرة . قوموا واجلسوا أيها الواقعون . أصغوا يا اخوتي إلى حديثي وأميلوا آذانكم إلي يا من تريدون أن تتصالحوا مع الله بتوبة صادقة .

٣ ـ فإني إذ سمعت ، أنا المزيل ، بسيرة خارقة وتواضع غريب يسلكها العائشون في الدير المنفرد المدعو حبساً والتابع للدير الرئيسي المشع الآنف الذكر توسلت إلى الرئيس البار إن أذهب إلى هناك . فأجابني إلى طلبي إذ لم يشأ يوماً أن يكدر احداً البتة .

---

(1) يو ٢٠ : ٤ .

٤ ـ فلما قدمت إلى ذلك الدير ، وهو حقاً دار التائبين ومحلة النائحين ، رأيت افعالاً لم تبصرها قط ، إذا جاز القول ، عين انسان متوان ، ولم تسمع بها أذن مضجع ، ولم تخطر على قلب كسلان[٢] . رأيت افعالاً واقوالاً تقدر أن تقسر الله ، وممارسات ومواقف من شأنها أن تستعطف سريعاً محبّته للبشر.

٥ ـ رأيت بعضاً من اولئك الأبرياء واقفين في العراء الليل كله حتى الصباح وهم ثابتو الأقدام يجنبهم نعاس الطبيعة إحناء يرثى له ولكنهم لا يتيحون لأنفسهم أية راحة ، بل ينتهرون ذواتهم بعنف ويطردون النوم بالتعييرات والشتائم .

٦ ـ وغيرهم يتفرسون في السماء تفرساً يرثى له مستغيثين بالله بالصياح والعويل .

٧ ـ وآخرون يقفون في صلاتهم كاتفين أيديهم وراء ظهورهم على مثال المجرمين يطرقون بوجوههم الكالحة إلى الأرض إذ حكموا على انفسهم بأنهم غير مستحقين أن يرفعوا إلى السماوات الحاظهم . وفي حيرة افكارهم وضميرهم لم يكونوا ليجدوا ما يتلفظون به أو ما يصلّون أمام الله أو كيف وبماذا يبدأون تضرعهم . فكانوا في غمرة ظلمتهم ويأسهم المطلق يقدمون لله نفساً خرساء وذهناً أبكم وحسب .

٨ ـ وغيرهم يجلسون ارضاً بالمسح والرماد ساترين وجوههم بركبهم وقارعين الأرض بجباههم .

٩ ـ وآخرون يقرعون صدورهم على الدوام مصورين في فكرهم حالة نفسهم وسيرتهم السابقة . ومنهم من كانوا يبلّون الأرض بدموعهم . ومنهم من أعوزتهم الدموع فكانوا يهشمون انفسهم بالضرب تهشيماً . ومنهم من يولولون على انفسهم كالنادبين موتاهم عاجزين عن احتمال ضيق قلوبهم . ومنهم من كانوا يزأرون في قلوبهم مانعين عويلهم عن الصعود الى أفواههم. وكانوا احياناً يصرخون فجأة لعجزهم عن ضبطه .

١٠ ـ وقد شاهدت هناك قوماً يبدون كأنهم ساهون عن ذواتهم ، غارقين كلياً في الظلام لفرط اكتئابهم لا يشعرون البتة بما يجري حولهم ، غائصين بعقلهم في لجة التواضع ومجففين بنار الغم دموع عيونهم .

انظر ١ كو ٢ : ٩ .

١١ ـ وآخرون جالسون وعقلهم مجتمع ، مطرقين إلى الأرض ، يحركون رؤوسهم بلا انقطاع مزمجرين وآنين كالأسود من صميم قلوبهم ، مصطكة اسنانهم في أفواههم . وكان بينهم من يستغفرون مبتغين بحسن رجائهم صفحاً كاملاً عن زلاتهم . وغيرهم قد قضوا على ذواتهم باتضاع لا يوصف بأنهم غير مستحقين للصفح ، صارخين بأنه لا عذر لهم أمام الله . والبعض يتوسلون أن يعاقبوا في هذه الدنيا ويرحموا في الآخرة . وآخرون قد سحقهم ثقل ضميرهم فكانوا يقولون بسذاجة : حسبنا أن لا نقاصص هناك إن لم نحظ بالملكوت .

١٢ ـ وعاينت في ذلك الحبس نفوساً متواضعة منسحقة قد حناها ثقل وقرها ، قادرة أن توجع الحجارة عينها ، وهي تصرخ إلى الله مطرقة إلى الأرض وقائلة : قد علمنا أننا أهل ، ويحق ، لكل عقاب وعذاب لأننا لسنا اكفاء للتكفير عن كثرة ديوننا حتى ولو جمعنا المسكونة كلها لتنوح علينا . وإنما نسأل ونتضرع ونلتمس هذه المنة الواحدة فقط وهي أن «لا توبخنا بغضبك ولا تؤدبنا برجزك»[٣] ولا تقاصصنا بحكمك العادل بل بشفقتك ، ويكفينا أن ننعتق من وعيدك العظيم ومن التعذيبات الرهيبة التي لا تسمّى . لأننا لا نجترىء على ذلك ونحن لم نحفظ عهدنا بلا عيب بل دنسناه بعد العطف الأول علينا والصفح عنا .

١٣ ـ فهناك حقا ايها الاحياء هناك يمكن ان نعاين تحقيق اقوال داود النبي جليا اذ نشاهد « قوما اشقياء قد تحدب ظهرهم الى آخر حياتهم يمشون مغمومين اليوم كله ، قد أنتنت وقاحات جراحاتهم»[٤]، وهم غير مبالين ، «ساهين عن اكل خبزهم ومازجين شرابهم بدموعهم وآكلين التراب والرماد مع الخبز ، وعظامهم لاصقة بلحمهم وقد يبسوا كالحشيش »[٥] ، لا تسمع منهم اقوالا غير هذه : ويلي ويلي ، ويحي ويحي ، انه لحقّ لحقّ ، إصفح إصفح يا سيد ، ومنهم من يقول : إرحم إرحم ، وآخرون بصورة أدعى للشفقة : إغفر يا سيد إن امكن اغفر لنا .

١٤ ـ وكان يُرى بينهم من كانت ألسنتهم ملتهبة ومتدلية من فمهم كألسنة

---

(٣) مز ٦ : ١ .
(٤) انظر مز ٣٧ : ٦و٥ .
(٥) انظر مز ١٠١ : ٤ ـ ٩ .

الكلاب . وكان بعضهم يعذبون انفسهم بالحر الشديد وآخرون بالبرد القارس ومنهم من كانوا يذوقون قليلا من الماء ليقيهم الموت عطشا وحسب ثم يتوقفون عن الشرب . ومنهم من كانوا يتناولون يسيرا من الخبز ويرمونه عنهم بعيدا قائلين انهم غير مستحقين تناول طعام الناس ما داموا قد عملوا اعمال البهائم .

١٥ ـ أين الضحك منهم ؟ اين الكلام البطال ؟ اين الغضب ؟ اين الغيظ ؟ بل ما كانوا يعلمون بوجود غيظ عند الناس لأن نوحهم كان قد لاشى الغيظ فيهم بالتمام . أين المناقضة عندهم ، اين التنعم بالاعياد ؟ اين الدالة ، اين الاهتمام بالجسد ؟ اين أثر العجب ؟ اين الامل برخاء العيش ؟ اين التفكير بشرب الخمر ؟ اين مذاق الفاكهة ؟ اين تعزية الطناجر ؟[٦] اين تحلية الحلق ؟ بل كان مجرد الامل بهذه كلها قد اندثر دون رجعة . اين عندهم الاهتمام بأي شيء ارضي ؟ اين ادانة الناس ؟ لا شيء من هذا البتة .

١٦ ـ واليكم ما كانوا ينطقون ويتفوهون ويصيحون به للرب دون انقطاع . كان بعضهم يقرعون صدورهم بعنف قائلين لله وكأنهم واقفون امام باب السماء : افتح لنا ايها القاضي افتح لنا الباب الذي اغلقناه على انفسنا بسبب خطايانا . وآخرون يقولون : « أضيء بوجهك علينا فنخلص »[٧] . وغيرهم : « أضيء للجالسين في الظلمة وظلال الموت »[٨] . وآخرون : « سريعا فلتدركنا رأفتك يا رب »[٩] فاننا قد هلكنا ، قد يئسنا ، قد فنينا الى الغاية . والبعض: ماذا تُرى أيظهر لنا الرب فينا بعد؟[١٠] وآخرون : أتُرى تعبر نفسنا هذه المياه الطاغية ؟ [١١] وغيرهم : هل يتحنن الرب علينا فينا بعد ؟ [١٢] ام ترانا نسمعه قائلا : ايها المعتقلون بأغلال مثبتة لا تنحل اخرجوا ؟ [١٣] ويا من هم في جحيم التوبة فليغفر لكم ؟ هل بلغ صراخنا الى آذان الرب ؟

---

(٦) اي الاطعمة المطبوخة .

(٧) مز ٧٩ : ٣ .

(٨) لو ١ : ٧٩ .

(٩) مز ٧٨ : ٨ .

(١٠) ١١٧ : ٢٧ .

(١١) مز ١٢٣ : ٥ .

(١٢) قضاة ٢ : ١٨ .

(١٣) اشعيا ٤٩ : ٩ .

١٧ ـ وكانوا كلهم قابعين ينظرون الموت بأعينهم على الدوام ويقولون : تُرى ما الذي سيعرض لنا ؟ ترى ما هو الحكم الذي يصدر بحقنا ؟ ترى ما هي نهايتنا ؟ هل توجد لنا عودة ؟ هل يوجد لنا صفح نحن المظلمين الاذلاء المجرمين ؟ هل استطاعت طلبتنا ان تدخل الى حضرة الرب ام رجعت بعدل مرذولة خازية ؟ أتراها في حال دخولها كم اقتدرت ؟ كم استرضت ؟ كم فعلت ؟ لأنها خرجت من أجسام وافواه نجسة ولم تملك قوة . أتُراها استعطفت القاضي تماما ام الى حد ما ؟ هل بما يعادل نصف جراحاتنا ؟ لأن جراحاتنا عظيمة بالحقيقة تتوجب كدّا وتعبا وعناء كثيرا . ترى هل اقترب منا حراسنا الملائكة ام لا يزالون بعيدين ،لأنهم ان لم يقتربوا منا فتعبنا لا ينفع . اذْ ان صلاتنا لن تملك دالة ولا جناح طهارة لتدخل الى الرب ما لم يقبل الينا ملائكتنا الحارسون ويتسلموها منا ويقدموها اليه .

١٨ ـ وكثيرا ما كانوا يسألون بعضهم بعضا متحيرين وقائلين : هل نحن مفلحون يا اخوة ؟ هل نحظى بمطلوبنا ؟ أترونه يقبلنا ايضا ؟ هل يفتح لنا ؟ فكان يجيبهم آخرون : من يعلم ؟ لعل الله يرجع ويندم (كما يقول اخوتنا اهل نينوى)[١٤] فيرفع عنا قصاصا عظيما ؟ وعلى كل حال فلنعمل ما علينا . فان فتح لنا . . وإلاّ فمبارك الرب الاله الذي أغلق علينا بعدل . ولكننا سنظل طارقين بابه حتى انتهاء عمرنا لعله يفتح لنا لكثرة إلحاحنا ولجاجتنا[١٥] . ولهذا السبب كانوا ينهضون ويستحثون بعضهم بعضا قائلين : لنجرِ يا اخوة لنجر فان حاجتنا ماسة الى الجري والجري الحثيث ما دمنا تخلفنا عن صحبنا الصالحين . لنركض ولا نشفق على جسدنا الدنس الشرير . بل لنقض عليه كما قضى هو علينا .

١٩ ـ واليكم ما كان يفعله اولئك المذنبون المغبوطون . فكنت ترى الركب كليلة لكثرة السجود ، والعيون غائرة ذابلة لا اهداب لها ، والخدود مشققة مستعرة بحرارة الدموع السخينة ، والوجوه نحيلة صفراء لا تفرق بينها وبين وجوه الموتى ، والصدور مطبقة بفعل القرع المتواصل المتسبب بنزف الدم . أين مد الفراش عندهم ؟ اين نظافة اللباس او جودته ؟ فثيابهم كلها ممزقة قذرة ، رعاها القمل . فما هو شقاء المجانين او

---

(١٤) يونان ٣ : ٩ .

(١٥) انظر لو ١١ : ٨ .

النادبين موتاهم او المنفيين بازاء شقائهم ؟ ما هو عذاب المجرمين المحكوم عليهم بالقتل ؟ فان عذاب هؤلاء الكرهي لا يقاس البتة بعذاب اولئك الاختياري . ولكن لا تظنوا يا اخوتي ان هذا الذي رويته لكم خرافة .

٢٠ ـ فان اولئك كثيرا ما تضرعوا الى راعيهم العظيم الذي هو ملاك بين الناس ان يغل اعناقهم وايديهم بأغلال من حديد وان يقيد ارجلهم بعقالات المجرمين والمختلّي العقول ولا يحلهم منها حتى يقتبلهم القبر ، هذا ان لم يحرموا من القبر .

٢١ ـ ذلك لأني لن اكتم ولن اخفي تذلل اولئك المغبوطين الذي يرثى له حقا وبادي انسحقاهم في محبتهم لله وفي توبتهم . فانهم متى شعروا بأنهم قد اوشكوا على الانتقال الى الله والوقوف امام منبر العدل كان هؤلاء الابرار المستوطنون ارض التوبة يتوسلون بقسم الى رئيسهم الاكبر بلسان شيخهم ان لا يؤهلهم لدفن انساني بل لدفن البهائم ، إما بطرحهم في مجرى النهر او بإلقائهم في العراء مأكلا للوحوش . وكثيرا ما استجاب لطلبهم بتمييزه العظيم آمراً بأن يجتزّوا بلاترتيل ولا تكريم .

٢٢ ـ واما مشهدهم ساعة الموت فرهيب يرثى له . اذ كان هؤلاء الشركاء في المصير يحيطون بمن يشعرون بينهم بأنه موشك ان يسبقهم ويقضي اجله ويسألونه ، وهو صحيح العقل بعد ، متلهفين ومتألمين ومتوسلين بلهجة يرثى لها وبكلام كئيب ، ملتاعين اشفاقا عليه وهم يهزّون رؤوسهم قائلين : ما بك يا اخانا وقريننا في الحكم ؟ كيف حالك ؟ ماذا تقول ؟ ماذا ترجو ؟ ماذا تظن ؟ هل ادركت مطلوبك بتعبك ام لم تستطع ؟ أفتح لك ام لم تحظ بذلك ؟ ابلغت مبتغاك ام ان أملك بذلك غامض ؟ هل حصلت على العتق ام ما زال فكرك يتردد ويرتاب في مصيرك ؟ أأحسست بنور يضيء في قلبك ام لا يزال مظلما مرذولا ؟ هل سمعت في داخلك صوتا يقول : « ها قد صرت صحيحا »[١٦] او « مغفورة لك خطاياك »[١٧] او « ايمانك خلصك »[١٨] ، ام يبدو لك انك لا تزال تسمع ذلك الصوت القائل : « فليُقذف بالخطأة الى الجحيم »[١٩]

---

(١٦) يو ٥ : ١٤ .

(١٧) متى ٩ : ٢ .

(١٨) مر ٥ : ٣٤ .

(١٩) مز ٩ : ١٧ .

«واربطوا يديه ورجليه واطرحوه في الظلمة الخارجية»[20] و« ليُقصَ المنافق لئلا يرى مجد الرب »؟[21] ماذا تقول يا اخانا ؟ نتضرع اليك ان تكلمنا كي نعلم الى اي حال نحن صائرون ، فان زمانك الآن قد انتهى ولن تجد غيره الى الدهر . فكان يجيب البعض بقولهم : « مبارك الرب الذي لم يُقصِ صلاتي عنه ولا رحمته عني »[22] وبعضهم : « تبارك الرب الذي لم يسلّمنا فريسة لأسنانهم »[23] . وكان يقول آخرون بتوجع : « هل ستجوز انفسنا مياه ارواح الهواء الطاغية »[24] ؟ وهم غير مطمئنين تماما بعد بل مترقبون ما يجدّ في اكتمال الحساب . وآخرون بتوجع اشد : الويل لنفس لم تصن عهدها بلا عيب ، فانها سوف تعرف في هذه الساعة فقط ما أعد لها .

١٢ ـ اما انا فلما أبصرت منهم هذه الافعال وسمعت هذه الأقوال كدت ايأس من ذاتي متأملا مدى توانيّ ازاء ما يتجشمونه من اتعاب . اذ أي مكان كان مسكنهم ؟ كان مكانا مظلما ، منتنا ، قذرا ، وسخا بجملته وقد سمّي بحق حبسا وسجنا ، حتى ان مجرد مشاهدته تحرك الى التوبة والنوح . غير ان ما يصعب او يتعذر على عامة الناس يكون سهلا ومقبولا عند من سقطوا من الفضيلة والغنى الروحي . لأن نفساً اضاعت دالتها الاولى وفقدت رجاءها ببلوغ اللاهوى وهتكت عفتها وسلبت ثروة مواهبها وتغربت عن تعزية الله ونكثت عهدها مع الرب وأطفأت نار دموعها الصالحة ، ويقرعها ذكر هذا ويؤلمها ، ان تلك النفس لا تتجشم بنشاط كلي تلك الاتعاب وحسب بل تعمد بخوف الله الى افناء ذاتها بالنسك ، اللهم اذا كانت لا تزال فيها بقية من شرارة حب الرب وخوفه تعالى كما كان لهؤلاء المغبوطين حقا . فانهم حفظوا في عقولهم كل ما أضاعوه وتصوروا علو الفضيلة الذي سقطوا منه ، فكان البعض يرددون : « تذكرنا الأيام القديمة »[25] ونار غيرتنا الروحية ، وغيرهم يصرخون : « اين هي مراحمك القديمة يا رب التي حلفت بها لداود بأمانتك؟ اذكر عار عبيدك وشقاءهم»[26]، وآخر

---

(٢٠) متى ٢٢ : ١٣ .

(٢١) اشعيا ٢٦ : ١٠ .

(٢٢) مز ٦٥ : ٢٠ .

(٢٣) مز ١٢٣ : ٦ .

(٢٤) مز ١٢٣ : ٥ .

(٢٥) مز ١٤٢ : ٥ .

(٢٦) مز ٨٨ : ٤٩ ـ ٥٠

يقول : « من لي بمثل الشهور السالفة ومثل الايام التي حفظني فيها الله حين أضاء نوره في قلبي ؟ »[٢٧] .

٢٤ ـ فانظر كيف كانوا يذكرون ما أحكموه من فضائل وينتحبون على فقده كالأطفال قائلين : أين نقاوة صلاتنا ؟ أين دالتنا ؟ أين دمعتنا تلك الحلوة عوض هذه المرة ؟ أين رجاء العفة والطهارة الكاملة ؟ أين توقع اللاهوى المغبوط ؟ أين ايماننا براعينا ؟ أين تأثير صلاته فينا ؟ لقد زالت هذه كلها وغابت كأنها لم تكن وتلاشت كأنها لم توجد .

٢٥ ـ وفيما هم يتفوهون بهذا نائحين كان البعض يبتهلون الى الرب ان تمسهم الشياطين ، والبعض ان يصابوا بالصرعة ، وغيرهم ان يفقدوا البصر ويصيروا للناس مشهدا يرثى له ، وآخرون ان يُشَلّوا ، على الا يذوقوا العذاب المزمع ان يكون . اما انا يا احبائي فدهشت لارتياحهم لهذا الشقاء وسهوت كليا ولم اتمكن من ضبط ذاتي . . ولكن فلنعد الى سياق الحديث.

٢٦ ـ لقد بقيت في ذلك السجن ثلاثين يوما ثم عدت انا العادم الصبر راجعا الى الدير الكبير الى الراعي العظيم فلما أبصرني ساهيا متغيرا بكليتي عرف سبب تغييري وقال : ما بك ايها الأب يوحنا ؟ أرأيت جهادات الكادحين؟ فأجبته : لقد رأيتها يا ابتِ وعجبت لها وطوبت الساقطين النائحين على انفسهم اكثر من الذين لم يسقطوا ولا ينوحون . لأن اولئك قد نهضوا من جراء سقطتهم نهوضا لا يهدده خطر . فأجابني : لقد صدقت ، فالأمر هو كذلك . ثم خبّرني بلسانه الصادق قائلا : كان عندي ها هنا منذ عشر سنوات اخ مجاهد نشيط جدا . وكنت عندما أراه على هذه الحال حاراً بالروح أرتعد من اجله خوفا عليه من ان تعثر رجله بحجر من جراء حسد ابليس بسبب عدوه السريع ، اذ غالبا ما يعرض مثل هذا لمن يجدّون في السعي . وهذا ما حدث له فعلا . فانه اتى اليّ ذات ليلة حالكة واراني جرحه عاريا والتمس ضمادا وابتغى كيا ورجف رجفانا . ولما وجدني طبيبا لا يشاء استعمال القسوة في معالجته (اذ كان يستحق العطف) ألقى بذاته على الأرض وأمسك بقدميّ وبلّهما بدموع غزيرة والتمس مني ان

---

(٢٧) ايوب ٢٩ : ٢ ـ ٣ .

احكم عليه بذاك الحبس الذي عاينته انت وصاح بانه يستحيل نعم يستحيل ألاّ يذهب الى هناك . فأكره الطبيب على ان يحول عطفه الى قسوة (وهذا امر غريب جداً ونادر الوقوع) وانضم توًّا الى التائبين وصار شريكا لهم نائحا ومتوجعا معهم . فجرح الحزن قلبه لأجل حب الله كمن يطعن بالسيف ، وفي اليوم الثامن رحل الى الرب ملتمسا الا يحظى بدفن . ولكني أحضرته الى الدير هنا ودفنته مع آباء الدير كما يليق به . لأنه بعد انقضاء اليوم السابع انفك اسره في اليوم الثامن وتحرر من عبودية هذا الدهر[٢٨] . وان هناك من يعلم يقينا انه لم ينهض من امام قدمّي الحقيرتين الا وكان قد استرضى الله . وليس ذلك بعجيب فانه اذ حوى في قلبه ايمان الزانية فقد بلّ قدميّ الذليلتين مدفوعا بيقينها نفسه ، وقد قال الرب : « كل شيء مستطاع للمؤمن »[٢٩] وقد رأيت نفوسا نجسة هائمة هياما شديدا بعشق الاجسام ولما اعتمدت طريق التوبة استفادت من خبرة العشق بأن نقلت غرامها الى الرب وتجاوزت سريعا كل خوف وشغفت بحب الله دونما شبع . ولهذا لم يقل الرب للزانية العفيفة انها خشيت كثيراً بل احبت كثيرا[٣٠] . وهكذا تيسر لها ان تدفع عشقاً بعشق .

٢٧ ـ لا اجهل ايها المتعجبون من اقوالي ان الجهادات التي اوردتها عن هؤلاء المغبوطين ستبدو للبعض غير قابلة للتصديق ، ولآخرين صعبة التصديق ، ولغيرهم باعثة على اليأس . ولكن المرء الشجاع سوف يستمد منها منخسا وسهما نارياً ينطلق به وقلبه ممتلىء غيرة وحماسة . اما من كان اقل حماسة فسيدرك ضعفه بعد سماعها ويلوم ذاته وبالتالي يتسهل عليه اقتناء التواضع وهكذا يجري وراء الاول ، ولست ادري فقد يلحق به . واما المتواني فلا يستمعن البتة الى تلك الجهادات لئلا ييأس بالكلية ويخسر حتى القليل الذي حققه ، فينطبق عليه القول القائل : « من ليس له (حماسة) يؤخذ منه (ما عنده) »[٣١] .

٢٨ ـ لن نخرج يوما من حفرة الآثام التي سقطنا فيها الا اذا انحدرنا الى لجة اتضاع التائبين .

---

(٢٨) تثنية ١٥ : ١٢ وما بعدها : ان اليوم الثامن رمز للدهر الآتي .

(٢٩) مر ٩ : ٢٣ .

(٣٠) لو ٧ : ٤٧ .

(٣١) متى ٢٥ : ٢٩ .

٢٩ ـ ان اتضاع النائحين الكئيب هو غير الاتضاع الذي يلازم توبيخ الضمير عند الذين لم يتحرروا بعد من خطاياهم ، وهو ايضا غير غنى الاتضاع المغبوط الحاصل عند الكاملين بفعل الله . أما التواضع الثالث فلا نبادرن الى وصفه بالكلام لئلا نسعى باطلا . واما علامة التواضع الثاني فهي الصبر الكامل على الهوان . ولكن كثيرا ما تعود العادات السيئة فتطغي حتى على النائحين . ولا عجب في ذلك ، فان التمييز بين السقطات غير واضح المعالم ولا يدركه الجميع . فأي سقطات تعرض لنا بسبب توانينا ، وايها تعرض باهمال تدبيري من الله ، وايها تعرض لارتداده عنا ؟ ولكن احدهم شرح لي ان السقطات التي تعرض لنا باهمال تدبيري نرجع عنها سريعا ، لأن الله الذي اسلمنا اليها لا يسمح بأن نُضبط فيها طويلا . فعلينا نحن الذين سقطنا ان نحارب شيطان الحزن قبل كل الشياطين لأنه ينتصب لدينا وقت الصلاة ويذكّرنا بدالتنا السابقة التي اضعناها محاولا بذلك ابطال صلاتنا .

٣٠ ـ لا تعجبنَّ اذا سقطت كل يوم ولا تولِّ هاربا بل قف بشجاعة فيجلّ صبرك الملاك الذي يحفظك . ما دام الجرح حارّاً طرياً فهو سهل الشفاء ، ولكن الجراحات القديمة المهملة والمتقيحة يصعب شفاؤها ، لأن علاجها يتطلب تعبا كثيرا وبتراً وتجفيفاً وكيّاً . اما الجراحات القديمة جدا فلا يمكن شفاؤها ، وغير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله[٣٢] .

٣١ ـ تقول لنا الشياطين قبل السقطة ان الله محب للبشر . وتقول بعدها انه صارم لا يشفق .

٣٢ ـ لا تصدّق من يقول لك بعد زلة كبيرة ألَّا تمتنع عن الزلات الصغيرة بحجة انها ليست بشيء بازاء تلك . فكثيرا ما كفت غضب القاضي الشديد هدايا صغيرة .

٣٣ ـ من يحاسب نفسه حقيقة يحسب انه قد اضاع اليوم الذي لم يبك فيه ولو عمل خلاله الصالحات .

٣٤ ـ لا ينتظرنَّ احد من المنتحبين على خطاياهم وقت خروجه من الدنيا ليحظى بيقين الخلاص . لأن الأمر الغامض عار عن الصدق . ولذا فقد قيل : « تغاض عني

(٣٢) متى ١٩ : ٢٦ .

لكي استريح (باليقين) قبل ان انصرف (غير متيقن من خلاصي) »[٣٣] . حيث روح الرب ينحل رباط الخطيئة . وحيث اتضاع لا قياس له ينحل رباطها ايضا . فلا ينخدعن الخالون من الاثنين لأن الخطيئة لا تزال تربطهم .

٣٥ ـ ان اهل العالم غرباء اجمالا عن هذين اليقينين ولا سيما عن الاول منهما ولكن البعض منهم يقضون حياتهم بأعمال الرحمة فيعرفون ربحهم وقت الممات .

٣٦ ـ من ينحُ على ذاته فلن يهتم بمعرفة نوح غيره او سقطته ولن يلومه . فاذا عضّ وحش كلباً تزايد غضب الكلب وهياجه على الوحش جدا واستأثر به وذلك لتألمه من الجرح .

٣٧ ـ لنتيقظ لئلا يكون توقف ضميرنا عن توبيخنا ناتجا عن تفاقم شرنا لا عن طهارتنا . ان علامة حلنا من سقطتنا هي ان نحسب انفسنا دائما مدينين .

٣٨ ـ ليس هناك ما يفوق رأفات الهنا او ما يساويها . ولذا فمن ييأس ينتحر . ان علامة الانكباب على التوبة هي اعتبار انفسنا مستوجبين لجميع الاحزان العارضة لنا، المنظورة منها وغير المنظورة ، ولأكثر منها ايضا . ان موسى رجع الى مصر (اعني الى الظلام) والى لِبن فرعون العقلي وذلك بعد مشاهدته الله في العوسجة . لكنه عاد فصعد الى العوسجة ايضا بل الى الجبل . فمن فقه هذا لن ييأس من ذاته يوما . لقد افتقر ايوب الصديق ولكنه عاد فاستغنى مضاعفا .

٣٩ ـ ان السقطات الحاصلة بعد الدعوة الرهبانية ثقيلة على الرهبان المتوانين لأنها تنتزع منهم رجاء البلوغ الى اللاهوى وتحملهم على ان يحتسبوا مجرد نهوضهم من حفرة خطاياهم حظاً مغبوطا . انتبه ، انتبه ، لأننا ولا شك لن نعود بالطريق التي ضللنا فيها بل بطريق اخرى قصيرة .

٤٠ ـ رأيت اثنين سائرين الى الله على منوال واحد وفي زمان واحد ، احدهما شيخ يفوق الثاني في الاتعاب والآخر تلميذ ، ولكن التلميذ اسرع منحدرا الى قبر التواضع اكثر من الشيخ[٣٤] .

---

(٣٣) مز ٣٨ : ١٣ .

(٣٤) يو ٢٠ : ٤ .

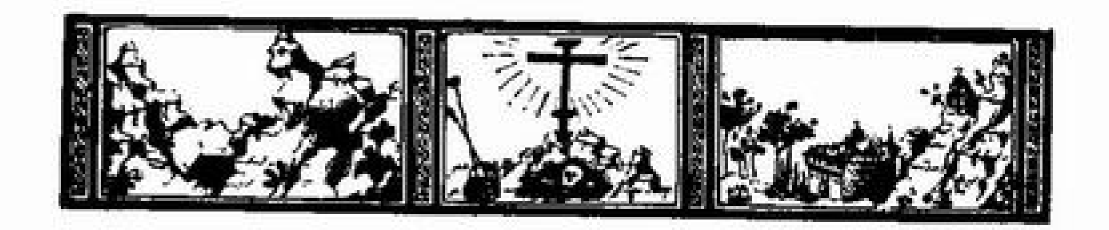
٤١ ـ لنتنبه جميعا ولا سيما الذين سقطوا بيننا كيلا يعتري قلبنا داء أوريجنس. لأن هذا الداء الذي هو التذرع بمحبة الله للبشر يصاب به سريعا محبو اللذات .

٤٢ ـ في اهتمامي بل في توبتي تتأجج نار صلاتي وتحرق مادة خطيئتي[٣٥] . يا هذا فليكن لك اولئك القديسون المحكوم عليهم الأنفو الذكر حدًا ، ورسما ، ونموذجا ، وصورة للتوبة فلا تعد تحتاج الى مصحف بالكلية طيلة عمرك الى ان يشرق لك المسيح ابن الله ، في قيامة التوبة الدؤوب آمين .

هذه درجة خامسة قد صعدتها ايها التائب لأنك طهرت بها حواسك الخمس وهربت باختيارك من العذاب والعقاب الكرهي .



(٣٥) مز ٣٨ : ٣ .



المقالة السادسة

في ذكر الموت

١ ـ كما ان الفكرة تسبق الكلمة ، كذلك فان ذكر الموت والخطايا يسبق البكاء والنوح . ولذا رتبناه هنا في سياق حديثنا .

٢ ـ ذكر الموت موت في كل يوم . ذكر الخروج من الدنيا تحسّرٌ في كل ساعة .

٣ ـ مخافة الموت خاصة طبيعية نجمت عن المعصية ، اما الارتعاد من الموت فدلالة على سقطات لم تتب عنها : لقد خاف المسيح من الموت(١) ولكنه لم يرتعد منه وذلك ليُظهر خاصة كل من طبيعتيه جليا .

+ ٤ ـ كما ان الحاجة الى الخبز تفوق الحاجة الى سائر الاغذية كذلك فان الحاجة الى الاهتمام بذكر الموت تفوق الحاجة الى سائر الاعمال الروحية . ان ذكر الموت يولّد في العائشين في وسط العالم حزنا وضياعا وبالأحرى فتورا في الهمة . اما عند الخارجين من ضوضاء العالم فيولّد إقصاء للهموم وصلاة متواصلة ويقظة للذهن ، وهذه تعود بدورها فتولد ذكر الموت .

٥ ـ من البيّن ان القصدير غير الفضة وإنْ شبهها في منظره ، وكذلك فان الفرق بين الخوف الطبيعي من الموت والخوف الفائق الطبيعة واضح عند ذوي التمييز .

+ ٦ ـ من العلامات الصادقة لذكر الموت باحساس عميق من القلب الزهد الاختياري بكافة المخلوقات والإعراض الكامل عن المشيئة الذاتية .

٧ ـ من ينتظر الموت في كل يوم هو لا شك فاضل ، ولكن من يتوق اليه كل ساعة هو قديس .

(١) متى ٢٦ : ٣٧ و ٣٨ .

٨ - ليس كل اشتهاء للموت صالحا . فان البعض تقسرهم العادة الى السقوط المتواتر فيطلبون الموت من جراء ذلك . والبعض بالعكس لا يريدون ان يتوبوا فيبتغون الموت من جراء اليأس . والبعض يتوهمون باطلا انهم بلغوا اللاهوى وبالتالي لا يجزعون بعد من الموت . والبعض (اللهم ان وجدوا في ايامنا هذه) يتوقون الى الانصراف من هذه الحياة بفعل الروح القدس .

٩ - يرتاب بعض المؤمنين الاتقياء متسائلين لماذا كتم الله عنا معرفة ساعة الموت مسبقا ما دام ذكره ينفعنا بهذا المقدار ، غير عالمين ان الله العجيب في احكامه انما صنع خلاصنا بهذا الكتمان . فانه لو علم اي منا بوقت وفاته مسبقا لما بادر الى المعمودية او الى السيرة الرهبانية ، بل لأمضى كل ايامه في الأثم منتظرا يوم انصرافه ليقبل الى المعمودية والتوبة . ولكنه من جراء عادته الطويلة يكون حينذاك قد رسخ في الرذيلة وقد يبقى غير قابل للاصلاح بالكلية .

١٠ - اذا كنت تنوح على خطاياك فلا تقبل قط ما يوحيه اليك ذلك الكلب من ان الله محب للبشر ، قاصدا ان ينزع عنك النوح والخوف العادم الخوف ، الا اللهم اذا رأيت ذاتك منجرفا الى يأس عميق .

+ ١١ - من يبتغي الهذيذ بذكر الموت وحكم الله على الدوام ، وفي الوقت نفسه يدفع ذاته الى اهتمامات ومشاغل مادية يشبه انسانا يسبح ويريد ان يصفق بكلتا يديه .

+ ١٢ - ان ذكر الموت الواضح المستمر يقطع تناول الاطعمة ، ومتى انقطعت الاطعمة بالاتضاع انقطعت معها الاهواء .

١٣ - قساوة القلب تظلم الذهن وكثرة الاطعمة تجفف ينابيع الدموع . العطش والسهر يضغطان القلب ومتى انعصر القلب نبعت منه مياه الدموع . ستبدو هذه الاقوال قاسية للنهمين وغير قابلة للتصديق للمتوانين . اما العامل المجاهد فيختبرها بنشاط . ومن خبرها ينشرح لها او يرتاح . اما الذي لا يزال في طور التماسها فيزداد وجوما .

١٤ - كما حدد الآباء القديسون ان المحبة الكاملة لا تعرف السقوط ، كذلك اقول ان الاحساس الكامل بالموت لا يعتريه الخوف .

+ ١٥ - ان افعال الذهن النشيط العامل كثيرة اعني بها التأمل في الله وفي حبه

تعالى ، وذكر الملكوت وغيرة الشهداء القديسين ، وحضور الرب شخصيا على حد قول القائل : « رأيت الرب امامي في كل حين »[٢] ، وذكر الملائكة القديسين والخروج من الدنيا واللقاء الرهيب والحكم والعقاب . لقد ابتدأنا في سردنا هذا بالامور الجليلة ولكننا انتهينا بالتي لا تخطىء .

١٦ ـ اخبرني يوما راهب مصري انه بعد ان غرز ذكر الموت في قلبه اراد مرة ان يعزي جسده الطيني قليلا بداعي الحاجة ، فمنعه ذكر الموت عن ذلك منع قاض صارم ، والعجيب انه قصد إبعاده فلم يستطع .

١٧ ـ وراهب آخر مقيم هنا في المكان المسمّى تولا كان يؤول به ذلك الفكر مراراً كثيرة الى حالة الذهول فكان يحمله الاخوة الذين يصادفونه وهو فاقد التنفس تقريبا كمن اغمي عليه او كمن صرع .

١٨ ـ ولن اصمت عن ايراد خبر ايسيثيوس الخوزيبي . هذا كان يتصرف دائما بكل توان ولا يهتم البتة بخلاص نفسه . فمرض يوما الى الغاية وفارق جسده مدة ساعة . ثم عاد الى ذاته وتوسل الينا ان ننصرف كلنا من عنده للحال ثم سد باب قلايته ومكث داخلها اثنتي عشرة سنة لا يتصل بأحد البتة بأية كلمة ولا يذوق غير الخبز والماء . فكان جالسا وحده شاخصا بنظره الى ما ابصره في غيبوبته ومتأملا اياه ، حتى انه لم يغير مكانه قط بل كان شارد العقل على الدوام يدفق بصمت دموعا سخينة . وحين اوشك ان يفارق الحياة نقبنا باب قلايته ودخلنا ، وبعد تضرع كثير سمعنا منه هذه الكلمة فقط : « اغفروا لي ، ان كل من حوى ذكر الموت لا يستطيع ان يخطأ » . فدهشنا لما ابصرنا من كانت حاله على ما ذكر من التواني قد تحول بغتة هذا التحول وتغير تغيراً مغبوطاً . ثم دفناه دفن الابرار في المقبرة القريبة من الحصن ، وبعد أيام طلبنا جسده المقدس فلم نجده ، فأكد الرب بذلك من خلال تلك التوبة الصادقة المأثورة قبوله لجميع المريدين ان يقوّموا سيرتهم بعد كثرة توانيهم .

١٩ ـ وكما ان لجة البحر لا حد لها ولا قعر ، كما اعتاد ان يقول البعض ، كذلك فان ذكر الموت يؤول بالطهارة والسيرة الى اللافساد ، ويثبت صحة هذا القول البار

---

(٢) مز ١٥ : ٨

المذكور اعلاه لأن امثاله لن يكفوا عن ان يزيدوا على خوفهم خوفا على غراره الى ان تفنى منهم قوة عظامهم .

✝ ٢٠ ـ لا يخامرنا شك في ان ذكر الموت عطية من الله كسائر الصالحات ، والا فكيف يتفق ان نزور المقابر مرارا كثيرة ونلبث قاسين لا دموع لنا ، في حين اننا كثيرا ما نتخشع ونبكي خلوا من مثل ذلك المنظر .

✝ ٢١ـ من مات عن الاشياء كلها يأتي الى ذكر الموت . اما من لا يزال متمسكا بالعالم فيتآمر على نفسه .

٢٢ ـ لا تطلب ان تؤكد لجميع الناس بالأقوال حبك لهم بل الاحرى بك ان تسأل الله اظهاره لهم بدون ما اقوال . والا فلن يكفيك مدى زمانك للتودد اليهم والتوجع على خطاياك معا .

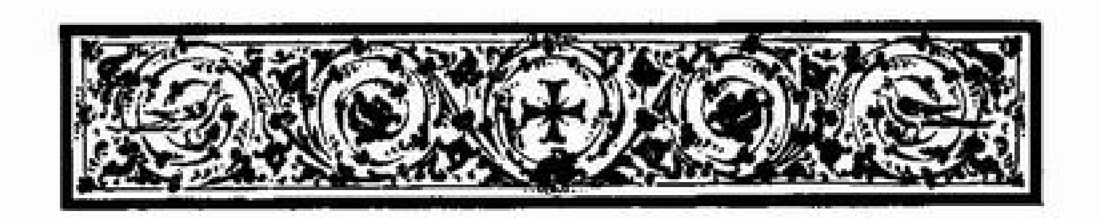
٢٣ ـ يا مجاهدا عادم الفطنة لا تنخدعن بامكان التعويض عن اضاعة وقت بوقت آخر فان كل يوم من ايامك لا يكفي لايفاء دينه كاملا للسيد .

٢٤ ـ قال احدهم انه يتعذر نعم يتعذر علينا ان نعبر يومنا ببر وتقوى ان لم نحسبه اليوم الأخير من عمرنا . وانه لأمر غريب بالحقيقة ان الوثنيين ايضا قالوا مثل هذا القول ، اذ حددوا الفلسفة بالانشغال بالموت .

هذه درجة سادسة من صعدها لن يخطأ فيا بعد وذلك على حد القول الصادق : « تذكر اواخرك فلن تخطأ الى الدهر »[٣] .



(٣) ابن سيراخ ٧ : ٤٠ .



المقالة السابعة

في النوح الحامل الفرح

١ - النوح المرْضي عند الله هو نفس كئيبة وقلب حزين يغرق ابدا في طلب ما يتوق اليه ، وما دام لا يحظى به يلتمسه بمشقة ويتأوه وراءه بتوجع . او في تعريف آخر النوح هو منخس ذهبي لنفس طرحت عنها كل مطمع ورباط وقد غرسه وثبته فيها الحزن المقدس بواسطة يقظة القلب .

٢ - نخس القلب هو تقريع دائم للضمير يؤدي من خلال الاقرار القلبي بالخطايا الى تهدئة اضطرام القلب. والإقرار بالخطايا هو نسيان الطبيعة ، ما دام داود قد سها بسببه عن اكل خبزه .

٣ - التوبة هي حرمان الذات طوعا من كل تعزية جسدية .

٤ - ان مزية البادئين بالنوح المغبوط هي الامساك عن الاهواء وضبط الشفتين . ومزية المتقدمين فيه هي عدم الغيظ وعدم الحقد . اما مزية الكاملين فيه فهي الاتضاع ، والعطش الى الاهانات ، والجوع الطوعي الى المشقات الكرهية ، وعدم إدانة الخطأة بل الترثي لهم ترثيا فائق القدرة . فالأولون مقبولون والاوسطون جديرون بالثناء ، اما الجياع والعطاش الى الضيق والهوان فمغبوطون لأنهم سيشبعون من الطعام الذي لا يشبع منه .

٥ - اذا حظيت بالنوح فحافظ عليه بكل قوتك لأنه يسهل فقدانه قبل استقراره ، وكما يذوب الشمع بالنار يتلاشى سريعا من جراء الضوضاء والاهتمامات الجسدية والتنعم وخاصة من جراء كثرة الكلام والمزاح .

٦ - أتجاسر واقول ان ينبوع الدموع الموهوب لنا بعد المعمودية هو اعظم من المعمودية لأن هذه لا تطهرنا الا من السيئات الحاصلة قبلها واما ذاك فيطهرنا من

السيئات التي تحدث بعدها . وبما اننا اقتبلناها كلنا اطفالا فقد دنسناها . ولكننا بالدموع نستعيد تطهيرنا . ولو لم يمنح الله الدموع للناس محبة بالبشر لكان الذين يخلصون قليلين حقا ويعسر جودهم .

٧ ـ ان انات الحزن تصرخ نحو الرب ودموع الخوف تستشفعه ، اما دموع الحب الأقدس فتوضح ان صلاتنا قد قُبِلَت عنده تعالى .

٨ ـ ان كان لا يلائم التواضع شيء كالنوح فلا شيء ايضا ينافيه كالضحك .

٩ ـ تمسك كل التمسك بالتوجع المفرح الملازم لنخس القلب ولا تكف عنه حتى يرفعك عن الأرضيات ويقدمك نقيا الى المسيح .

١٠ ـ لا تكف عن ان تتصور وتتصفح لجة النار الابدية والخدام العادمي الشفقة والقاضي الفظ الصارم والهوة المظلمة التي لا قعر لها واللهيب السفلي والدهاليز الضيقة المحدرة الى المهاوي والاسافل الرهيبة وامثال هذه كلها لكيما يضيّق الرعب الشديد على الفجور الذي فينا وتحل محله طهارة غير فاسدة يشرق فيها النور الاكثر بهاء من النار .

١١ ـ قف في صلاتك وتضرعك مرتعدا ارتعاد المجرم امام القاضي حتى تستطيع بمظهرك وسريرتك إطفاء غضبه العادل . لأنه لن يرذل نفسا تقف امامه كالارملة الحزينة تزعج من هو غير قابل للانزعاج .

١٢ ـ من امتلك دموعا داخلية يلائمه كل مكان للنوح . ومن يبكي بعينه الظاهرة فقط لن يكف باحثا عن مواضع واسباب للنوح . ان الكنز المطروح في الاسواق معرَّض للسلب اكثر من الكنز المحجوب عن الأنظار. فعلى هذا المنوال لنفقه ما قيل عن الدمعة الباطنة والدمعة الظاهرة .

١٣ ـ لا تكن مثل الذين دفنوا امواتهم فينوحون عليهم احيانا ويسكرون احيانا بل كن كالمعتقلين في المناجم الذين يجلدهم الحراس كل حين .

١٤ ـ ان من ينوح حيناً ويتنعم ويضحك حيناً آخر يشبه من يطرد كلب اللذة بكسرة خبز ، فهو يطرده شكلا ولكنه يستدعيه فعلا .

١٥ ـ إجمع عقلك وادخل به الى قلبك دون ان تتباهى بذلك . فان الشياطين

يخشون تجمع العقل خشية اللصوص للكلاب .

١٦ ـ لا ، لم نُدعَ الى العرس هنا يا اخوة بل الذي دعانا انما دعانا الى النوح على انفسنا .

١٧ ـ ان البعض يجهدون ذواتهم حين يبكون لكي لا يفكروا بأي شيء البتة في ذلك الوقت المبارك . ولكنهم لا يدركون ان الدمعة الخالية من فكر ينبعها هي خاصة طبيعة غير ناطقة لا طبيعة ناطقة ، فالدمعة البليغة هي نتيجة الفكر ، والعقل الناطق هو ابو الفكر .

١٨ ـ ليكن لك استلقاؤك على سريرك رسماً لاستلقائك في قبرك وهكذا تنام يسيرا . وليصر لك تناولك للطعام تذكرة لذلك الدود الأليم الهائل وهكذا تتنعم بالطعام قليلا . ولا تنس عند شربك الماء عطش ذلك اللهيب وهكذا لا ريب تغصب طبيعتك .

١٩ ـ عندما يذلنا رئيسنا ، امتحاناً لنا لا امتهاناً ، او يوبخنا وينتهرنا ، فلنذكر حكم الديان الرهيب وهكذا نبيد بوداعتنا وصبرنا لا محالة كما بسيف ذي حدين الامتعاض والمرارة المتحركين فينا بحماقة .

٢٠ ـ كما انه بمرور الزمن ينفذ ماء البحر على قول ايوب الصديق ، هكذا يتكون فينا ما ذكرناه اعلاه ويتكامل شيئا فشيئا بالصبر ومرور الأيام .

٢١ ـ ليرقد معك ذكر النار الأبدية كل مساء ولينهض معك كل صباح فلن يستولي عليك التواني في اوان التسبيح .

٢٢ ـ ليكن لك زيك على الاقل داعيا الى النوح لأن جميع الذين يندبون موتاهم يرتدون السواد . فان كنت لا تبكي فابك لهذا السبب عينه ، وان كنت تبكي فازدد بكاء لأنك اهبطت ذاتك بزلاتك من رتبة لا تعب فيها الى رتبة متعبة .

٢٣ ـ ان قاضينا العادل الصالح سوف ينظر ولا شك الى طاقتنا في البكاء كما هو الامر في كل ما نعمل . لأني رأيت قطرات دموع يسيرة تُذرف بجهد كنقط الدم ، وابصرت ينابيع عبرات تتدفق بلا جهد . فحكمت بالامر حسب مقدار التعب لا مقدار الدموع . واظن ان الله يحكم كذلك .

٢٤ ـ ان التكلم باللاهوت لا يلائم النائحين لأنه من شأنه ان يلاشي نوحهم فالمتكلم باللاهوت يماثل المتربع على كرسي المعلمين واما النائح فيماثل المقيم في المزبلة واللابس المسح ، واني ارى ان هذا هو معنى جواب داود النبي للذين استخبروه حين كان ينوح اذ قال : « كيف أسبّح تسبحة الرب في ارض غريبة ؟ » اي في بلد الاهواء ، مع ان داود كان معلما وحكيما .

٢٥ ـ من انواع نخس القلب ما يتحرك من ذاته ومنها ما يحركه غيره كما هو الامر في الطبيعة عامة . فاذا صارت نفسنا رقيقة ندية دامعة دون ان نبذل جهدا في سبيل ذلك ودون ان نقصده فلنسرّ فيه قدما لأن ربنا قد وافى الينا دون ان ندعوه واهبا لنا حزنا الهيا في سبيل حبه ومياه راحة اي دموعا خاشعة لأجل محو هفواتنا . فاحفظ هذه الدموع حفظك لحدقة عينك الى ان تتوقف ، فان قوة هذا النوع من البكاء ونخس القلب عظيمة وتفوق قوة البكاء الذي يتكون بجهدنا وتأملاتنا .

٢٦ ـ من يبكي حين يشاء لم يصل بعد الى النوح الصالح ، بل لم يصل اليه ايضا من يبكي للسبب الذي يشاء ، وانما من يبكي كما يشاء الله . كثيرا ما تقترن دمعة العُجب القبيحة بالنوح المرضي لله وسنعرف هذا بالخبرة اذا رأينا ذواتنا نائحين وفي الوقت نفسه مستمرين في عمل الشر .

٢٧ ـ ان نخس القلب الحقيقي هو توجع النفس العادم الافتخار والذي لا تتيح النفس لذاتها فيه اي نوع من السلوى بل تتصور على الدوام مفارقتها للجسد وحسب ، منتظرة تعزية الله المعزي المتضعين انتظار العطشان للماء البارد .

٢٨ ـ ان جميع الذين امتلكوا نوحا قلبيا مقتوا حياتهم عينها كشيء ثقيل متعب ومصدر للدموع والاوجاع ونبذوا اجسادهم نبذهم لعدو .

٢٩ ـ متى عاينّا غيظا وكبرياء في الذين يكون في الظاهر بكاء يرضي الله فلنحسب دموعهم مرفوضة لديه لأنه قيل « أية شركة للنور مع الظلمة » ؟

٣٠ ـ حصيلة النوح المزيف ادعاء وغرور . وحصيلة النوح الحميد سلوة وعزاء .

٣١ ـ كما تبيد النار القصب تبيد الدمعة الطاهرة كل دنس جسدي وروحي .

٣٢ ـ يشير الكثيرون من الآباء الى التباس امر الدموع وصعوبة تمييز نوعيتها

خاصة عند المبتدئين لأنها تنجم عن اسباب كثيرة ومختلفة اعني عن الطبيعة والله والبلايا والعُجب والزنى والحب وذكر الموت وعن اسباب اخرى متعددة .

٣٣ ـ فلنميز اسباب هذه الدموع كلها في ضوء خوف الله ولنجعل لنا دموعا طاهرة نقية تحسرا على آخرتنا فهذه الدموع ليس فيها غرور او غش بل تطهير وتقدم في حب الله وغسل للخطيئة ولاهوى .

٣٤ ـ ليس بعجيب ان تبدأ دموع النوح صالحة وتنتهي فاسدة ، اما ان تبدأ فاسدة او طبيعية ثم تُلقَّح بدموع روحانية فهذا جدير بالثناء حقا . ويعلم هذا الامر جليا الجانحون الى العُجب .

٣٥ ـ لا تركن الى ينابيع دموعك قبل ان تتطهر طهارة تامة لأننا لا نستطيع ان نضمن جودة الخمر ساعة خروجه من القدر .

٣٦ ـ لن ينكر احد ان كافة دموعنا المرضية لله نافعة كل المنفعة ولكننا في وقت خروج النفس فقط نعرف مدى فائدتها لنا .

٣٧ ـ من يقضي ايامه في نوح دائم مرضي لله لن يكف عن التعييد كل يوم ، ومن لا يكف عن التعييد جسدانيا فهو مزمع ان ينوح نوحا ابديا .

٣٨ ـ ليس للمجرمين في السجن فرح ، وليس للرهبان الحقيقيين على الارض عيد . ولعله لأجل هذا قال ذاك التائب البار متنهدا « أخرج من الحبس نفسي »[1] لكي ابتهج بنورك الذي لا يوصف .

٣٩ ـ اقبع في قلبك بتواضع وكن متساميا كملك ، تقول للضحك اذهب فيذهب وللبكاء الحلو تعال فيأتي وللجسد العبد المتسلط اعمل هذا فيعمل .

٤٠ ـ من تسربل النوح المغبوط ، المنعم به عليه كحلة عرس ، عرف ضحك النفس الروحاني .

٤١ ـ تُرى من هو الذي أمضى زمانه كله في السيرة الرهبانية بخوف الله حتى انه

---

(١) مز ١٤١ : ٧ .

ما خسر قط يوما او ساعة او لحظة واحدة، بل صرف اوقاته كلها في إرضاء ربه حاسبا انه لن يجد ثانياً لذلك اليوم في عمره؟

٤٢ ـ مغبوط هوالراهب القادر ان يشخص بعيني نفسه الى القوات الملائكية، ولكن من يبلّ خديه بالمياه الحية ذاكرا على الدوام موته وسقطاته يُعتق من السقوط حقا. ولا يعسر علي ان اصدق ان اصحاب الرتبةالاولى قد سلكوا اولا سبيل الرتبة الثانية.

٤٣ ـ لقد رأيت فقراء ومتسولين جسورين قد استمالوا سريعا بالفاظهم المنمقة الرقيقة حتى قلوب الملوك الى التحنن عليهم. ورأيت فقراء معوزين في الفضائل يصيحون الى الملك السماوي ليس بألفاظ منمقة بل بأقوال ذليلة مبهمة-حائرة تخرج من اعماق قلب يائس بجسارة ولجاجة فاغتصبوا تحننه بإلحاحهم وهو المتحنن بالطبع ولا يُغتصب.

٤٤ ـ من يفتخر بدموعه ويلوم في قلبه الذين لا يبكون يشبه من يطلب من الملك سلاحا لمحاربة اعدائه ويقتل به نفسه.

٤٥ ـ لا يحتاج الله يا احبة ولا يريد ان يبكي انسان ويتوجع بل يشاء بالاحرى ان يبتهج بحبه ويتهلل. أزلْ يا هذا الخطيئة فتصير الدمعة الموجعة في الاعين الحسية فضلة زائدة، لأنه لا حاجة الى تنظيف حيث لا يوجد جرح. لم يكن لآدم دموع قبل المعصية، ولن تكون دموع بعد القيامة، حيث تكون الخطيئة قد أبيدت وزال معها الوجع والغم والتنهد.

٤٦ ـ رأيت عند البعض نوحاً وعند غيرهم نوحاً لافتقارهم الى النوح، ومع انهم يكون كانوا كمن لا يكون، ولعدم علمهم بتوجع قلبهم استمروا فيه مصونين. فهؤلاء هم الذين قيل فيهم «الرب يحكّم العميان»[٢].

٤٧ ـ كثيرا ما تؤول الدمعة بذوي الخفة الى التكبر، ولهذا السبب لا تعطى لبعض الناس، حتى يندبوا حظهم لحرمانهم منها ويتغوها وهم يوجبون اللوم على انفسهم في حسرة واكتئاب ،متألمين، وواجمين، حيارى، فان هذه الاتعاب تقوم لهم

---

(٢) مز ١٤٥ : ٨.

مقام الدمعة خلواً من خطر التكبر وإن كانوا لا يحسبونها شيئا ، الامر الذي هو موافق لهم .

٤٨ ـ اذا رصدنا الشياطين بعناية فكثيرا ما نجدهم يسخرون بنا ، لأنهم اذا شبعنا يخشّعون قلوبنا واذا صمنا يقسّونهاوذلك لكيما ننخدع بالدموع الزائفة ونستسلم للتنعم الذي هو ام الاهواء ، فينبغي عدم الانقياد لهم بل العمل بالاحرى بخلاف إيحائهم .

٤٩ ـ انني أنذهل لما افكر في خاصية نخس القلب كيف يدعى نوحا وحزنا بينما يحوي معهما الفرح والسرور على مثال ما يحوي الشهد العسل متداخلين ومتمازجين . فماذا نتعلم من ذلك ؟ ان نقر بأن مثل هذا النخس هو موهبة من الرب حقا ، وانه ليس في النفس عند ذلك فرح خال من الفرح الحقيقي لأن الله انما يعزّي منسحقي القلوب بصورة سرّية . هذا ولكي نستدعي الينا نوحاً صريحاً وحزناً مجدياً فلنسمعن الآن حديثاً شجياً ونافعاً للنفس .

٥٠ ـ كان المدعو اسطفان ساكناهنا معتنقا العيشة التوحدية الهادئة وكان قد امضى في عراك الحياة الرهبانية المشتركة مدة كافية متحليا حقيقة بإصوام ودموع وفضائل اخرى متميزا بها على غيره ومتفوقا ، فاقتنى اولا قلاّية في منحدر النبي الياس من هذا الجبل المقدس ، وبعد ذلك توخى توبة اكثر جلاء ومشقة فقصد مكان المتوحدين المسمى سيدين ولبث هناك عدة اعوام في أضيق واشد ما يكون من سيرة النسك ، اذ كان ذلك المكان خالياً من كل تعزية ، وعر السبيل وغير مسلوك من الناس، بعيدا عن الحصن حوالي سبعين ميلا . ثم في اواخر حياته رجع الى قلايته الاولى التي كان يحفظها تلميذان له في الجبل المقدس ورعان جدا من سكان فلسطين . ولم يقم عندهما الا اياما قليلة حتى مرض مرضا اودى به الى الموت . وقبل موته بيوم واحد اختُطف عقله ، وعيناه مفتوحتان ، فصار يتطلع الى يمين سريره ويساره . ثم سمعه جميع الحاضرين عنده يقول تارة ، وحاله حال من يحاسبه المحاسبون : « نعم هذا بالحقيقة صحيح الا انني قد صمت من اجله سنين كثيرة » ، وتارة اخرى : « كلا لقد كذبتم فهذا لم اعمله قط » . ثم قال ايضا : « نعم هذا صحيح ، نعم ، ولكني بكيت من اجله ، وخدمت الاخوة » . ثم قال من جديد : «قد تجنّيتم عليّ حقاً» . ثم اجاب عن ذنب لم يذكره :

« نعم بالحقيقة نعم ، وليس لي ما اجيب عن ذلك ، ولكن الله رحيم ». فكان هذا الحساب الصارم غير المنظور مشهداً رهيباً هائلا! والأمر الاشد هولاً انهم كانوا يتهمونه بما لم يفعل . يا للعجب ! ان الناسك المتوحد الصامت قال عن هفوة من هفواته « ليس لي ما اجيب عنها » ، مع انه اكمل اربعين سنة في الرهبانية واقتنى موهبة الدموع . ويلي ويلي ! أين كان حينئذ قول حزقيال النبي القائل : « في الحال التي أجدك فيها أحكم بها عليك »[٣] ؟ ولكنه لم يستطع ان يتذرع بمثل هذا ، فلماذا ؟ المجد للذي وحده يعلم . ولقد اخبرني عنه اناس ، صادقين ، انه اطعم فهداً بيده في البرية . هذا وقد فارق جسده اثناء هذا الحساب ولم يشر الى الحكم الصادر بحقه ولا الى مصيره ونتيجة محاسبته .

٥١ ـ كما ان الارملة التي فقدت رجلها وبقي لها منه ابن وحيد لا يكون لها عضد بعد الرب سواه، كذلك النفس التي سقطت ليس لها عضد عند الوفاة سوى اتعاب اصوامها ودموعها .

٥٢ ـ ومن هذه حالهم لا يرتلون ابدا ولا يرفعون اصواتهم في تسابيحهم لأن هذا يفقدهم نوحهم . فان قصدت بالترتيل استدعاء النوح اليك فالنوح لا يزال بعيدا جدا عنك لأنه وجع متأصل في قلب يلتهب .

٥٣ ـ لقد صار النوح للكثيرين مدخلا للاهوى فهياً فيهم موضعا له وثبّت دعائمه ، مبيداً مادة الإثم .

٥٤ ـ حدثني راهب مجاهد قد خبر هذا النوح الجليل فقال : كثيرا ما هممت ان اجنح الى عُجب او غيظ او شراهة ، فكان فكر النوح يحذرني في داخلي قائلا : لا تتباه، او لا تغتظ، او لا تشبع، والا فارقتك. فكنت اجيبه: لن أخالفك البتة حتى توقفني في حضرة مسيحي .

٥٥ ـ ان لجة النوح عاينت تعزية ، ونقاوة القلب اقتبلت إشراقا . والإشراق فعلٌ لا يوصف ، تفطن له دون ان تفقهه ، وتعاينه دون ان تبصره حسّياً . والتعزية راحة لنفس متألمة حالها حال طفل باكٍ يتهلل . فان أجر النوح تجديد نفس غارقة في

---

(٣) حز ٧ : ٣ .

الغم يتحول دمعها المؤلم الى دمع مفرح بصورة عجيبة .

٥٦ - الدموع الناتجة عن ذكر الموت تولّد الخوف ، واذا ولد الخوف الاطمئنان أشرق الفرح ، واذا هدأ هذا الفرح واستمر ثابتا أينعت زهرة الحب المقدس .

٥٧ - ارفض الفرح الوارد اليك ورودا عابراً وردّه بيد التواضع كأنك غير اهل لـه لئلا تكون سريع الاقتبال فتستقبل عوض الراعي ذئباً.

٥٨ - لا تسرع وراء معاينة الامور الالهية في غير وقتها لكيما تسعى هي وراء حسن تواضعك وتقترن بك بعرس كلي الطهر الى دهر الداهرين.

٥٩ - حالما يبدأ الطفل ان يعرف اباه يمتلىء فرحا بجملته . ولكن اذا غاب ابوه عنه سياسة منه برهةً من الزمن ثم حضر اليه يمتلىء الصبي فرحا وحزنا معا . اما الفرح فلأنه شاهد من اشتاق اليه واما الحزن فلأنه حرم حلاوة هذا الوصال الجميل خلال تلك البرهة من الزمن . والأم ايضا تحتجب عن طفلها فاذا رأته يطلبها متوجعا تفرح معلّمة اياه بذلك ان يلازمها دائما وان يضرم حبه لها إضراماً شديدا . وقد قال الرب : « من له اذنان للسمع فليسمع » .

٦٠ - ان الذي سمع صدور الحكم عليه بالاعدام لن يهتم فيها بعد بادارة المسارح مثلاً، وكذلك النائح الصادق لن يعير اي التفات الى تنعم او مجد باطل او غيظ وغضب. فالنوح ألم يتأصل يوما بعد يوم في نفس تائبة تزيد على وجعها اوجاعا كالمرأة الحامل عند المخاض.

٦١ - الرب عادل وبار يمنح الصامت الهادىء توجعا والمطيع الصادق سرورا . ومن لا يسلك باخلاص احدى هاتين الطريقتين يحرم من النوح .

٦٢ - اطرد الكلب الذي يوافيك في أحلك حالات النوح موحياً اليك ان الله غير متحنن ولا متعطف . فانك ان رصدته تجده يسمّيه قبل الخطيئة محبا للبشر ومتعطفا متسامحا .

٦٣ - الممارسة تولّد المثابرة وهذه تؤول الى الاحساس . وما يُعمل باحساس يصعب انتزاعه .

٦٤ ـ مهما عظمت سيرتنا وممارساتنا الرهبانية فان لم نمتلك قلبا متوجعا تحسب اعمالنا فاسدة زائفة . لأنه لا بد قطعا للذين تدنسوا بعد حميم المعمودية ان يتطهروا ويزيلوا الزفت عن ايديهم ، اذا جاز القول ، بنار توبة قلبية متواصلة وبزيت الله .

٦٥ ـ رأيت عند البعض نوحا فائق الحد اذ شاهدتهم يسكبون من فمهم سكبا محسوسا دم قلبهم المجروح من الألم ، فتذكرت القائل : « ذويت كالعشب ويبس قلبي »[٤] .

٦٦ ـ دموع الخوف تصون ذاتها بذاتها . اما دموع المحبة فلعلها تُسلب بسهولة من البعض قبل اكتمال المحبة . الا اللهم اذا كان ذكر النار الابدية يلهب القلب كليا حين ذرفها . ومما يعجب له ان الدموع الاكثر تواضعا هي الاكثر ثباتا في اوانها .

٦٧ ـ هناك اهواء تجفف ينابيع الدموع واهواء اخرى تلد فيها الحمأة والوحوش ، فبالأولى اقترن لوط بابنتيه سفاحا ، وبالثانية هبط ابليس ساقطا .

٦٨ ـ كثير هو خبث اعدائنا حتى انهم يحوّلون امهات الفضائل الى امهات للرذائل ويجعلون من اسباب التواضع اسباباً للكبرياء . فكثيرا ما يكون المكوث في القلاية والتأمل في عزلة البرية مدعاة لنخس القلب ، ويقنعك بذلك يسوع وايليا ويوحنا الذين كانوا يصلّون على انفراد . ولكني رأيت مراراً كثيرة دموعاً تفيض وسط المدن وجلباتها وذلك لكيما يتوهم البعض أنهم لا يتأذون منها فيقتربون من العالم . لأنه هذا هو بالضبط قصد الشياطين الاشرار .

٦٩ ـ كثيرا ما لاشت النوح كلمة واحدة ولكن من العجب ان تعود فتسترجعه كلمة واحدة .

٧٠ ـ لن نلام يا اخوة عند خروجنا من الدنيا على عدم اجتراحنا للعجائب او عدم تكلمنا باللاهوت او عدم معاينتنا للرؤى ، لكننا سنؤدي حسابا لله بالتأكيد عن اننا لم نبك دون انقطاع .

هذه درجة سابعة من استحقها فليسعفني لأنه قد أُسعف ، ما دام فيها قد غسل عنه اوساخ هذا الدهر .

---

(٤) ١٠١ : ٤ .



المقالة الثامنة

في الوداعة وعدم الغيظ

١ ـ كما أن سكب الماء على النار بتواتر يخمد لهيبها ، كذلك فإن دمعة النوح الصادق تطفىء كل لهيب الغضب والحدة . ولذا رتّبنا الوداعة وعدم الغيظ بعد النوح .

٢ ـ عدم الغيظ هو اشتهاء للهوان دون شبع كارتياح المعجبين إلى المديح دون حد. عدم الغيظ هو انكسار طبيعتنا وعدم احساسها بالشتائم ، تبلغه بالاتعاب والاعراق .

٣ ـ الوداعة هي سكون النفس وتقبُّلها للاهانات والكرامات بحال واحد على السواء .

٤ ـ ابتداء عدم الغيظ صمت الشفتين مع اضطراب القلب . ووسطه صمت الأفكار مع اضطراب نفسي خفيف . أما كماله فسكون راسخ وسط هبوب رياح نجسة .

٥ ـ الغيظ استمرار لبغض مكتوم ، اعني به تذكّر الإساءات . الغيظ هو ابتغاء الأذى لمن اغاظنا . الحدة توقّد عابر للقلب ، والمرارة امتعاض مستقر في النفس . الغضب سريع يغيّر الطباع ويقبّح النفس .

٦ ـ كانكفاء الظلام عند ظهور النور كذلك يتلاشى كل سخط ومرارة من شذا التواضع .

٧ ـ إن بعض الناس السريعي الغضب يتوانون في مداواة هذا الداء . ولا ينصت اولئك الأشقياء إلى قول القائل : «إن نزوعه إلى الغضب يسقطه»[١] .

٨ ـ لعل حركة رحى سريعة تسحق وتبيد حنطة النفس وثمرة حياتها في لحظة

(١) ابن سيراخ ١ : ٢٢ .

واحدة أكثر ما تفعله غيرها في يوم كامل . فلنتنبه إذاً لذواتنا ونحترس . فقد يشتعل لهيب في حقل القلب فجأة تضرمه فيه ريح شديدة فيحرقه ويبيده أكثر من لهيب مزمن .

٩ ـ لا ننس يا اخوة أن الشياطين الأشرار يتنحون عنا احياناً حتى نهمل مجاهدة اهوائنا الكبيرة باعتبارها صغيرة فنمسي سقماء لا شفاء لنا .

١٠ ـ كما تتفتت حدة زوايا حجر صلب بمقارعته حجارة اخرى وتقلّبه معها فتزول خشونته ويصبح مدوراً ، هكذا فإن نفساً فظة حادة الطباع ، إذا خالطت اناساً قاسين ونزقين إلى الغاية وعايشتهم ، تكابد أحد أمرين : إمّا يشفي جرحها بصبرها او تنصرف هاربة فتعرف على كل حال ضعفها ، إذ إن انصرافها يُظهر لها جبنها كما في مرآة .

١١ ـ الغضوب هو المصروع طوعاً الذي يسقط ويتمزق باختياره سلفاً .

١٢ ـ لا شيء يعيق التائبين كاضطراب الغضب لأن التوبة تحتاج إلى تواضع جزيل بينما الغضب دلالة على الغرور .

١٣ ـ إن كانت علامة منتهى الوداعة أن يكون المرء محباً ساكن القلب نحو من يثيره حتى في حضرته فلا ريب أن علامة حدة الطبع هي أن يقوم المرء وحده وفي غياب من أسخطه بمقاتلته بأقواله وحركاته ويستشيط غيظاً عليه .

١٤ ـ إن كان الروح القدس هو سلام النفس كما يُعرف عنه وكما هو في الحقيقية ، وكان الغيظ هو اضطراب القلب كما يقال عنه وكما هو في الواقع ، فلا شيء يحجز ورود المعزي الينا مثل الغضب .

١٥ ـ نعرف جماً غفيراً من اولاد الغضب العسرين الشكسين ولكننا وجدنا له ولداً كرهياً واحداً نافعاً بالرغم من أنه نغل . فقد رأيت اناساً التهبوا حنقاً جنونياً وقذفوا إلى الخارج الحقد المزمن المعشش فيهم فتخلصوا هكذا من هوى بهوى آخر وحصلوا ممن استثاروا وغرهم المزمن على توبة او استرضاء . وشاهدت آخرين خزنوا بصمتهم حقداً في داخلهم من خلال طول أناة ظاهرة كاذبة فعددتهم اشقياء أكثر من الذين يحتدمون غضباً جنونياً ، كونهم طردوا الحمامة البيضاء بظلمة سوداء . فعلينا أن نحترس من هذه الافعى احتراساً جزيلاً لأنها على مثال النجاسات الجسدية تستنجد بطبيعتنا .

١٦ ـ أبصرت اناساً اغتاظوا فامتنعوا عن تناول الطعام من جراء تمرمرهم فازدادوا بامتناعهم الغبي هذا سماً فوق سم . ورأيت آخرين تذرعوا بالغضب باطلاً ليستسلموا إلى الشراهة فهووا من حفرة إلى هوة سحيقة . ورأيت اناساً غيرهم عقلاء قد مزجوا الصنفين معاً كأطباء حاذقين . فانتفعوا منفعة كبيرة من تعزية جسدهم تعزية خفيفة .

١٧ ـ الترتيل المعتدل يخفض جناحي الغضب احياناً خفضاً بليغاً . ولكنه احياناً اخرى يثير حب اللذة إذا تجاوز الاعتدال أو استُعمل في غير وقته . فلنختر له بالتالي وقتاً ملائماً وهكذا نحسن استعماله .

١٨ ـ اتفق أن كنت جالساً مرة خارج قلايات اناس متوحدين فسمعتهم يقاتلون بصوت عال من أغاظهم وهم لوحدهم في قلاياتهم مثل حجال محبوسة في قفص ومن جراء مرارتهم وغيظهم يهاجمونه كما لو كان حاضراً . فنصحتهم حباً بالله أن يتركوا عزلتهم لئلا يتحولوا من بشر إلى شياطين . ولما رأيت اناساً قلوبهم فاسقة نتنة وهم ودعاء مجاملون بل متملقون في ودهم للأخوة ، حثثتهم على سلوك حياة العزلة والسكون كدواء قاطع للفسق والنتن وذلك لئلا ينتقلوا انتقالاً يرثى له من طبيعة ناطقة إلى طبيعة بهيمية . ولكن لما قال لي البعض أنهم ينزعون على وجه محزن إلى الغضب والفسق معاً حظرت عليهم كلياً أن يستقلوا في عيشهم وأشرت حبياً على رؤسائهم أن يسمحوا لهم باتّباع سيرة العزلة حيناً وسيرة الطاعة حيناً آخر على أن يكونوا في كلتا الحالتين خاضعين خضوعاً كلياً لرئيسهم ومرشدهم . إن محب اللذة إنما يفسد ذاته ، ولربما يفسد بعضاً من مساريه . أما الغضوب فهو بمثابة ذئب يزعج الرعية كلها ويُعثر نفوساً كثيرة ويثبط عزمها .

١٩ ـ إن تكدُّر عين القلب من الغيظ ، حسب قول القائل : «تكدرتْ من الغيظ عيني»[٢] ، هو امر صعب . ولكن الأصعب منه اظهار ثورة النفس بالشفتين . أما اظهاره باليدين فهو أمر مناف للسيرة الرهبانية الملائكية وغريب عنها بالكلية .

٢٠ ـ إن توخيتَ أن تستخرج قذى من عين غيرك وبالأحرى إن خُيِّل إليك ذلك لا تستعمل عوض الميل خشبة فتزداد القذى اختراراً . إن الخشبة هي ألفاظ ثقيلة

---

(٢) مز ٦ : ٧ .

وأشكال فظة . والميل هو تعليم وديع وزجر بطول أناة إذ قال : «وبخهم ، انتهرهم ، عظهم»[٣] ولم يقل «اضربهم» . فإن لزم الضرب فليكن نادراً وليس بذاتك .

٢١ ـ إذا ترقبنا الغضوبين رأينا الكثيرين منهم يمارسون الصوم والصمت بنشاط وهمة . لأن غاية الشيطان أن يوحي لهم ، بحجة التوبة والنوح ، تلك الممارسات التي تعمل على استفحال هواهم .

٢٢ ـ إن كان ذئب واحد يستطيع بمساعدة الشيطان أن يزعج القطيع كله ، كما ورد آنفاً ، فلا شك أن أخاً واحداً يتميز بالحكمة يستطيع بمنزلة زق مملوء من الزيت أن يسكّن به الأمواج بعون الملائكة وينقذ السفينة . وبقدر ما يدان الاول بشدة ينال الثاني ثواباً عظيماً من الله ويصير للجميع رسماً للمنفعة .

٢٣ ـ ابتداء الصبر على الضيم احتمال الإهانات بمرارة وحزن . ووسطه عدم الاغتمام لها . وكماله ، إن أمكن ، حسبانها ثناء . الاول فليتعزَّ والثاني فليتقوَّ ، أما الثالث فمغبوط إذ يبتهج بالرب .

٢٤ ـ لاحظت عند الغضوبين امراً يرثى له يعرض لهم من جراء غرورهم الخفي . فإنهم يغضبون بسبب انغلابهم للغضب ، فتعجبت إذ شاهدت سقطة يعاقَب عليها بسقطة . وحين رأيتهم هكذا ينتقمون من خطيئة بفعل خطيئة أخرى اشفقت عليهم وارتعبت لمكر الشياطين وكدت أيأس من حياتي .

٢٥ ـ من لاحظ أنه يُغلب بسهولة من الغرور وحدة الطبع والخبث والمراءاة ورأى أن يستل سيف الوداعة وطول الأناة ذا الحدين على هذه الاهواء للتحرر منها تحرراً كاملاً ، فليذهب إلى جماعة من الاخوة فظين للغاية فيكونوا له بمثابة قصارين لاجل خلاصه ، حيث بفعل الشتائم الوافرة وفيض الإهانات يُدق ويوطأ روحياً بل لعله يلطم ويُضرب ويداس جسدياً فيغسل الوسخ المستقر في نفسه . وليقنعك بفعالية هذا العلاج المثل العامي القائل بأن التعيير هو غسل لأهواء النفس ، إذ اعتاد قوم من أهل العالم ، إذ ما رشقوا أحداً بسبابهم في وجهه ، أن يتباهوا بذلك قائلين «إننا غسلنا فلاناً» . وهذا القول صدق .

---

(٣) انظر ٢ تي : ٤ : ٢ .

٢٦ ـ إن عدم الغيظ الذي يبلغه المبتدئون من جراء النوح على خطاياهم هو غير سكينة الكاملين . فالاول مربوط بدمعة بمنزلة لجام يضبطه ولكن الثانية ناتجة عن عدم الهوى الذي يذبح الغيظ ذبح السكين للأفعى .

٢٧ ـ رأيت ثلاثة رهبان أُهينوا إهانة واحدة فالاول لسعه الهوان فاضطرب ولكنه سكت ، والثاني فرح بالأجر الحاصل لنفسه ولكنه اغتم من أجل شاتمه ، والثالث تصور مضرة قريبه فبكى بكاء حاراً . فكان الناظر اليهم يشاهد فعل كل من الخوف والثواب والمحبة .

٢٨ ـ كما أن حمى الجسد واحدة ولكن عللها كثيرة ، كذلك فإن اسباب غليان غضبنا وربما أسباب إثارة سائر اهوائنا كثيرة ومختلفة ، ولذا يتعذر تعيين قياس واحد لها . بل اشير على كل مريض أن يبذل قصارى جهده في البحث بعناية عن العلاج الخاص به . إن فاتحة المعالجة هي معرفة علة الوجع ، فعندما تُكتشف العلة يُسعف المرضى بالعلاج الملائم لهم من قبل الأطباء الروحانيين والعناية الالهية . وعلى سبيل المثال فليعمد الراغبون في الاشتراك معنا بالرب إلى مشاهدة محاكمتنا للغيظ فيما يلي محاكمة روحية ثم التدقيق على منوالها في الأهواء الأخرى المذكورة آنفاً لمعرفة أسبابها ، على ما في الأمر من غموض .

٢٩ ـ فليُربط الغضب الطاغي إذاً بعقالات الوداعة ويُضرب بطول الاناة ويُجرّ إلى المحاكمة بالحب المقدس ، ومتى مثل أمام محكمة العقل فليُسأل عن ذويه بتدقيق هكذا : «قل لنا أيها الغيظ الحقير الأحمق اسماء ابيك الذي أوجدك وأمك التي ولدتك سفاحاً وبنيك وبناتك النجسين بل أوضح لنا أيضاً صفات الذين يحاربونك ويميتونك . فيجيبنا على ما أظن هكذا قائلاً : «والداتي كثيرات وأبي غير واحد . امهاتي هن الخيلاء ومحبة المال والشراهة ، والزنى أيضاً أحياناً . ووالدي يدعى الصلف ، وبناتي هن العداوة والضغينة والمحاججة والبغضاء . والذين يقاومونني وقد قيدوني الآن كما ترون هم الفضائل المضادة لها اعني السكينة والوداعة ، والذي يغتالني يدعى التواضع . أما من الذي ولد ذاك فاسألوه هو في فرصة مناسبة .

هذه درجة ثامنة رُتب لها اكليل عدم الغيظ فمن ناله من يد الطبيعة قد لا يلبس سواه . ومن لبسه باعراقه فقد تخطى الرذائل الثمانية بجملتها .



المقالة التاسعة

في الحقد

١ ـ إن الفضائل الجليلة تشبه سلم يعقوب ، والرذائل الذميمة تشبه السلسلة التي وقعت عن يدي بطرس الهامة . لأن الفضائل تقود من يختارها ويتبعها الواحدة تلو الأخرى وتصعد به إلى السماء ، أما الرذائل فتلد الواحدة الأخرى وتتصل كلها معاً على نحو السلسلة . لذلك ولما كان الغضب الأحمق قد قال الآن على مسامعنا أن الحقد هو ولد له ، رأينا أن نتكلم عنه الآن بحسب ترتيبه .

٢ ـ الحقد ثمرة الغضب وادّخار للخطايا ومقت للبر واضمحلال للفضائل وسم للنفس ودودة للعقل وخزي للصلاة وقطع للتضرع واغتراب عن المحبة ومسمار مبجن في النفس ومرارة محبوبة وخطيئة مستمرة ومعصية لا تنام وشر قائم في كل ساعة .

٣ ـ هذا الداء المظلم الخفي أعني الحقد ، هو من الأهواء المولودة لا الوالدة ولهذا لا نشاء أن نطيل الكلام عنه.

٤ ـ من سكّن غيظه أبطل حقده . لأن البنين يولدون ما دام الوالد حياً .

٥ ـ من اقتنى المحبة فقد أقصى الحقد ومن يرعى العداء يجمع لنفسه مشاقاً باهظة .

٦ ـ وليمة محبة تلاشي البغض ، والهدايا الخالصة ترضي النفس ، ولكن الوليمة الخالية من الاحتراس تولّد الدالة ، ومن نافذة المحبة تدخل الشراهة .

٧ ـ شاهدت نفوراً قطع وصال زنى مزمن ثم تولى الحقد بصورة غير متوقعة منع تجدد الوصال المنقطع . فكان ذلك منظراً عجيباً : شيطان يشفي شيطاناً ! ولعل هذا من فعل العناية الالهية وليس من فعل الشياطين .

٨ - الحقد بعيد عن المحبة الطبيعية الثابتة ولكن الزنى يلاصق.هذه المحبة بأيسر مرام كما يلحظ في الحمامة قمل خفي .

٩ - إن حقدت فاحقد على الشياطين وإن عاديت فعاد جسدك كل حين ، فإن الجسد صديق غاش عنيد ، بقدر ما تراعيه يؤذيك .

١٠ - الحقد معلم يشرح الكتاب باستياق أقوال الروح إلى وجهة نظره . فلتخزه صلاة يسوع التي لا نستطيع أن نصليها ونحن حاقدون .

١١ - متى جاهدت كثيراً وما تمكنت من نزع هذه الشوكة كلياً تب إلى خصمك ولو بفمك فقط حتى إذا خجلت من مراءاتك له طويلاً وقرّعك ضميرك مثل النار تحبه حباً كاملاً .

١٢ - اعلم أنك قد تخلصت من تقيّح الحقد لا إذا صليت من أجل من كدّرك أو بادلته الهدايا أو دعوته إلى مائدتك ، بل إذا سمعت أنه قد مني ببلية ، جسدية كانت أم روحية ، فتوجعت له كما تتوجع لنفسك وبكيت على مصابه .

١٣ - متوحد حقود أفعى في وكرها ، حاملة سماً مميتاً في ذاتها .

١٤ - إن ذكر آلام يسوع يشفي النفس الحاقدة ، وذلك لشدة خجلها من طول أناته .

١٥ - يتولد الدود في الخشبة المنخورة ، وتلتصق الضغينة بالوادعين والصموتين الزائفين ، فمن طرح الضغينة وجد الغفران ومن تمسك بها حرم الرحمة .

١٦ - لقد كابد البعض اتعاباً واعراقاً لينالوا صفح الخطايا ، لكن العادمي الحقد سبقوهم إليه ، ما دام هذا القول صادقاً : «اصفحوا يصفح لكم بسعة»[1] .

١٧ - عدم الحقد دلالة على التوبة الصادقة . أما من يحفظ العداوة ويظن أنه تائب فهو شبيه بمن يخيل إليه أنه يعدو وهو نائم .

---

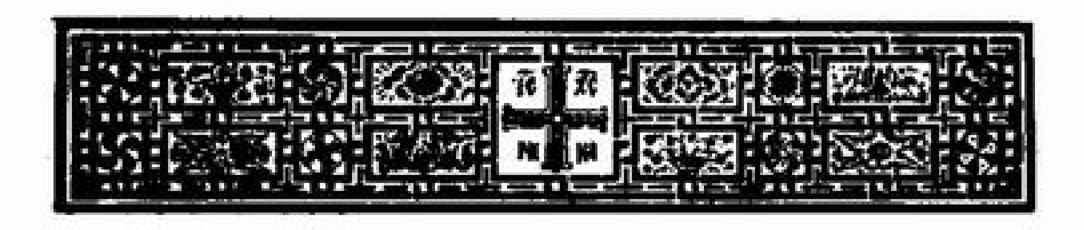
(١) انظر لو ٦ : ٣٧ .

١٨ ـ رأيت حقودين قد نصحوا آخرين بالتسامح فخجلوا من أقوالهم وكفوا عن حقدهم .

١٩ ـ لا يتوهمن أحد أن هذا الهوى المظلم هين ضعيف ، فإنه كثيراً ما يصيب حتى الرجال الروحانيين .

هذه درجة تاسعة من أدركها فليطلب بدالة من الرب المخلص حلاً لسائر زلاته .





المقالة العاشرة

في الوقيعة

١ ـ لن يخالفني أحد من العقلاء ولا ريب في أن المقت والحقد يولدان الوقيعة ، ولذا يأتي ترتيبها بعد ابويها .

٢ ـ الوقيعة وليدة المقت ، وداء دقيق ، وعلقة غليظة متسترة تمتص دم المحبة وتجففه ، ومراءاة بالحب ، وعلة لدنس القلب وثقله ، وإبادة للعفة .

٣ ـ كما توجد جَوارٍ يفعلن الفحشاء بلا خجل وتوجد غيرهن يعملن أقبح منهن في الخفاء وبخجل كبير ، كذلك بين أهواء الهوان من هن في الظاهر عذارى أمثال المراءاة والخبث والغم والحقد والوقيعة . هذه كلها تبدي شيئاً في الظاهر ولكنها ترمي في الحقيقة إلى شيء آخر .

٤ ـ سمعت اناساً يغتابون غيرهم فانتهرتهم ، فأجابوني محتجين بأنهم إنما يفعلون لمحبتهم واهتمامهم بمن يغتابون ، فرددت عليهم : أبطلوا مثل هذه المحبة لئلا تكذبوا القائل : «وطردت عني المغتاب لجاره في الخفاء»[1] . إن كنت تحب انساناً كما تقول فصلِّ من أجله خفية ولا تسخر به ، فهذه هي المحبة المقبولة عند الرب . ولن اخفي عنك أن يهوذا كان من مصف التلاميذ واللص من مصف المجرمين ويا للعجب كيف تحوّلا في لحظة واحدة حاسمة ! فاحترس إذاً ولا تدن البتة من يَزِلّ .

٥ ـ من يشاء أن يغلب روح النميمة فلا ينسبن الملامة إلى من يَزِلّ بل إلى الشيطان الذي يوحي ، لأنه لا يوجد انسان يريد أن يخطأ حقيقة إلى الله ـ بالرغم من أننا نخطأ جميعاً دون أن نكون مجبرين على ذلك .

٦ ـ رأيت رجلاً خطىء علانية وتندم سراً فالذي حكمت عليه بأنه زان حُسب

---

(١) مز ١٠٠ : ٥ .

عند الله عفيفاً لأنه استرضاه بتوبة صادقة .

٧ ـ لا تستح ابداً ممن يختاب لديك قريبه بل قل له : «كفّ يا اخي فاني اقع كل يوم في زلات اصعب ، فكيف يمكنني أن احكم على ذاك؟ فإنك ستجني بهذا الضماد فائدتين : تشفي نفسك ونفس قريبك . وهذه من أقصر الطرق الموصلة إلى غفران الزلات ، اعني ألا ندين احداً ، وذلك حسب القول الصادق : «لا تدينوا كيلا تدانوا»[٢] .

٨ ـ كما أن الماء غريب عن النار كذلك الادانة غريبة عمن يريد أن يتوب . ولو عاينت انساناً يخطأ في وقت خروجه من الدنيا فلا تدنه حتى في ذلك الوقت ، لأن حكم الله مجهول عند الناس ، وقد وقع اناس في خطايا عظيمة علانية ولكنهم عملوا سراً اعمالاً صالحة أعظم منها ، فضل الساخرون إذ تمسكوا بدخان السقطة بدلاً من شمس التوبة .

٩ ـ إسمعوا لي اسمعوا يا معشر الأشرار الذين يحاسبون الآخرين : إن كان القول صادقاً وهو كذلك أنه: «بالدينونة التي بها تدينون تدانون»[٣] فلا شك أننا سنسقط في الزلات عينها التي لمنا قريبنا عليها ، جسدية كانت أم نفسية . وهذا لا محالة .

١٠ ـ إن هذا الأمر يعرض للذين يحاسبون القريب عن هفواته بدقة وقسوة لأنهم لم يبحثوا عن زلاتهم بحزم واهتمام ولا أمعنوا في ذكرها كلها كما هي . إن من يعاين سيئاته بدقة دون أن يحجبها عنه حجاب حب الذات لن يهتم فيما بعد بشيء آخر في الدنيا ، بل يحسب أن عمره كله لن يكفيه للنوح على ذاته ولو عاش مائة سنة أو ابصر نهر الاردن يجري من عينيه دموعاً . وقد تصفحت النوح فلم أجد فيه أي أثر للوقيعة أو للادانة .

١١ ـ إن الشياطين ، قاتلي البشر ، يدفعوننا إما إلى أن نخطأ وإما ، إذا لم نذعن لهم ، إلى ادانة الذين يخطأون لكيما على كل حال يدنسونا .

١٢ ـ إعلم أنه من العلامات الدالة على الحقودين الثالبين أنهم غائصون بحال

---

(٢) لو ٦ : ٣٧ .

(٣) متى ٧ : ٢ .

يرثى لها في روح المقت فيذمون وينقدون بارتياح وبأيسر مرام تعاليم قريبهم أو أعماله أو فضائله .

١٣ ـ رأيت البعض يقترفون سراً وخفية خطايا فظيعة ، ونظراً لما كان يتوهمه الناس من طهارتهم الفائقة كانوا يحتقرون جهراً ويهاجمون بقسوة الذين يذنبون ذنوباً صغيرة .

١٤ ـ إن إدانة الآخرين اختلاس وقح لمقام الله ، والحكم عليهم هلاك للنفس .

١٥ ـ كما أن الغرور يستطيع أن يهلك صاحبه دون أي هوى آخر كذلك فإن عادة الإدانة قادرة بمفردها على أن تهلكنا هلاكاً كاملاً ما دام قد قضي على الفريسي بسببها .

١٦ ـ إن قاطف العنب النبيه يأكل البالغ منه ولا يكترث للحصرم . وكذلك العقل الفطن الحصيف يبادر إلى التشبه بالفضائل التي يبصرها في الناس . أما العادم الفطنة فيفحص عن المذمات والنقائص ، وفيه قد قيل : «تفحصوا اثماً وبادوا إذ هم يفحصون»[٤] .

١٧ ـ لا تدنْ احداً ولو رأيت بعينيك ، فانهما كثيراً ما تخدعانك .

هذه درجة عاشرة يعلوها من يمارس الحب أو النوح .

---

(٤) مز ٦٣ : ٦ .



المقالة الحادية عشرة

في إكثار الكلام وفي الصمت

١ ـ ذكرنا فيما سلف من كلامنا أن اغتياب الآخرين داء خطر جداً وانه يتسرب حتى إلى الذين يظنون أنفسهم فاضلين ولكن لسانهم يدينهم ويؤدبهم . والآن لنتكلم قليلاً عن علة هذا الداء والباب الذي يدخل أو بالحري يخرج منه .

٢ ـ إكثار الكلام هو عرش للمُعجب اعتاد أن يشهر ذاته عليه ويعرضها . اكثار الكلام دليل على عدم المعرفة ، وباب للوقعية ، ومرشد إلى المزاح ، وخادم للكذب ، واضمحلال للخشوع والندم ، وداعٍ للضجر أو مبدع له ، وسابق للنوم ، ومشتت للعقل ، وملاش للتيقظ ، ومخمد للحرارة ، ومبيد للصلاة .

٣ ـ أما الصمت بمعرفة فهو أم للصلاة ، واسترداد من الاسر ، وصيانة لاضطرام القلب ، ورقيب على الأفكار ، وراصد للأعداء وضابط للنوح ، وصديق للدموع ، وباعث على ذكر الموت ، ومصور للعقاب ، ومتطلع إلى يوم الدين ، وخادم للاكتئاب ، وعدو للدالة ، وقرين للهدوء ، وخصم لحب التعليم ، ونمو للمعرفة ، ومبدع للتأمل ، وتقدم خفي ، وصعود غير منظور .

٤ ـ من عرف زلاته ضبط لسانه ، أما الكثير الكلام فلا يعرف ذاته بعد كما يجب .

٥ ـ صديق الصمت يتقرب من الله وإذ يناجيه سراً يستنير بنوره .

٦ ـ صمت يسوع أفحم بيلاطس وسكون المرء يُبطل عُجبه .

٧ ـ فاه بطرس بكلمة فبكى بكاء مراً ، ذلك لأنه لم يذكر القول القائل : «سأتيقظ في طرقي لئلا اخطأ بلساني»[١] ، ولا القول الآخر : «الزلة من السطح ولا

(١) مز ٣٨ : ١ .

الزلة من اللسان»[٢] .

٨ ـ لا اريد الاطالـة في هذا الموضوع ولـو ان كثرة حيـل هذا الهـوى تحملني على الاطـالة . غـير أني سمعت احد المستغفـرين لديّ عن الصمت يقـول مـرة : إن اكثـار الكلام يتولد على كـل حال من إحـدى الخصال الآتيـة : إما من تـأثير بيئـة منحلة وعادة سيئة (لأن اللسان كما زعم هو عضـو من أعضاء الجسـد وحسبما يـربو يعتـاد ويطالب بما اعتاد عليه) وإما من العجب ، عند المجاهدين بصورة خاصة ، وبعض الأحيان أيضاً من الشراهة ، فلذلك حدث مراراً أن الجم كثيرون معـدتهم فقهروا معهـا وضبطوا بسهـولة هذر لسانهم .

٩ ـ من اهتم بخروجه من الدنيا قطع كلامـه ، ومن اقتنى نوحـاً على ذاتـه أحجم عن إكثار الكلام إحجامه عن النار .

١٠ ـ من أحب السكينة أطبق فاه . ومن يسر بالتجول خارج قلايته يطرد ذاته منها .

١١ ـ من عرف شذا النار العلوية هرب من الجموع هـرب النحلة من الدخـان ، لأن الدخان يطرد النحل كما تعيق الجموع الرهبان .

١٢ ـ إن اناساً قليلين جداً يستطيعـون أن يضبطوا مـاء غير منحصـر ، وأقل منهم يستطيعون أن يلجموا لساناً غير منضبط .

هذه درجة حادية عشرة من عَلاها فقد قطع دفعة واحدة كثرة وافرة من السيئات .



(٢) ابن سيراخ ٢٠ : ٢٠ .



المقالة الثانية عشرة

في الكذب

١ - من احتكاك الحجر والحديد تتولد النار ، ومن كثرة الكلام والمزاح يتولد الكذب .

٢ - الكذب يطفىء المحبة ، واليمين الكاذبة إنكار لله .

٣ - لا يتوهمن احد من ذوي استقامة الرأي أن خطيئة الكذب صغيرة ، فإن الروح الكلي قدسه قد حكم عليها حكماً رهيباً دون سائر الخطايا . فإن كان الله «يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب» حسب قول داود[1] فماذا يحل بالذين يلفقون كذبهم بأقسام ؟

٤ - رأيت اناساً يتبجحون باكاذيبهم وينسجون بالمزاح والكلام البطال فنوناً من الضحك يلاشون به نوح السامعين بصورة يرثى لها .

٥ - إذا رآنا الشياطين مؤثرين الهرب من استماع أحاديث المزاح كالهرب من الطاعون حال ابتداء المازح بحديثه عملوا على خداعنا بأحد فكرين موشوشين لنا أن : «لا تسبب غماً للمتحدث» أو «لا تظهر ذاتك اوفر حباً لله من الآخرين» . فابتعد انت ولا تبطىء وإلا فسوف ترتسم خواطر الضحك في صلاتك . ولا تهربن فقط بل بادر إلى فضّ ذلك المجلس الرديء بايرادك لهم ذكر الموت ويوم الدين ، إذ ربما خير لك أن يصيبك من جراء ذلك قليل من المجد الباطل وتكون سبباً لمنفعة كثيرين .

٦ - المراءاة أم الكذب وكثيراً ما تكون قياساً له . فإن البعض يقولون بأن المراءاة

---

(١) مز ٥ : ٦ .

ليست سوى تنميق الكذب وتزويقه مدموجاً بالحلفان ومجدولاً معه .

✓ ٧ - من امتلك مخافة الرب تغرب عن الكـذب حاويـاً في داخله قاضيـاً لا يُرشى أعني وجدانه .

٨ - نتبين في الكذب كما هو الحـال في سائـر الأهواء درجـات متفاوتـة في الضرر . فإن حُكْم من يكذب خوفاً من قصاص غيرُ حكم من يكذب دون أن يهدده خطر .

٩ - ومن يكذب عن طيش غير من يكذب للتسلية ، ومن يكذب ليثير الضحـك غير من يكذب للكيد والأذى .

١٠ - يرتفع الكذب باستنطاق الرؤساء للكاذبين ومقاصصتهم ، ولكنه لا يتلاشى آخر الأمر إلاّ بواسطة كثرة الدموع .

١١ - من يتسـامح في الكـذب يتذرع عـادة بحجة حسن التـدبير وكثيـراً مـا يُعدّ اهلاك نفس فعل بر وصلاح . فإن مختلق الأكاذيب يدعي التشبه براحاب[٢] ويقـول انه بإهلاك ذاته إنما يخلص آخرين .

١٢ - إذا ما تطهرنا من الكذب تماماً نستطيع حينذاك أن نلجأ إليه ، ولكن بخوف وعند الضرورة الماسة فقط .

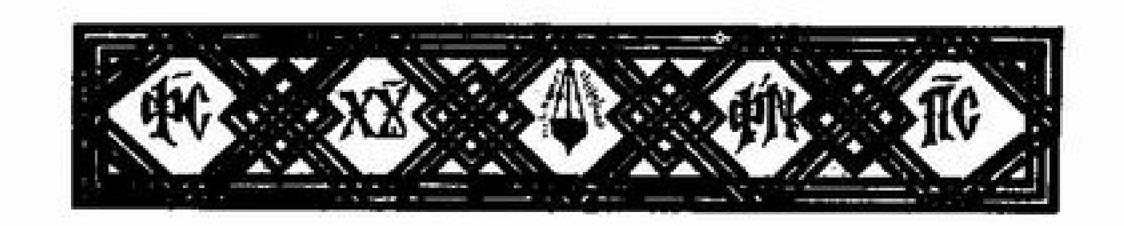
✓ ١٣ - الطفل لا يعرف الكذب ، وكذلك النفس المنزهة عن الشر .

١٤ - من ابهجه الخمر يصدق كارهاً في كل ما يقول ، ومن أسكره خشوع النـدم لا يمكنه أن يكذب .

هذه درجة ثانية عشرة من اعتلاها فقد اقتنى أصل كل الفضائل .

---

(٢) يشوع ٢ : ١ وما يليه .



المقالة الثالثة عشرة

في الضجر

١ ـ يتفرع هذا الداء في كثير من الأحيان من الثرثرة ، بل هو فرعها الاول . ولذا رتبناه هنا في سلسلة الأهواء الخبيثة .

٢ ـ الضجر هو استرخاء للنفس وضعف للعقل وملل من النسك ومقت للعهد الرهباني وتطويب لأهل العالم وذم لله على أنه ظالم وغير محب للبشر . هو فتور في تلاوة المزامير وتوانٍ في الصلاة ، غير أنه يجعل المرء دؤوباً في الخدمة ، نشيطاً في الأعمال الجسدية ، نجيباً في الطاعة .

٣ ـ الراهب في الجماعة لا يعرف الضجر لأنه يستخدم الحسيات في سبيل الروحيات .

٤ ـ حياة الشركة تناقض الضجر ولكن هذا الداء رفيق للمتوحد يلازمه حتى وفاته ويصارعه كل يوم حتى مماته . إنه يبتسم إذا رأى قلاية متوحد ويتسلل فيسكن بقربه .

٥ ـ يعود الطبيب مرضاه في الصباح أما الضجر فيفتقد الرهبان في نصف النهار[1] .

٦ ـ إن الضجر يوحي إلى الرهبان أن يكونوا مضيافين ويحثهم على اصطناع الصدقات عن طريق العمل اليدوي ويحضهم على افتقاد المرضى بنشاط مذكراً إياهم بقول القائل : «كنت مريضاً فزرتموني»[2] ، ويشير عليهم بالذهاب إلى من اشتد اغتمامهم وصغرت نفوسهم هاجساً لهم ، وهم المتضجرون ، بقول الرسول : «عزوا المتضجرين» .

---

(١) مز ٩٠ : ٦ .

(٢) مت ٢٥ : ٣٦ .

٧ ـ عند وقوف الرهبان للصلاة يذكّرهم الضجر الأحمق بأعمال ضرورية ويحتال بشق الوسائل لكيما بحجة واهية ينتزعهم منها كما يرمس .

٨ ـ إن شيطان الضجر يختلق للراهب في الساعة الثالثة[٣] قشعريرة وصداعاً وحمى ومغصاً ، وإذا حانت الساعة التاسعة[٤] يرفع الراهب رأسه قليلاً ، ومتى أُعدَّت المائدة يثب من فراشه . ولكن متى داهمه وقت الصلاة من جديد يعود جسمه فيثقل وما أن ينتصب للصلاة حتى يغرقه الضجر في النعاس ويخطف آيات المزامير من فمه بتثاؤب في غير وقته .

٩ ـ كل رذيلة غير الضجر تُبطل فضيلة واحدة أما الضجر فهو موت كامل لكل فضائل الراهب .

١٠ ـ النفس الشجاعة تحيي العقل المحتضر أما الضجر والفتور فيبددان كنزنا كله .

١١ ـ ما دام الضجر احد الرذائل الثمانية واثقلها كلها فلنفعل به كما فعلنا بغيره مستحضرين إياه أمام محكمة العقل . ولكن فلنضف قبل ذلك ما يلي : خارج أوقات الصلاة لا يظهر الضجر ، وعند الانتهاء منها تنفتح اعيننا .

١٢ ـ في أوان الضجر يعرف الذين يغصبون ذواتهم[٥] ، فإنه ليس مثل قتال الضجر يُكسب الراهب كثرة الأكاليل .

١٣ ـ إن راقبْته تجده يصارعك لكي تجلس ، وإذا جلست يحثك على الاستناد إلى الحائط والتطلع من النافذة واصطناع ضجة بالضرب على الأرض بقدميك .

١٤ ـ من ينوح على خطاياه لا يعرف الضجر أصلاً .

١٥ ـ والآن فلنقيد هذا المغتصب بذكر هفواتنا ونصفعه بالعمل اليدوي ونجرّه إلى المحاكمة بتأمل الخيرات المنتظرة ونسأله عند وقوفه أمام محكمة العقل قائلين :

---

(٣) أي الساعة التاسعة صباحاً.

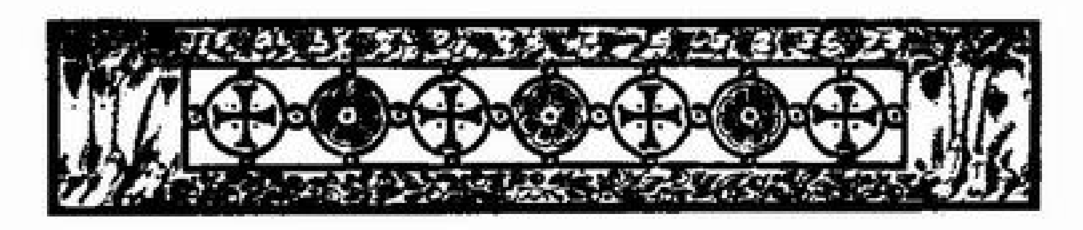
(٤) أي الساعة الثالثة بعد الظهر

(٥) متى ١١ : ١٢ .

١٦ ـ قل لنا أيها المخلع من ولدك شر ولادة ومن هم أبناؤك ومن هم محاربوك ومن هو قاتلك ؟ فقد يجيبنا مكرهاً ويقول : ليس لي مكان أسند إليه رأسي عند المطيعين حقاً ، ولكنني أستريح عند المتوحدين فأقيم معهم . أما امهاتي فهي كثيرة ، منها عدم الحس حيناً ونسيان النعم السماوية حيناً آخر وكثرة الأتعاب وثقلها احياناً . أما اولادي ورفاقي فهم التنقل من موضع إلى آخر وعصيان الأب الروحي وعدم ذكر الدينونة وربما نقض العهد الرهباني . وخصماي اللذان كبلاني كما ترون هما تلاوة المزامير والعمل اليدوي . وعدوي هو ذكر الموت . أما التي تميتني فهي الصلاة المقترنة بالرجاء الثابت بالخيرات المنتظرة . وإن اردتم أن تعرفوا من يلد الصلاة اسألوها هي فتخبركم .

هذه غلبة في درجة ثالثة عشرة ، من اقتناها حقاً صار مختبراً في كل صلاح .





المقالة الرابعة عشرة

في الشره ، السيد الكثير الأذى والمستحب عند الجميع .

١ ـ إذ قد عزمنا أن نتكلم عن الشره كما تكلمنا عن غيره من الأهواء فإننا نضطر بصورة أخص أن «نتفلسف» على ذواتنا . لأني اعجب ممن تحرر من نير معدته قبل أن يسكن القبر .

٢ ـ الشره خدعة المعدة إذ تكون متخمة فتصيح مدّعية العوز ، وتكون محشوة حتى الانفجار فتشكو الجوع .

٣ ـ الشره يبتكر أصناف التوابل ويتفنن في تطييب المآكل ، إنه ينبوع للذات المائدة إذا اوقفت جريه تدفق من منبع ثان وإذا سددت هذا المنبع فتح له مجرى آخر .

٤ ـ الشراهة خدعة للنظر إذ نحن لا نستطيع أن نقتبل إلا قدراً يسيراً من الأطعمة ونظن أنه بامكاننا ابتلاع كل ما هو موضوع على المائدة دفعة واحدة .

٥ ـ الشبع يولّد الزنى ، والتضييق على المعدة طريق إلى العفة .

٦ ـ من يلاطف اسداً كثيراً ما يروضه ومن يدلل جسده يزيد في جموحه وهياجه .

٧ ـ يفرح اليهودي بسبته واعياده ، أما الراهب الشره فيفرح بأيام السبوت والآحاد ويحسب الزمن الباقي لعيد الفصح ويهيّء له الأطعمة قبل حلوله . عبد جوفه يهتم بأية مآكل يعيّد ، وعبد الله بأية مواهب وفضائل يستغني .

٨ ـ إذا زار قوم غرباء راهباً منقاداً لمعدته يحركه الشره إلى المحبة بجملته فيؤاكل ضيوفه معتبراً استسلامه لشهوته تعزية لهم . وربما استصوب أن ينقض إمساكه عن شرب النبيذ في حضرتهم وإذا ظن أنه يخفي بذلك فضيلته فقد صار عبداً لهواه .

٩ ـ كثيراً ما يعادي العُجب الشره فيتخاصمان على الراهب الشقي كما على شراء

عبد . فالشره يحثه على حل إمساكه والعُجب يحضه على إشهار فضيلته . أما الراهب الحكيم فيتخلص منها بطرده الواحد بالآخر عند حضوره .

١٠ ـ إذا هاج جسدنا فلنكبحه بالامساك كل حين وفي كل مكان . وإذا سكن ، وهذا في ظني لا يتحقق قبل القبر ، نستطيع حينذاك إخفاء صومنا عن ضيوفنا .

١١ ـ رأيت شيوخاً كهنة تخدعهم الشياطين ، فيعمدون في مجالس الشرب إلى مباركة شباب ليسوا تحت طاعتهم كي يشربوا الخمر ويخففوا من وطأة تقشفهم . فإن كان اولئك الشيوخ ذوي فضيلة ، مشهوداً لهم من الجميع ، نستطيع أن نخفف نسكنا باعتدال وإن كانوا متوانين فلا نعيرنّ مباركتهم لنا أي اهتمام ، لا سيما إن كنا في قتال شديد مع جسدنا .

١٢ ـ قال افاغريوس : «إذا اشتهت نفسنا اغذية متنوعة فلنضيقن عليها بالخبز والماء» . وكأنه بذلك يأمر طفلاً بصعود السلم كلها دفعة واحدة وليس درجة فدرجة . أما نحن فنقول : إذا اشتهت النفس أغذية متنوعة فهي تطلب ما لطبيعتها ، ولذا يجب اللجوء إلى المخادعة إزاء أكثر الأهواء خداعاً . فإن لم نكن في قتال شديد الوطأة او في ضرورة لمعاقبة ذواتنا على هفوات معينة فلنمتنع أولاً عن الأطعمة الدسمة ثم الحامية فالملذة . وإن امكنك فأعط معدتك طعاماً كافياً وسريع الهضم حتى بكفايته ترضي نهمها الجشع ، وبسرعة هضمه تنجو أنت من سوط الحماوة المفرطة . فإذا دققنا وجدنا أن معظم الأطعمة الدسمة والمتخمة تثير الجسد .

١٣ ـ إهزأ بالشيطان الذي يوحي إليك بعد العشاء بتأخير ميقات عشائك بعد اليوم ، فإنه متى حانت الساعة التاسعة[1] من اليوم التالي يحملك على التراجع عما نويت في اليوم السابق .

١٤ ـ حمية السالكين بلا عيب غير حمية الخطأة التائبين ، فالاولون يمارسونها حين ينذرهم تحرك الشهوة فيهم بحاجتهم إلى الحمية . وأما الآخرون فعليهم ممارستها بلا استرخاء ولا هوادة حتى آخر حياتهم . الاولون يبتغون المحافظة على سلامهم ، أما الآخرون فيلتمسون استعطاف الله بنواحهم وتوبتهم .

---

(١) الثالثة بعد الظهر .

١٥ ـ إن المتوحد الكامل يسر ويتعزى حين انعتاقه من كل اهتمام دنيوي والمجاهد حين احتدام مصارعاته . أما اسير اهوائه فعند حلول وعيد الاعياد وموسم المواسم»[٢] .

١٦ ـ الشرهون يحلمون بالأغذية والمآكل والتائبون بالعذاب الابدي ويوم الدين .

١٧ ـ سُد على معتدك قبل أن تسود هي عليك فتضطر إذ ذاك تحت وطأة الخجل أن تتعب جداً لتتحرر من طغيانها . من سقط في تلك الهوة الشنيعة ادرك ما قلناه ، أما الخصيان فلم يخبروه .

١٨ ـ لنقمع نهمنا بذكر النار الأبدية لأن اناساً قد استسلموا له فعمدوا في النهاية إلى بتر اعضائهم وماتوا موتاً مضاعفاً . وإذا دققنا وجدنا أن النهم وحده يغرق الناس إغراقاً كهذا .

١٩ ـ إن عقل الصوام يصلّي بأفكار طاهرة ، أما عقل الشره فيمتلىء صوراً نجسة .

٢٠ ـ إن إتخام المعدة يجفف ينابيع الدموع ، أما إذا جفت المعدة بالإمساك فتنبع تلك المياه .

٢١ ـ مَن أعزّ معدته وشاء في الوقت نفسه أن يقهر روح الزنى يشبه من يطفىء حريقاً بزيت .

٢٢ ـ إذا ضيّقنا على معدتنا تذلل قلبنا ، وإذا لذذناها تعجرف فكرنا .

٢٣ ـ لاحظ ذاتك في الصباح الباكر وعند الظهر وفي المساء قبل موعد الطعام فتتبين منفعة الصيام . لأن ذهننا في الغداة يشرد متنقلاً من فكر إلى آخر ، وعند الظهيرة يهدأ قليلاً ، وعند غروب الشمس يسكن تماماً ويكون في سلام .

٢٤ ـ إكبح معدتك فتغلق بالضرورة فمك لأن كثرة الأطعمة تشدد لساننا فيفيض بالكلام البطال . صارع تلك العاتية بكل قدرتك وضيّق عليها فإنك إذا تعبت قليلاً

---

(٢) عيد الفصح .

يعضدك الرب سريعاً .

٢٥ ـ إن الزقّ اللين يتمدد فيسع مقداراً أكبر من السوائل ولكن إذا أُهمل وجف فلا يعود يسع ذلك المقدار. كذلك من يتخم معدته بالطعام يوسّع امعاءه ومن يجاهد ويقلل طعامه يضمرها ويضيّقها. وإذا ضاقت الأمعاء لا تطلب غذاء كثيراً، وحينئذ تصير صوامين بالطبع .

٢٦ ـ قد سكّن العطش احياناً عطشاً . أما أن يقطع الجوع جوعاً فهذا مستصعب بل متعذر . فإذا قهرك الجوع اقمعه بممارسة الأتعاب ، وإن عسر عليك ذلك نظراً لضعفك فقاتله بالسهر ، وإذا ثقلت عيناك فتناول عملاً يدوياً . أما إذا لم يدهمك النعاس فلا تتناول عملاً لأن خدمة الله والمال غير مستطاعة ، أي انه يتعذر انشغال العقل بالله والعمل في آن واحد .

٢٧ ـ اعلم أن الشيطان كثيراً ما يجلس في الجوف فيجعل المرء لا يشبع ولو أكل مصر كلها وشرب نيلها . ثم ينصرف الشقي فيرسل الينا روح الزنى مخبراً إياه بحالنا وقائلاً : أدركه ، داهمه ، فإن جوفه مثقل فلن تتعب كثيراً في التغلب عليه . فإذا وافى تبسم وغل بالنوم أيدينا وأرجلنا ثم صنع بنا ما أراد مدنساً نفسنا وجسمنا بأدناس وخيالات واحتلامات نجسة .

٢٨ ـ إنه لأمر عجيب أن نرى الذهن الذي لا جسم له يدنسه الجسد ويظلمه ، وأن نرى بالعكس هذا الذهن اللامادي عينه يطهره احياناً ذلك الجسد الترابي نفسه ويرهفه .

٢٩ ـ إن كنت عاهدت المسيح على سلوك الطريق الضيق الضاغط فضيّق معدتك لأنك إن أرضيتها واوسعتها خالفت عهدك . تأمل ما يقوله الرب : «إن طريق» الجوف «المؤدي إلى هلاك» الزنى «واسع ورحب ، والداخلون فيه كثيرون ، «وأما طريق» الصوم «المؤدي إلى حياة» العفة «فهو ضيّق وكرب والداخلون فيه قليلون»[٣] .

٣٠ ـ رئيس الشياطين كوكب الصبح (الساقط من السماء) ورئيس الأهواء الشره .

---

(٣) متى ٧ : ١٣ ـ ١٤ .

٣١ ـ متى اتيت مائدة الطعام اذكر الموت والدينونة فإنك بهذا الذكر تتمكن بالجهد من إعاقة الشراهة قليلاً . ومتى شربت مشروباً فلا تكف عن ذكر الخل والمرارة اللذين شربهما سيدك وهكذا تضبط هواك أو على الأقل تتحسر وتتضع .

٣٢ ـ لا تنخدع فإنك لن تنعتق من عبودية فرعون ولن تعاين الفصح السماوي ما لم تأكل طيلة العمر مراً وفطائر . أما المر فهو قسر الصوم وعذابه ، وأما الفطائر فهي ذهن لا يتشامخ . وليلصق بنفسك قول القائل : «وأما أنا ، إذ كان الشياطين يضايقونني ، فلبست المسح ، واذللت بالصوم نفسي ولزمت صلاتي احشائي»[٤] .

٣٣ ـ الصوم هو اقتسار للطبيعة ، واقصاء لكل ما يستلذه الحلق ، وبتر لالتهاب الشهوة ، وقطع للأفكار السيئة ، وتحرر من الاحلام الليلية ، وتنقية للصلاة ، ونور للنفس ، ويقظة للذهن ، وجلاء لقساوة القلب ، وباب للخشوع ، وتنهد منسحق ، وتحسر فرح ، وتهدئة للثرثرة ، وسبيل للسكينة ، وحارس للطاعة ، وخفة للنوم ، وعافية للجسد ، ووسيط للاهوى ، وغفران للخطايا ، وباب للفردوس والنعيم .

٣٤ ـ فلنسأل أيضاً هذا الهوى بل الاولى بنا أن نسأله قبل كل الاهواء فإنه إمام اعدائنا ومحاربينا وباب لسائر الأهواء وعلة سقطة آدم ومهواة عيسو وهلاك الاسرائليين وخزي نوح وخراب عمورة ومذلة لوط وموت ابني عالي ، بل هو المؤدي إلى النجاسة ، وينبوع أنواع الفساد ، فلنسأله ممن يولد ومن هم اولاده ومن الذي يسحقه ومن الذي يبيده إلى الغاية ؟

٣٥ ـ قل لنا أيها المتسلط على كل البشر والمبتاع الجميع بذهب عدم الشبع ، من أين لك الدخول الينا ؟ وما الذي تحدثه فينا عادة بعد دخولك الينا وما الذي يخرجك منا ويعتقنا من عبوديتك ؟

٣٦ ـ فينزعج لشتائمنا ويحتدم غضباً ويجيبنا بإباء قائلاً : لماذا ترشقونني بتعييراتكم وانتم خاضعون لي وكيف تحاولون الانفصال عني وأنا مرتبط بكم بالطبيعة ؟ فالأطعمة هي الباب الذي أدخل منه ، والدأب على تناول الطعام علة نهمي ، واقترانه بعدم الإحساس وعدم ذكر الموت يثبتني . ثم كيف تبتغون أن تعرفوا اسماء اولادي ؟ فإن

---

(٤) مز ٣٤ : ١٣ .

سمّيتهم زادوا على عدد رمل البحر كثرة . ولكن اسمعوا فقط من هم ابكاري واحبتي : فابني البكر هو الجنوح إلى الزنى ، وابني الثاني جفاء القلب ، وابني الثالث النوم . وينبعث مني بحر من الأفكار السمجة وأمواج من الأدناس المختلفة ولجة من تجاسات خفية لا يباح ذكرها . أما بناتي فهن البلادة والثرثرة والدالة والسخرية والفنون المضحكة والمناقضة والخيلاء والمعاندة وعدم الطاعة وعدم الرقة وغفلة العقل والعظمة والجسارة وعبة العالم ، تعقبها صلاة غير نقية وطياشة أفكار وفي احيان كثيرة مصائب مفاجئة وغير متوقعة يليها اليأس الذي هو اعظمها شراً . ولعمري إن ذكر الإنسان لهفواته يحاربني إلا أنه لا يغلبني ، والهذيذ بالخروج من الدنيا يعاديني كلياً ، ولكن ليس عند الناس ما يبيدني تماماً : من اقتنى الروح المعزي في داخله يتوسل إليه فيبطل الروح فعلي فيه . أما الذين لم يذوقوا المعزي الصالح فيطلبون بالضرورة أن يتنعموا بملذاتي .

هذه شجاعة للغلبة في درجة رابعة عشرة من تأيد بها يسارع جلياً إلى اللاهوى وإلى عفة قصوى .





المقالة الخامسة عشرة

في الطهارة والعفة العديمة البلى الحاصلة في البالين من جرّاء اتعابهم واعراقهم

مقدمة: في الجسدانيين واللاجسدانيين.

لقد سمعنا من فم الشراهة، تلك المتسلطة الهائجة التي تكلمت الآن، أن مولودها هو الزنى تحارب به ذوي الأجساد. ولا عجب في ذلك إذ هو ما يعلمنا إياه جدنا الأول آدم الذي لو لم يتغلب لبطنه لما عرف زوجته (أي لكان عاش معها كأخت إلى الأبد). ولذا فالذين يحفظون الوصية الاولى (عدم الشراهة) لا يسقطون في المخالفة الثانية (الزنى)، ومع بقائهم أبناء لأدم لا يعرفون ما صار إليه آدم. إلا أنهم دون الملائكة قليلاً (كونهم خاضعين للموت) وذلك لئلا يصبح الشر عادم الفناء، كما قال «اللاهوتي»[1].

١ ـ الطهارة تَبَنٍّ لطبيعة العادمي الأجساد. الطهارة بيت للمسيح محبوب وسماء على الأرض. الطهارة جحود للطبيعة فائق الطبيعة، ومنافسة عجيبة للملائكة العادمي الأجساد في جسد فاسد مائت.

٢ ـ الطاهر هو من دفع عشقاً بعشق وأطفأ نار الأرض بنار السماء.

٣ ـ العفة اسم جامع لكل الفضائل.

٤ ـ العفيف هو من لا يحس حتى في نومه بأية حركة غريزية ولا بأي تغير من هذا القبيل.

٥ ـ العفيف هو من لا يتأثر ولا ينفعل اطلاقاً أمام الأجساد على اختلافها.

(١) هو غريغوريوس النزنيزي.

٦ ـ إن حد الطهارة القصوى الكاملة ومقياسها أن تكون حال المرء واحدة أمام الأجسام الحية وغير الحية ، الناطقة وغير الناطقة .

٧ ـ لا ينسبن احد طهارته لنفسه ، إذ لا يمكن أن يقهر أحد طبيعته ، فحيث يكون قهر للطبيعة هناك دلالة على حضور الفائق الطبيعة ، ولأن الأكبر يغلب الأصغر بدون منازعة .

٨ ـ ابتداء الطهارة فكر لا تستوقفه الأفكار السمجة واحتلامات تحدث احياناً بدون أن ترافقها احلام وتخيلات . ومنتصفها حركات جسدية طبيعية حاصلة بفعل الأطعمة فقط وخالية من تخيلات واحتلامات . وكمالها موت الجسد بعد موت الفكر عن الأفكار السمجة .

٩ ـ مغبوط هو بالحقيقة من لا يتأثر كلياً إزاء كل جسد ولون وجمال .

١٠ ـ ليس الطاهر من حفظ طين جسده بلا دنس بل من أخضع جسده بالكلية لنفسه .

١١ ـ عظيم هو من لا ينفعل عند اللمس . وأعظم منه من لا يتثلم من النظر ، وقد أخمد نار جمالات الأرض بالتأمل في جمالات السماء .

١٢ ـ من يردّ كلب الزنى بالصلاة يشبه من يقاتل أسداً . ومن يقاومه مواجهة يشبه من لا يزال يطارد عدوه . أما من يحتقر هاجس الزنى احتقاراً كلياً فقد قام من قبره وإن كان في جسده بعد .

١٣ ـ إذا كان عدم التأثر بخيالات الاحلام الليلية دلالة صادقة على الطهارة فإن الخضوع في اليقظة لاحتلام ناتج عن افكار سمجة دلالة أكيدة على الشهوانية .

١٤ ـ من يحارب هذا الخصم بأتعاب الجسد وأعراقه يضاهي من يربط عدوه بغصن من الخيزران . ومن يحاربه بالامساك والسهر يماثل من يطوّق عدوه بطوق . أما من يحاربه باتضاع الفكر وعدم الغضب والعطش فيشبه من يقتل عدوه ويدفنه في الرمل ، أعني في التواضع ، لأن الرمل لا يُطلع كلأً للأهواء ، إنما هو تراب ورماد .

١٥ ـ يقيد بعضهم هذا المغتصب ويضبطه بجهاداته ، وآخر بتواضعه ، وغيره

بوحي الهي . فالاول شبيه بكوكب الصبح والثاني بالقمر البدر والثالث بالشمس الساطعة ، وكل منهم سماوي السيرة . من الفجر ينبلج النور ثم تشرق الشمس ، فليفطن القارىء .

١٦ ـ يتظاهر الثعلب بالنوم والشيطان الكامن في الجسد بالعفة : الأول ليخدع دجاجة والثاني ليهلك نفساً .

١٧ ـ لا تثق بطين جسدك مدى حياتك ولا تركن إليه حتى تمثل أمام المسيح .

١٨ ـ لا تطمئن إلى تحصنك بأصوامك فإن من لا يأكل البتة قد أُهبط من السماء .

١٩ ـ إن بعض العارفين عرّفوا الزهد تعريفاً حسناً بقولهم أنه معاداة الجسد ومقاتلة المعدة .

٢٠ ـ تحصل سقطات المبتدئين عادة نتيجة للتنعم . أما المتوسطون فيسقطون لتكبرهم ، علاوة على سقوطهم بتأثير التنعم ، وقد يسقط المبتدئون بسبب التكبر أيضاً . أما الذين اقتربوا من الكمال فيسقطون بسبب ادانتهم للقريب وحسب .

٢١ ـ لقد غبّط البعض الخصيان بالطبع لتحررهم من طغيان الجسد ، فطوّبت أنا الذين خصوا انفسهم[٢] بقطعهم افكارهم[٣] كل يوم قطع الأطراف بالسكين .

٢٢ ـ شاهدت اناساً ارتكبوا الخطيئة كرهاً وآخرون رغبوا في ارتكابها طوعاً وما استطاعوا . فأشفقت على هؤلاء أكثر من اشفاقي على الذين يسقطون كل يوم ، إذ انهم يشتهون النتانة رغم عجزهم عن الوصول اليها .

٢٣ ـ الساقط يرثى له ولكن من يسهّل السقوط لغيره يرثى له أكثر لأنه يحمل وزر السقطتين أعني خطيئته هو ولذة رفيقه[٤] .

٢٤ ـ لا تعمد إلى صد شيطان الزنى بمحاجتك إياه لأنه هو الذي يمتلك الحجج المعقولة إذ يحاربنا بطبيعتنا .

---

(٢) انظر متى ١٩ : ١٢ .
(٣) أي افكار الزنى .
(٤) انظر المقالة ٢٦ : ١٢٧ .

٢٥ ـ من يحاول أن يقهر جسده أو أن يقاومه بقوته يسعى باطلاً لأنه إن لم ينقض الرب بيت الجسد ليبني بيت النفس فباطلاً يصوم ويسهر في سبيل نقضه[٥] .

٢٦ ـ قدّم للرب ضعف طبيعتك معترفاً كلياً بكامل عجزك فتنل موهبة العفة وانت لا تشعر .

٢٧ ـ إن الشهوانيين (على ما حدثني احدهم قد اختبر الأمر وتغلب عليه) يحسون بنوع من هيام بالأجسام وكأنه روح طاغ لا يشفق ، قائماً بوضوح في وسط القلب ، يجعلهم يشعرون بوجع جسماني ملتهب كأتون نار ولا يخافون الله ويتهاونون بذكر العقاب ، مستخفين به ، ويمقتون الصلاة ، واثناء إكمال الفعل عينه يحتسبون الأجساد شبه مائتة كحجارة لا نفس لها ، ويكونون كمن خرجوا عن رشدهم ، ساهين سكرانين على الدوام من جراء شهوتهم للخلائق الناطقة وغير الناطقة . ولو لم تقصَّر الأيام لما خلصت أي نفس لابسة هذا الطين الممزوج بدم وقيح . وإن سألت كيف يكون ذلك أجبتك : إن كل مخلوق يتوق دون شبع لمجانسه ومثيله ، فالدم يشتهي دماً والدودة دودة والطين طيناً ، أفلا يشتهي الجسم جسماً أيضاً ؟ ولكننا نحن الذين نغصب طبيعتنا ونشتهي الملكوت نحاول بحيل مختلفة أن نخادع الكثير الخداع . فطوبى للذين لم يختبروا الشدة الموصوفة اعلاه. أما نحن فلنصلِّ لكي ننجو إلى النهاية من مثل هذه الخبرة . لأن الذين انزلقوا وهبطوا في الهوة المذكورة هم بعيدون كل البعد عمن يصعدون وينزلون على السلّم السرية[٦] ، ولا بد لهم من مكابدة اتعاب كثيرة مع جوع اقصى ليخرجوا منها .

٢٨ ـ لننظر ونحترس لعل اعداءنا الروحيين قد رتبوا لكل منهم دوراً خاصاً في اصطفافهم علينا كما في حرب منظورة كي يتعقبونا . إن هذا الأمر لمذهل . وقد تأملت المجربين من الشيطان فلاحظت أن السقطات تختلف في الخطورة . من له اذنان فليسمع .

٢٩ ـ لقد اعتاد الشيطان ، لا سيما في محاربته للرهبان المجاهدين والمتوحدين ، أن

---

(٥) انظر مز ١٢٦ : ١ .

(٦) سلم يعقوب (تك ٢٨ : ١٢) .

يستعمل كل وكده، واجتهاده وحيله وكيده وبراعته ليقاتلهم كثيراً بالخطايا المنحرفة عن الطبيعة دون الخطايا الطبيعية . ولذا إن التقى بعضهم مع نساء فانهم لا يحاربون بهن قط فيطوبون انفسهم على ذلك غير عالمين الاغبياء أنه حيث دبَّر هلاك اعظم فلا حاجة إلى هلاك أخف .

٣٠- إني اعتقد أن قاتلينا الأشقياء يحاربوننا عادة ويحطموننا بالزنى غير الطبيعي نحن البائسين للسببين التاليين : أولاً لتوفر مناسبات السقوط فيه في كل مكان ، ثم لشدة العذاب الذي يلحقنا من جرائه . وقد خبر ذلك من كان قد ساد على حمير االوحش ثم استسلم أخيراً لحمير الوحش العقليين فسقط من نعمته سقطة يرثى لها(٧) ، ورغم أنه كان قد اغتذى بخبز سماوي ، فقد أُعدم هذه البركة . والأعجب من هذا حقاً أن معلمنا انطونيوس الكبير قال عنه بلوعة ، حتى بعد توبته : «لقد سقط ركن عظيم» . لكن ذاك الحكيم ستر نوع تلك السقطة إذ علم أن هناك زنى للجسد خلواً من جسد آخر . نعم هناك فينا نوع من موت ، خطيئة مدمرة ترافقنا على الدوام ، لا سيما في حداثتنا ، لا اجترىء أن ادفعها إلى كتابة إذ يمسك يدي من قال «إن الأفعال الكائنة منهم سراً قبيح ذكرها» وكذلك كتابتها وسماعها .

٣١ - إن هذا الجسد ، الذي هو لي عدو أحبه (مع أنه في الوقت نفسه ليس عدوّاً لي) ، قد سمّاه بولس الرسول موتاً بقوله : «من ينقذني من جسد الموت هذا ؟»(٨) ودعاه لاهوتي آخر(٩) «منحلاً» و «عبداً» و «ليلياً» . وأنا تواق إلى معرفة سبب تسميته هكذا . فإن كان الجسد موتاً كما ذكر فمن البيّن ان من قهر جسده لا يموت ولكن أي انسان يحيى ولا يرى موت جسده ؟

٣٢ - وإني لأتساءل ولست ادري من الأعظم هل هو من يموت ويقوم أم من لا يموت بالكلية ؟ من يغبط الثاني يضل لأن المسيح مات ثم قام . ومن يغبط الاول يؤكد وجوب عدم جنوح احد من المائتين ، أو بالاحرى من الواقعين ، إلى اليأس .

٣٣ - إن إمام الزنى ، عدوّ البشر ، يهمس لنا أن الله محب للبشر وأنه يولي هذا

(٧) وردت في كتاب بستان الرهبان .

(٨) رو ٧ : ٢٤ .

(٩) القديس غريغوريوس النزينزي .

الهوى رأفة كثيرة لكونه متماشياً مع الطبيعة . أما إذا رصدنا حيل الشياطين فنجدهم ، بعد وقوع الخطيئة ، يدعون الله قاضياً عادلاً لا يشفق ، لأنهم إنما أوحوا لنا أولاً بما أوحوا ليستميلونا إلى الخطيئة وأما الآن فليغرقونا في اليأس .

٣٤ ـ وما دام الحزن واليأس قائمين علينا فنحن لا نقوى على الندامة وملامة النفس ومعاقبتها على سقطتها (طلباً لرحمة الله) ، أما إذا خمدا عنا فيعود المتسلط ويحدثنا عن محبة الله للبشر (ليسقطنا من جديد) .

٣٥ ـ إن الرب يسر بطهارة أجسادنا وعدم فسادها بقدر ما هو غير فاسد وبلا جسد . أما الشياطين ، على حد قول البعض ، فلا يفرحون بشيء كفرحهم بنتانة الزنى ولا يسرون بهوى كسرورهم بدنس الجسد .

٣٦ ـ الطهارة تجعل المرء أليف الله ونظيره بقدر ما يستطاع هذا للناس .

٣٧ ـ أمّ حلاوة الأثمار الأرض والندى ، وأم طهارة الجسد السكينة المقترنة بالطاعة . ولكن سلام الجسد الناجم عن السكينة لا يثبت بدون اضطراب إذا ما اتصلنا كثيراً بالعالم . أما الناجم عن الطاعة فهو ثابت في كل مكان ولا يتقلقل .

٣٨ ـ رأيت كبرياء تقود إلى التواضع ، فتذكرت القائل : «من عرف فكر الرب ؟»[١٠] ثمرة الصلف السقوط ، ولكن السقوط كثيراً ما يكون لمن يشاء سبباً للاتضاع .

٣٩ ـ من أراد أن يقهر شيطان الزنى بالنهم والتخم يشبه من يطفىء ناراً بزيت .

٤٠ ـ ومن حاول أن يخمد تلك الحرب بالامساك فقط فهو يشبه من يسبح بيد واحدة ويروم الخلاص من لجة البحر . أقرن بالامساك تواضعاً فإن الامساك بلا تواضع باطل .

٤١ ـ من رأى نفسه متغلباً لأحد الأهواء فليتدرع ضده وضده وحده دون الأهواء الأخرى ، لا سيما إذا كان عدوّاً أليفاً (كنهم البطن) ، لأننا ما لم نغلبه لن ننتفع شيئاً من

(١٠) رو ١١ : ٣٤ .

انتصارنا على البقية . أما إذا قتلنا هذا المصري[11] فسنعاين إلهنا ولا شك في عوسجة التواضع[12] .

٤٢ ـ لقد جربت أنا مرة وشعرت بهذا الذئب يُحدِث في نفسي فرحاً مبهماً ودموعاً وتعزية كاذبة فظننت في سذاجتي أنني قد اجتنيت ثمراً لا فساداً .

٤٣ ـ إن كانت «كل خطيئة يفعلها الإنسان هي خارج الجسد أما من يزني فيخطىء إلى جسده»[13] فهذا لأننا ولا شك ندنّس الجسد نفسه بالسيلان الجاري منه ، وهو أمر متعذر في الخطايا الأخرى.

٤٤ ـ وأودّ أن أسأل لماذا اعتدنا القول في أية خطيئة أن الناس قد زلوا وحسب أما إذا سمعنا عن أحد أنه زنى فنقول بتوجع : إن فلاناً قد سقط؟

٤٥ ـ كما أن السمكة تهرب من الصنارة مسرعة كذلك تهرب النفس الشهوانية من العزلة .

٤٦ ـ متى عزم ابليس على أن يربط بين شخصين برباط متين أثار ميول كل منهما نحو الآخر ، ومن هناك ابتدأ بالنار .

٤٧ ـ إن الجانحين إلى اللذة كثيراً ما يظهرون شفوقين رحومين وسريعي الدمعة ، في حين أن الدائبين على العفة لا يقتنون هذه المحامد على هذا الوجه .

٤٨ ـ سألني رجل عالم سؤالاً خطيراً فقال : «أية خطيئة هي أثقل الخطايا كلها عدا القتل والكفر ؟» ولما أجبته : «سقوط الإنسان في بدعة في الدين» قال لي : كيف اذن تقبل الكنيسة الجامعة ذوي البدع في الدين عند رجوعهم عن ضلالهم رجوعاً صادقاً وتحسبهم مستحقين الاشتراك في الأسرار ، في حين أن القوانين الرسولية تحكم على الزاني الذي يتوب عن خطيئته بأن يُفرز سنين معيّنة من الأسرار الطاهرة ؟» فاحترت للأمر ولم اجد له حلاً .

---

(١١) خروج ٢ : ١١ .
(١٢) خروج ٣ .
(١٣) ١ كو ٦ : ١٨ .

٤٩ ـ لنستقص ونتعقب ونرصد اللذة التي تتكون فينا اثناء ترتيل المزامير من شيطان الزنى ، والتي تأتي من أقوال الروح ومن النعمة والقوة الكامنتين فيها .

٥٠ ـ لا تنخدع أيها الشاب فإني رأيت اناساً يصلّون لأجل احبائهم من كل نفوسهم يحركهم روح الزنى إلى ذلك فيظنون انهم يتممون شرعة المحبة .

٥١ ـ قد يتدنس الجسد بمجرد اللمس إذ ليس أخطر من هذا الحس . فاذكر الذي لف يده بمنديل (ليحمل أمه المريضة) وامنع يدك عن اللمس الطبيعي وغير الطبيعي وعن لمس جسدك وجسد غيرك .

٥٢ ـ إني ارى أن لا يقال عن احد أنه قديس حقاً وبالكلية إلا إذا قدس تراب جسده أولاً ، اللهم إن كان هذا ممكناً .

٥٣ ـ عند استلقائنا على فراشنا فلنتيقظ بأكثر احتراس لأن العقل آنذاك يصارع الشياطين وحده دون الجسد ، فإن مال إلى اللذة استسلم لها بأيسر مرام .

٥٤ ـ ليرقد وينهض معك ذكر الموت مع صلاة اسم يسوع[١٤] فإنك لن تجد في نومك عضداً مثل هذا .

٥٥ ـ يعتقد البعض أن القتالات والاحتلامات الليلية تحدث من جراء الأطعمة فقط ولكنني شاهدت سقماء مدنفين وأناساً هائمين إلى الغاية قد تدنسوا جداً بهذه العوارض . وسألت مرة عن هذه الأمور احد الرهبان ذوي التمييز والخبرة فعلمني ذلك المغبوط الدائم الذكر تعليماً واضحاً جداً ، فقال : «يحدث الاحتلام في النوم من كثرة الأطعمة ومن رخاوة السيرة . ويعرض احياناً من الغرور عندما نتباهى بانقطاع السيلان منا منذ زمن طويل . كما يحدث أيضاً من ادانتنا للقريب» . وأضاف أن العارضين الأخيرين قد يعرضان للمرضى أيضاً ، بل وربما العوارض الثلاثة ، وإذا وجد احدنا ذاته نقياً من كل الأسباب الآنفة الذكر فمغبوط هو لامتلاكه مثل هذا اللاهوى . وإن تعرض للسيلان فيكون هذا من حسد الشياطين فقط ، والله يسمح به إلى حين لكي يبلغ الانسان إلى الاتضاع الأسمى من خلال عارض خال من الخطيئة .

---

(١٤) هي اليوم صلاة يسوع : «ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطىء» تردد مع التنفس .

٥٦ ـ لا يعمدن أحد الى التفكير نهاراً في الخيالات التي تراءت له في النوم . فإن غرض الشياطين هو أن يدنسونا بأحلامنا متى استيقظنا .

٥٧ ـ لنسمع أيضاً مكراً آخر لأعدائنا وهو أنه كما أن الأغذية الضارة تسبب لنا المرض بعد حين أو بعد يوم ، كذلك كثيراً ما يحدث هذا في تدنيس النفس . فإني رأيت اناساً قد تنعموا بالأكل والشرب ولم يقاتلوا للحال ، كما عاينت آخرين يؤاكلون نساء ويعاشروهن ولا يفتكرون أي فكر خبيث للحين . فإذا اطمأن هؤلاء المخدوعون غير مبالين ، وظنوا انهم امتلكوا سلاماً وأماناً ، داهمهم في قلاياتهم هلاك مفاجىء . ولكن ما هو هذا الهلاك الجسدي والنفسي الذي يصيبنا حين نكون وحدنا على انفراد ؟ من جُرِّب به فذاك يعرفه ، ومن لم يجرَّب فلا حاجة به أن يعرف .

٥٨ ـ والأدوية الناجعة حينذاك هي المسح والرماد والوقوف ما طال الليل واشتهاء القوت الضروري ولسان ملتهب من العطش لا تنديه إلا بقليل من الماء ، والسكنى في المقابر ، وقبل كل هذا قلب متضع ، تضاف إليه إن أمكن مساعدة أب أو أخ حريص ، يكون شيخاً في تمييزه ، لأني اعجب أن يستطيع أحد بمفرده انقاذ سفينته من الغرق في اليمّ .

٥٩ ـ كثيراً ما تستوجب سقطة يرتكبها أحد الاخوة حكماً اقسى بمائة ضعف مما إذا ارتكبها آخر وذلك بحسب اختلاف الظرف والمكان ودرجة نمو الأخ واعتبارات اخرى كثيرة .

٦٠ ـ حدثني احد عن طهارة عجيبة قصوى فقال ان رجلاً شاهد امرأة جميلة فمجد الله لأجلها تمجيداً سنياً ، وبدافع هذا المشهد تحرك إلى حب الله بفيض من الدموع . وكان أمراً مدهشاً أن نرى علة سقوط البعض حاصلة لغيرهم مصدر اكليل فائق الطبيعة . فإذا كان مثل هذا الإنسان في مثل هذه المواقف يمتلك كل حين مثل هذا الحس وهذا العمل فهو قد قام منذ الآن وصار عديم الفساد قبل القيامة العامة .

٦١ ـ وينطبق هذا النهج عينه على الألحان والأغاني لأن محبي الله يتحركون إلى نشوة مقدسة وحب الهي ودموع من جراء استماع الأغاني العالمية والتسابيح الروحية على السواء . وأما محبو اللذة فإنهم على عكس ذلك .

٦٢ - إن أناساً ، كما سبق وقلنا ، يشتد قتالهم جداً في مواضع الصمت . ولا عجب في ذلك ، لأن الشياطين يرتادون تلك الأماكن منذ نفاهم الرب إلى البراري والهاوية لخلاصنا . فأبالسة الزنى يقاتلون الصامت شر قتال ليقتادوه من البرية إلى العالم كأنه لم ينتفع فيها شيئاً . وهم ينصرفون عنا أثناء مكوثنا في العالم لكيما نبقى مقيمين مع العلمانيين بداعي أننا غير مقاتلين هناك . فمن البين بالتالي أنه حيث يقاتلنا عدونا فهناك نعاديه ونقاتله في الواقع اشد قتال . لأنه عندما لا نقاتله يكون بمثابة صديق لنا[١٥] .

٦٣ - إن يد الله تسترنا حين اقامتنا في العالم لقضاء حاجة ما ، ولعل هذا يحصل بصلاة ابينا كي لا يجدف على الرب بسببنا . ولربما يحصل أيضاً لزوال تأثرنا بالعالم وطول خبرة سابقة به وملل مما يشاهد ويقال ويجري فيه ، أو لانصراف الابالسة طوعاً عنا وإخلافهم شيطان الغرور فينا ليملأ موضعهم كلهم .

٦٤ - يا كافة المقدمين على إحكام الطهارة اسمعوا حيلة وخدعة أخرى لذاك الغاش واحترسوا ، فقد حدثني أحد الذين خبروا مكره وقال إن شيطان الزنى ينسحب كلياً في أكثر الأحيان حين يجالس الراهب نساء أو يخاطبهن ، ويأتي به إلى ورع اقصى وربما إلى فيض من الدموع وقد يوحي إليه بأن يعظهن عن ذكر الموت والدينونة والعفة لكيما بكلامه وورعه الكاذب تبادر تلك الشقيات إلى هذا الذئب كإلى راع ، ومتى قامت بينهم عشرة ودالة ينزلق الشقي إلى السقوط .

٦٥ - لنفرَّ هاربين من النظر إلى تلك الثمرة التي عاهدنا الله أن لا نذوقها أو من سماع شيء عنها ، لأني اعجب أن نحسب انفسنا أقوى من داود النبي ، بل هذا مستحيل .

٦٦ - إن مرتبة العفة رفيعة وعظيمة حتى إن بعض الآباء جسروا فدعوها باللاهوى .

٦٧ - يقول البعض ان كل من ذاق الخطيئة لا يمكن أن يدعى عفيفاً بعد . فأقول أنا رداً عليهم أنه من الممكن والمتيسر لمن يشاء أن يطعم زيتوناً برياً بزيتون جيد . ربما كان زعم هؤلاء صحيحاً لو أن من اؤتمن على مفاتيح السماوات كان بتولاً . ولكن

(١٥) انظر المقالة ٤ : ١٠٩ .

فليخزهم من كان له حماة وصار عفيفاً فحمل مفاتيح الملكوت[١٦] .

٦٨ ـ حية الزنى كثيرة الأشكال . فهي توحي لعادمي الخبرة بها أن يختبروها مرة فقط ثم يكفوا عنها ، وتوعز للذين خبروها باختبارها من جديد عن طريق تذكيرهم بها . إن كثيرين من الاولين لا يحارَبون بها لعدم علمهم بهذا الشر . أما الباقون فيعانون منه قلقاً وقتالاً كونهم خبروا تلك القباحة . إلا أنه كثيراً ما يحدث عكس ذلك .

٦٩ ـ نستيقظ احياناً من النوم بطهر وسلام وهذا يأتينا بحال خفية من ملائكة قديسين لا سيما إذا كنا قد رقدنا بصلاة كثيرة وحرص جزيل . ولكننا نستيقظ احياناً اخرى بلا سلامة ولا صفاء ويحل بنا هذا من جراء احلام ورؤى سمجة .

٧٠ ـ رأيت المنافق (روح الشهوة) متعالياً متشامخاً، هائجاً فيّ ومزبداً مثل ارز لبنان، ثم جزت به بالامساك وإذا بهياجه ليس كذي قبل، وطلبته بعد أن اذللت فكري فلم يكن له فيّ أثر[١٧] .

٧١ ـ من قهر جسده فقد قهر طبيعته ومن قهر طبيعته فمن الجلي أنه علا على الطبيعة . ومن بلغ هذه الحال فهو ينقص قليلاً عن الملائكة ، كي لا اقول أنه لا ينقص عنهم شيئاً .

٧٢ ـ ليس عجيباً أن يقاتل روح روحاً آخر ، ولكنه عجب عجاب بالحقيقة أن يهزم الإنسان ذو الجسد اعداءه غير المتجسمين بجسده المعادي والمغتال له .

٧٣ ـ إن ربنا الصالح قد اظهر عنايته الكثيرة بنا بأن ألجم وقاحة الانثى بالحياء كما بلجام لأنه لو كانت الانثى تحاضر إلى الذكر لما نجا أي جسد .

٧٤ ـ إن هاجس الخطيئة في تحديد الآباء ذوي التمييز يختلف عن محاورتها ، والمحاورة عن القبول ، والقبول عن الأسر ، والأسر عن الصراع ، والصراع عما يسمونه بالهوى المستقر في النفس . فالآباء المغبوطون يحددون الهاجس بأنه مجرد الفكرة الخاطرة أو الصورة الاولى التي ترتسم في القلب عن شيء ما جديد ، والمحاورة بأنها مخاطبة تلك

(١٦) انظر لو ٤ : ٣٨ ومتى ١٦ : ١٩ .
(١٧) انظر مز ٣٦: ٣٥ و٣٦ .

الفكرة الخاطرة أو الصورة الظاهرة في القلب سواء بانفعال أو بدون انفعال ، والقبول بأنه رضا النفس بها ، والأسر بأنه انقياد القلب قسراً وكرهاً لها ، أو وصال بها مستمر يطيح بسلامنا . أما الصراع فيعرّفونه بأنه قوة تقابل القوة التي تقاتلنا وتساويها فإما أن نقهرها أو أن ننهزم لها بحسب اختيارنا . وأما الهوى الكامل فيقولون بأنه داء معشش في النفس منذ أمد بعيد وقد آلت بها هذه الالفة إلى العادة فأصبحت تخلد إليه طوعاً وتستسلم له . فالحالة الاولى (الهاجس) بين هذه الحالات كلها تخلو من الخطيئة ، والثانية (المحاورة) ليست دائماً بريئة من الخطيئة ، والثالثة (القبول) تختلف الخطيئة فيها بحسب حال المجاهد . أما الصراع فيسبب للمرء الأكاليل أو العقوبات . وأما الأسر فيُحكم عليه اذا حدث وقت الصلاة بخلاف ما يحكم عليه في حدوثه خارج وقت الصلاة . وحكمه في الأفكار الاثيمة غير حكمه في الأفكار الأقل أثماً . وأما الهوى فلا مناص من أن تقابله توبة تعادله أو أن يعاقب عليه . فمن يلقى الهاجس الاول بفكر خال من أي هوى يقطع بالتالي الحالات الأخرى كلها دفعة واحدة .

٧٥ ـ وهناك ايضاً عند الأباء الأكثر دقة ومعرفة ذكر لفكر آخر أدق من الحالات المذكورة اعلاه يسميه بعضهم الفكر الخاطف قائلين بأنه يدفع بالهوى إلى القلب بسرعة قصوى بدون أي زمان أو قول او صورة . ولا يوجد أسرع منه في عالم الأرواح ولا أبعد عن الملاحظة ، يظهر في النفس بمجرد ذكر ما بسيط غير مقترن بذكر آخر ودونما زمن فلا يستطاع تداركه بل ولا يدركه البعض اطلاقاً . فمن استطاع بفضل نوحه أن يدرك لطافة هذا الفكر يقدر أن يخبرنا كيف يمكن بنظرة واحدة أو بلمس يد أو بسماع لحن أن تزني النفس خلواً من اي تصور أو تفكير .

٧٦ ـ يقول البعض أن الجسد ينقاد إلى الزنى من جراء الأفكار السمجة ، ويعكس آخرون الأمر فيقولون بأن الأفكار السمجة تتولد من خلال حواس الجسد . أما الاولون فيزعمون أنه لو لم يتحرك العقل أولاً لما تبعه الجسد ، وأما الآخرون فيسندون نظريتهم إلى كيد الجسد قائلين بأنه كثيراً ما تجد الأفكار مدخلاً إلى القلب من خلال رؤية منظر حسن أو لمس يد أو استنشاق طيب أو استماع نغمة حلوة . فمن يستطيع أن يفيدنا في هذا المجال بنعمة الرب فليفعل . لأن مثل هذه المعرفة نافعة وضرورية جداً لمن يسلكون بوعي وفهم في السيرة النسكية . نعم ان السالكين فيها ببساطة القلب لا حاجة لهم إلى شيء من المعرفة المذكورة ، لأن المعرفة ليست للجميع ، ولكن البساطة المغبوطة

التي هي الدرع الواقي لكل مكايد الشرير ليست ايضاً للجميع .

٧٧ ـ إن بعض الأهواء تبدأ في النفس وتسري إلى الجسد ، أما الأهواء الأخرى فتدخل بالعكس من الجسد إلى النفس . وتلازم الثانية أهل العالم ، أما الاولى فالعائشين في العزلة ، وذلك لفقدان الأسباب المادية للخطيئة في العزلة . غير أنّ اقول في هذا الشأن ما قاله الحكيم : «تطلب عند الأشرار انتظاماً فلا تجد»[١٨] .

٧٨ ـ إذا جاهدنا كثيراً شيطان الزنى ، قرين الجسد ، وشددنا عليه بمحكّ الصوم وسيف الاتضاع وانتزعناه من قلبنا، حينئذ يتستر هذا الشقي ملتصقاً بجسدنا على مثال دودة يدغدغنا بحركات بهيمية في غير وقتها محاولاً أن يدنسنا قسراً .

٧٩ ـ ويعاني هذه الدغدغات بصورة خاصة المنقادون لروح العُجب إذ يحسبون انهم تحرروا من أفكار الزنى لعدم انشغال قلبهم بها باتصال فيقعون في هذا الهوى . والبرهان على صحة ما نقول أنهم إذا أدركوا بعض السلام وتصفحوا ذواتهم بانتباه يجدون لا محالة فكر عُجب مختفياً في قعر قلوبهم اختفاء حية في مزبلة ليهجس لهم أنهم أحكموا ما احكموه من عفة بجهدهم وجدهم ، ولم يذكروا (الأشقياء) قول القائل : «اي شيء لك لم تعطاه[١٩] مجاناً أما من الله أو بإسهام آخرين وصلواتهم ؟» فليلاحظوا إذاً ذواتهم ويميتوا تلك الأفعى باتضاع كثير واحتراس بليغ ويخرجوها من قلوبهم حتى إذا تخلصوا منها استطاعوا يوماً أن ينزعوا عنهم القمصان الجلدية ويسبّحوا للرب تسبيح الظفر كالفتية الاطهار ، هذا إن وُجدوا اللهم متشحين ببراءتهم واتضاعهم .

٨٠ ـ إن هذا الشيطان يرصد الظروف أكثر من غيره بكثير ، وعندما نكون غير قادرين على الصلاة جسدياً لنتوقاه يحاول النجس أن يشدد علينا القتال .

٨١ ـ ويوافق الذين لم يمتلكوا بعد صلاة القلب الحقيقية أن يغصبوا ذواتهم في الصلاة الجسدية ، اعني رفع اليدين وقرع الصدر والتطلع إلى السماء والتنهد العميق وإحناء الركب باستمرار ، وبما أنه كثيراً ما يتعذر علينا ذلك بسبب حضور بعض الناس

(١٨) وردت في سفر الأمثال : «فهماً» بدلاً من «انتظاماً» (امثال ١٤ : ٦) .
(١٩) ١ كو ٤ : ٧ .

فإن الشياطين حينذاك تشدد علينا القتال . وإذا كنا غير قادرين على مقاومة اعدائنا بثبات العقل وقوة الصلاة اللامنظورة فإننا نستسلم لهم بالضرورة . أما أنت فاظفر سريعاً إن استطعت واحتجب هنيهة في مكان خفي وارفع عيني نفسك إن امكنك وإلا فعينيك الحسيتين واصلب يديك بلا حراك لتخزي عماليق وتقهره بهذا الرسم . واهتف إلى القادر أن ينقذك لا باقوال مدروسة بل بكلام متواضع بادئاً كل صلواتك بهذا التضرع : «ارحمني يا رب فإني ضعيف» . وحينئذ تختبر قدرة العلي وتطرد غير المنظورين طرداً غير منظور بمعونة غير منظورة . ومن اعتاد القتال على هذه الصورة سيقوى على طرد اعدائه بنفسه سريعاً لأن هذه الغلبة الأخيرة إنما هي جزاء الله العادل للممارسات الاولى .

٨٢ ـ لاحظت مرة أخاً حريصاً قد أزعجته في اجتماع رهباني افكاراً قبيحة وإذ لم يجد مكاناً ملائماً ليصلي انطلق إلى موضع قضاء حاجة الطبيعة كأنه عن اضطرار وتدرع هناك ضد محاربيه بصلاة قوية . فذممته أنا على اختياره مكاناً للصلاة غير لائق بها فأجاب: إنني إنما صليت في موضع قذر من أجل طرد افكار اكثر قذارة لأنتقى من نجاستها .

٨٣ ـ يحاول جميع الشياطين أن يُظلموا عقلنا أولاً ثم يهجسون له بما يريدون ، لأن كنزنا لا يسلب إن لم يسهُ عقلنا . ولكن شيطان الزنى يفوق الكل في اعتماده هذا النهج فإنه كثيراً ما يُعمي عقلنا المترئس علينا ويجعلنا نعمل بحضرة الناس ما لا يعمله إلا المغفلون . فإذا أفاق عقلنا بعد حين نخجل من أعمالنا وأقوالنا وتصرفاتنا الوضيعة ليس فقط أمام الذين شهدوها بل أمام ذواتنا أيضاً ، ونعجب للسماجة التي بدت منا . ولذا كثيراً ما كف اناس عن اثمهم نتيجة لمثل هذا التفكير .

٨٤ ـ أقص عنك المجرب الذي يقطعك بعد اقتراف الخطيئة عن الصلاة والتقوى والسهر ، واذكر القائل : ولأجل أن النفس المتوجعة لذكر خطاياها تزعجني فسأنصفها من اعدائها[٢٠] .

٨٥ ـ من قهر جسده ؟ الذي سحق قلبه . ومن سحق قلبه ؟ الذي جحد ذاته ، إذ كيف لا ينسحق من قد مات عن مشيئته ؟

٨٦ ـ قد يوجد شهواني أكثر شهوانية من الشهوانيين ، فيجعل اعترافه بأدناسه

---

(٢٠) انظر لوقا ١٨ : ٥ .

فرصة للتلذذ والاستمتاع . إن الأفكار النجسة السمجة يلدها عادة في القلب شيطان الزنى خادع القلب . أما شفاؤها فيكون بالامساك وباحتسابها كلا شيء .

٨٧ ـ لست اعلم كيف وبأية سجية أربط صديقي هذا (جسدي) وأحاكمه على مثال محاكمتي لبقية الأهواء ، لأنه يفلت قبل أن اربطه . وقبل أن احاكمه أصالحه ، وقبل أن أعاقبه استسلم له . كيف اقهر من احب بالطبع ؟ كيف أُنعتق عمن أنا مرتبط به إلى الدهر؟ كيف أُفرِّط بمن سيشاركني القيامة؟ كيف أُعتق من الفساد من اتخذ طبيعة فاسدة؟ وبأية حجة اقابل من حوى حجج الطبيعة إلى جانبه؟

٨٨ ـ إن ربطتُه بصوم وأدنت القريب أُسلمت اليه أيضاً . وإن كففت عن الادانة فغلبته ثم افتخرت تنازلت له أيضاً . فهو لي حليف وعدو ، نصير وخصم ، كفيل وغادر . إذ راعيته هاجني ، واذا ارهقته ضعفت معه ، إذا ارحته فجر ، وإذا عدت فنبذته ناء تحت الحمل ، إذا أغضبته أجازف ، وإذا اجهزت عليه فقدت ما أقتنيَ بواسطته الفضائل . فإياه اعانق وعنه انثني .

٨٩ ـ ما هو السر في أمري ؟ ما هو الباعث لهذا المزيج فيَّ ؟ كيف أنا عدوّ ذاتي وصديقها في آن واحد ؟ قولي لي انت ، قولي لي يا قرينتي ، يا طبيعتي ، فإني لن اسأل عن خبرك غيرك . كيف انجو من تجريحك ؟ كيف استطيع الافلات من خطر طبيعتي ؟ فإني قد عاهدت مسيحي أن اعاديك . كيف اقهر استبدادك ؟ إذ قد عزمت على أن اقمعك .

٩٠ ـ أما هي فتردّ وتقول بحيث يخال لي أن الجسد يقول للنفس : لن أعلمك بما لا تعرفينه بل بما قد عرفناه كلانا معاً : إن محبة الذات هي أمي (أم الزنى) ، والنار التي تُضرَم فيّ من الخارج مردها الاعتناء بذاتي ورخاوة سيرتي . أما الاضطرام مع جيشان الأفكار من الداخل فيعود لرخاوة سالفة وزلات سابقة . أنا متى حبلت ولدت السقطات ، وهذه بدورها ولدت الموت عن طريق اليأس . إن عرفتَ بوضوح عمق ضعفي وضعفك فقد ربطتَ يدي ، وإن جوّعتَ حلقك فقد قيدت رجليّ عن المسير . وإن خضعت لنير الطاعة فقد انعتقت من نيري وإن اقتنيت الاتضاع فقد قطعت راسي .

هذه جائزة في درجة خامسة عشرة من نالها وهو في الجسد فقد مات وقام وعرف منذ الآن طعم اللافساد الآتي .



المقالة السادسة عشرة

في حب المال

١ ـ لقد درج كثيرون من المعلمين الحكماء على الكلام عن روح حب المال ، ذلك الوحش ذي الألف رأس ، بعد الكلام عن الطاغية الذي تقدم البحث فيه الآن . ولذا لم اشأ أنا الجاهل أن ابدّل ترتيب الحكماء فاتبعت النهج عينه ، وبالتالي سأتكلم عن هذا الداء قليلاً إن شئتم ثم عن علاجه بإيجاز .

٢ ـ حب المال سجود للأوثان ، وثمر لعدم الإيمان ، وتعلل بالأمراض ، ونذير ينذر بالشيخوخة ، ويوحي بورود القحط ، وينبىء بالمجاعات .

٣ ـ محب المال يستهزىء بالأناجيل ويخالفها طوعاً برضاه . من يحب الله يفرق أمواله ومن يزعم أنه يحب الله والمال يخدع نفسه .

٤ ـ من ينتحب ندماً على خطاياه يجحد جسده أيضاً وعند الضرورة لن يشفق عليه .

٥ ـ لا تقل أنك تجمع المال من أجل الفقراء فإن فلسين ابتاعا الملكوت[1] .

٦ ـ تقابل محب الغرباء ومحب المال فنعت الثاني الاول بعديم الفطنة .

٧ ـ من قهر حب المال فقد قطع عنه الهموم ومن استعبد له فلن يصلّي يوماً صلاة نقية .

٨ ـ ابتداء حب المال التذرع بالإحسان إلى الفقراء ونهايته مقت الفقراء . ما دام

---

(١) لو ٢١ : ٢ .

محب المال يجمع فهو رحوم ومتى حضرت الأموال أطبق عليها يده .

٩ ـ رأيت فقراء في المال قد اغتنوا بسيرة الفقراء إلى الله[٢] فنسوا فقرهم الاول .

١٠ ـ الراهب المحب المال لا يعرف الضجر ، إذ يذكر كل حين قول الرسول : «من كان بطالاً فلا يأكل»[٣] والقول الآخر : «هاتان اليدان خدمتاني والذين معي»[٤] .

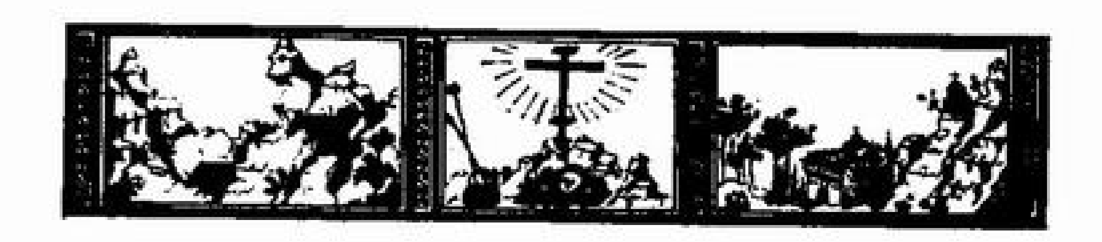
هذا صراع في درجة سادسة عشرة ، من ظفر به اجتنى حباً أو قطع هماً .

---

(٢) انظر مت ٥ : ٣ .

(٣) ٢ تس ٣ : ١٠ .

(٤) اعمال ٢٠ : ٣٤ .



المقالة السابعة عشرة

في الزهد في المقتنيات

١ ـ الزهد في المقتنيات هو إقصاء للشواغل وتحرر من الهمّ ، سفر بلا عائق واغتراب عن الغم ، إنه إيمان بوصايا الرب .

٢ ـ الراهب الزاهد في المقتنيات سيد العالم ، لقد أوكل أمره إلى الله وبإيمانه هذا اقتنى الناس كلهم عبيداً له . لن يسأل انساناً من أجل حاجته ويقتبل ما يأتيه كأنه من يد الرب .

٣ ـ الزاهد في المقتنيات هو ابن لعدم التعلق بالأشياء ، يحتسب ما عنده كأنه غير موجود . عندما يعتزل العالم يعدّ كل شيء نفاية . وإن اغتم لافتقاره لشيء ما فليس هو زاهداً في المقتنيات .

٤ ـ الزاهد في المقتنيات نقي الصلاة ، والمتعلق بها يصلي إلى صور مادية .

٥ ـ العائشون في الطاعة غرباء عن حب المال ، لقد تخلوا حتى عن جسدهم فأي شيء يكون ملكاً لهم بعد ؟ من شأن هؤلاء أن يخطأوا في أمر واحد فقط وهو أن ينزعوا إلى الانتقال من أماكنهم بأيسر مرام . رأيت مقتنيات جعلت رهباناً يصبرون على البقاء في مواضعهم ولكني طوبت الجوالين لأجل الرب أكثر منهم .

٦ ـ من ذاق العلويات يتهاون بسهولة بالسفليات ومن لم يذقها يهلل للمقتنيات .

٧ ـ من يفتقر بلا هدف يُظلَم مضاعفاً : يمتنع عن الحاضرات ويُحرم من الآتيات .

٨ ـ أيها الرهبان لا نكن أقل إيماناً من الطيور فإنها لا تهتم ولا تجمع .

٩ ـ من يتخلَّ عن الأموال من أجل الله فهو عظيم . أما من يتخلَّ عن مشيئته فهو

قديس ، الاول يأخلرمنة ضعف اموالاً أو مواهب ، أما الآخر فيرث حياة ابدية .

١٠ ـ كما لا يخلو البحر من الأمواج لا يخلو محب المال من الغيظ والغم .

١١ ـ من يتهاون بالمادة ينجو من المنازعات والخصومات . أما محب المقتنيات فمن أجل إبرة يلاكم حتى الموت .

١٢ ـ الإيمان الوطيد يقطع الهموم ويذكر الموت يكفر المرء بالجسد.

١٣ ـ لم يكن اثر لحب المال عند ايوب ولذا بقي في سلام لما فقد كل شيء .

١٤ ـ يدعى حب المال اصل كل الشرور وهو بالفعل كذلك لأنه هو الذي يولّد البغضاء والسرقات والحسد والفرقة والعداوات والاضطرابات والحقد وقساوة القلب والقتل .

١٥ ـ أحرق البعض مادة كثيرة بنار يسيرة ونجا البعض من كل الأهواء المذكورة بفضل فضيلة واحدة . وهذه الفضيلة هي الزهد في المقتنيات ، تتأتى من خبرة حلاوة الله والاهتمام بالحساب الأخير .

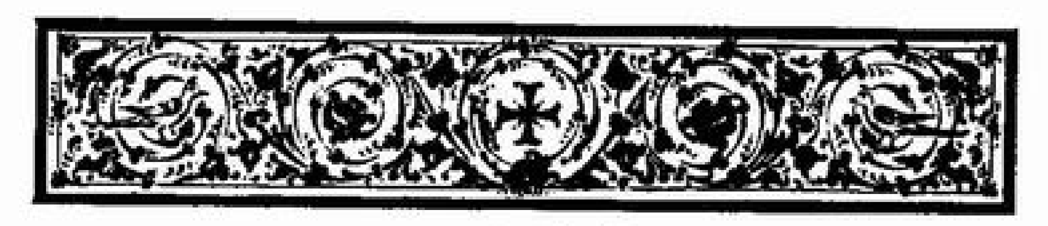
١٦ ـ لا يغب عن بال القارىء النبيه ما قالته أم كل الشرور[١] عندما سردت سلالتها الخبيثة فقد ذكرت أن ولدها الثاني هو عدم الحس القاسي كالحجر ، ولكن افعى عابدة الاوثان الكثيرة الرؤوس[٢] منعتني من أن اتكلم عن عدم الحس في وقته ، ولست أعلم كيف صار ثالثاً في سلسلة الرذائل الثمانية عند الآباء ذوي التمييز . ولذا فبعد أن مررنا على حب المال بما فيه الكفاية نعتزم الآن التكلم عن عدم الحس كثالث في الرذائل الثمانية مع أنه المولود الثاني ، ثم عن النوم والسهر ، وبعدهما نتناول بالبحث قليلاً الخوف الجبان ، خوف الاطفال ، لأن هذه إنما هي امراض المبتدئين .

هذه درجة سابعة عشرة من فاز بها فهو مسافر سفراً طليقاً نحو السماء .

---

(١) الشراهة .

(٢) محبة المال .



المقالة الثامنة عشرة

في عدم الحس وهو موت النفس والروح قبل موت الجسد

١ ـ عدم الحس في الجسد والروح هو حس قد خبا وانتهى الى عدم الحس الكامل بعد فترة طويلة من الاعتلال والتواني .

٢ ـ عدم الحس هو توان قد تمادى فتحول الى عادة ، وفكر قد استرخى وخمد نتيجة المعايب السالفة . فهو يعيق النشاط ويثبط العزيمة ، وهو انعدام للخشوع ومقدمة لليأس وعلة للنسيان ، يعود فيتولد منه أيضاً ويبطل مخافة الله .

٣ ـ العادم الحس حكيم فاقد الحكمة ومعلم يدين نفسه بنفسه ، ومحدث يناقض ذاته ، اعمى يعلم النظر ، يتحدث عن شفاء الجرح ولا يكف عن حكه ، يشكو من مرض ولا ينقطع عن تناول ما يزيده تفاقما ، يسأل الله الخلاص منه ويشرع للحال في ممارسته ثم يغتاظ من فعله ولا يخجل الشقي من أقواله . يصيح : « لقد أذنبت » ويهرع الى فعل ذاك الذنب عينه . يبتهل ضده بلسانه ، وجسده يسعى وراءه . يتفلسف في ذكر الموت ويتصرف كأنه غير مائت . يتحسر لفراق الدنيا ويغط في سباته كأنه فيها خالد . يتكلم عن الامساك ويتهافت على الطعام . يقرأ عن الدينونة ويروح يبتسم . يقرأ عن العُجب ويعجب بقراءته عينها . يُطري السهر ولا يلبث أن يغوص في النوم . يمدح الصلاة ويهرب منها كالهارب من السوط . يطوّب الطاعة وهو أول من يعصي . يمدح الزاهدين في المقتنيات ولا يخجل من أجل خرقة أن يحقد ويخاصم . يتمرمر إنْ غضب ويغضب لتمرمره فينغلب ثانية (١) وهو لا يشعر . إذا شبع ندم لكنه بعد حين يعيد الكرة من جديد . يطوّب الصمت ويكثر الكلام في تطويبه . يرشد الى الوداعة ويغتاظ مرارا أثناء ارشاده عينه . إذا أفاق من توانيه يتحسر ثم يهز رأسه ويعود فيستسلم

(١) للغضب .

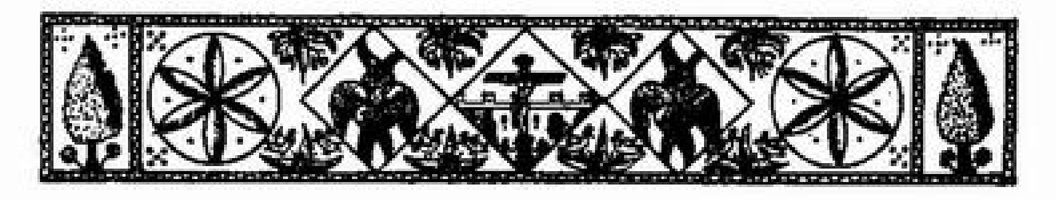
لأهوائه . يذم الضحك ويحث على النوح وهو يبتسم . يلوم نفسه أمام الآخرين على كونه معجباً بذاته وهو يضطاد بلومه هذا مجدا لذاته . ينظر الى وجه قريبه بشهوة ويوصي بحفظ العفة . يزكي الماكثين في الهدوء والصمت وهو مقيم في العالم لا يدرك أنه يخزي ذاته . يعظم الرحومين ويعيّر المساكين . يعيب نفسه كل حين ولا يشاء أو لا يستطيع أن يؤول به ذلك الى احساس .

٤ ـ ولقد شاهدت كثيرين على هذه الحال قد سمعوا اقوالا في الموت والدينونة الرهيبة وبكوا . وإذ كانت الدموع بعد في أعينهم أسرعوا الى المائدة . فتعجبت منذهلاً كيف اقتدرت الشراهة العاتية القذرة أن تتغلب حتى على النوح من جرّاء عدم الحس .

٥ ـ أني على حسب مقدرتي وفهمي اليسيرين كشفت مكائد هذا الهوى الصلب الصخري والثائر الاحق وأبنت جروحه ، لأني لست اؤثر الكلام فيه كثيرا . فمن كان مختبرا ومقتدرا بالرب فلا يحجم عن وصف علاج لتلك الجروح . لأني لست أخجل من التسليم بعجزي عن ذلك لتحكّم هذا الداء فيّ . واني ما كنت لأستطيع أن ادرك بذاتي مخاتلاته وحيله لو لم أداهمه وأضبطه قسراً ، وقد عذبته بسوط خوف الله وجلدته بالصلاة الدائمة فجعلته يعترف بما ذكرت . ولذلك قال لي هذا المستبد الأثيم : إن المستعبدين لي يبصرون الموتى فيضحكون ، ويؤدون الصلاة وهم قساة كالصخر وفي الظلمة بجملتهم ، ويعاينون المائدة المقدسة فلا يشعرون بأي ورع ، ويتناولون القدسات تناولهم للخبز العادي . أنا إذا رأيت متخشعين استهزأت بهم . وقد تعلمت من والدي أن ابيد كل الصالحات المكتسبة بالشجاعة والاتعاب . أنا أبو الضحك . أنا حاضن النوم . أنا خليل النهم . إذا وُبخت لا أخجل . أنا رفيق الورع الكاذب .

٦ ـ فدهشت أنا يوحنا لكلام هذا الهوى الهائج وسألته عن اسم والده فقال : أنا ليس لي أب واحد ، فنسبي مختلط وغير ثابت ، فالشبع يغذيني والزمان ينميني والعادات الذميمة تقويني ، ومن استسلم لها فلن ينعتق مني . فاثبت أنت في سهر كثير ذاكراً يوم الدين دون انقطاع عساني أتراخى عنك قليلا . أنظر الى علة ولادتي فيك وجاهد لتتغلب على أمي ، لأنها ليست هي عينها في كل الاحوال . صلّ كثيراً في المقابر وصوّرها في قلبك تصويراً لا يمحى ، فإنك ان لم تطبعها في قلبك بالصوم لن تقهرني الى الأبد .

هذه درجة ثامنة عشرة من صعدها فقد نجا .



المقالة التاسعة عشرة

في النوم والصلاة والترتيل مع الاخوة

١ - النوم تقلص للطبيعة وصورة للموت وانقطاع الحواس عن العمل . النوم واحد ولكن أسبابه كثيرة على غرار الشهوة . فيتأتى إما من الطبيعة أو من الاغذية أو من الشياطين ، ولعله يحدث كنتيجة صوم مفرط يُضعف الجسد فيطلب أن يتغذى بالنوم .

٢ - الإغراق في النوم كالافراط في الشرب يرجع الى العادة . ولذا علينا أن نقاومه لا سيما في بدء زهدنا ، لأن العادة المتأصلة يصعب شفاؤها .

٣ - إذا ترقبنا ذواتنا نجد أنه عند قرع الناقوس لاجتماع الاخوة للصلاة اجتماعاً منظوراً يلتئم أعداؤنا التئاماً غير منظور . فيقف البعض بنا فور استيقاظنا من النوم ويشيرون علينا بأن نبقى مضطجعين ونؤخر مضيّنا الى الكنيسة حتى إنتهاء مقدمات التسبيح ، والبعض الآخر يغرقنا في النوم أثناء الصلاة في الكنيسة ، وآخرون يحرّكون وجع بطننا بشدة على خلاف عادته ، وغير هؤلاء يدفعوننا الى التحدث مع الاخوة داخل الكنيسة ، وغيرهم أيضاً يستدرجون عقلنا الى افكار سمجة ، وآخرون يحملوننا على الاستناد على الحائط كمن خارت قواهم ، وأحياناً على التثاؤب المتواصل ، وقوم منهم يحضوننا على الضحك وقت الصلاة لإثارة سخط الله علينا ، وغيرهم يحثوننا على الاسراع في الصلاة بدافع التواني ، وآخرون يوحون إلينا بالابطاء في الترتيل بدافع اللذة ، وربما جلسوا على فمنا أحياناً وجعلوه مطبقاً صعب الانفتاح . ولكن من يفتكر ويحس كل الاحساس أنه واقف يصلي أمام الله تراه عاموداً ثابتاً لا يميل ولا يخدعه أحد من اولئك .

٤ - يستنير المطيع الحقيقي ويتهلل فجأة في أحيان كثيرة أثناء قيامه بالصلاة لأن ذاك المجاهد قد سبق فتهيأ لها واضطرم غيرة بطاعته المخلصة .

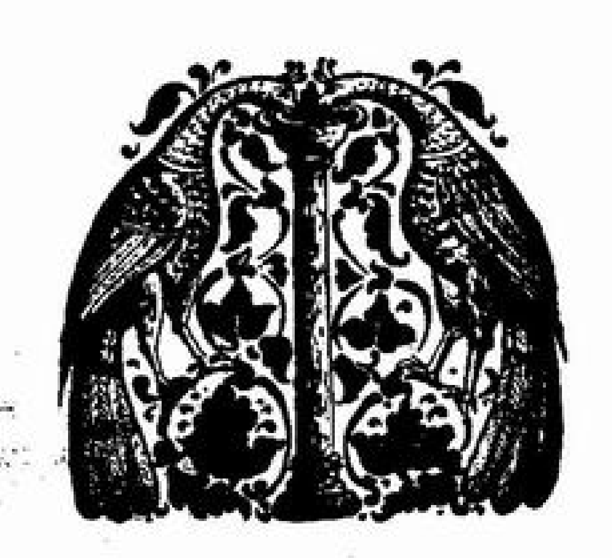
٥ ـ يستطيع كل الناس الصلاة مع الجماعة ، لكنه ملائم لكثيرين أن يصلوا مع من يوافقونهم في الروح فقط ، أما الصلاة على إنفراد فهي لقلة .

٦ ـ لا يمكننا أن نصلي برفقة كثيرين صلاة روحية نقية . فعليك حينذاك بإشغال ذهنك إما بالتأمل في كلمات التراتيل أو بالابتهال ابتهالاً خاصاً بانتظار إنتهاء دور أخيك .

٧ ـ لا يليق بنا أثناء الصلاة أن نعمل عملاً غير مهم ، بل ولا عملاً مهماً ، لأن الملاك الذي ظهر لأنطونيوس الكبير قد رتب هذا جلياً .

٨ ـ كما تمتحن النار الذهب هكذا تمتحن الصلاة غيرة الراهب وحبه لله .

هذا صراع حميد في درجة تاسعة عشرة من التزامه وأحكمه فقد أبعد الشياطين واقترب من الله .





المقالة العشرون

في سهر الجسد وفي كيفية ممارسته للبلوغ الى سهر الروح

١ ـ ان بعض مرافقي الملوك لا يحملون في حضرتهم أي سلاح ، وبعضهم يحملون طبراً (١) وآخرين ترساً وغيرهم سيفاً . والفرق بين الاولين والآخرين شاسع لا يقاس ، لأن الاولين هم أنسباء الملك أما الباقون فأتباعه . هذا عند ملوك الارض .

٢ ـ فتعال ننظر كيف نقف نحن لدى ملكنا وإلهنا في الصلوات المسائية والليلية والنهارية . فان بعضاً منا يرفعون أيديهم للصلاة ساهرين الليل كله وطارحين عنهم كل هيولي (٢) وكل اهتمام كمن لا أجساد لهم ، وآخرين يسبحون الله بتلاوة المزامير ، وغيرهم ينكبون على القراءة ، وآخرين يقاومون النوم بالعمل اليدوي نظراً لضعفهم ، وغيرهم يلهجون بذكر الموت ملتمسين به التوبة . فبين هؤلاء جميعاً يسهر الأولون والأخيرون سهراً محبوباً عند الله ، والذين يتلون المزامير يسهرون سهراً يلائم الرهبان عامة . أما العاملون بأيديهم فيسلكون الطريق الاقل كمالاً ، إلا أن الله يقبل تقدمات الجميع ويحسبها على قدر عزمهم وطاقتهم .

٣ ـ العين الساهرة تطهّر العقل، وكثرة النوم تعمي النفس.

٤ ـ الراهب الساهر عدوّ للزنى ومحب النوم قرين له .

٥ ـ السهر قمع للشهوة وانعتاق من الاحلام ، عين دامعة وقلب رقيق ، سياج للافكار وهضم للأطعمة ، قهر للأهواء ، لجم للسان وإقصاء للتخيلات .

٦ ـ الراهب الساهر صياد للأفكار يرصدها في سكون الليل ويضبطها بأيسر مرام .

---

(١) الطبر (بكسر الطه وفتح الباء): والفأس من السلاح»

(٢) كل ما يتعلق بالمادة .

٧ - متى قرع الناقوس يقول الراهب المحب الله « حسناً حسناً » ، والراهب المتواني « ويلي ويلي » !

٨ - إعداد المائدة يفضح النهمين والصلاة تكشف محبي الله . فالنهم إذا شاهد المائدة ابتهج ومحب الله عبس .

٩ - النوم الكثير وليّ النسيان والسهر ينقي الذهن .

١٠ - يجمع المزارعون أرزاقهم في البيدر والمعصرة ، أما الرهبان فيجمعون الثروة والمعرفة في ملازمتهم للصلوات المسائية والليلية وانكبابهم على أعمال العقل .

١١ - النوم الكثير شريك ظالم يختلس من الكسلان نصف حياته وأكثر .

١٢ - الراهب الزائف يصحو في اللقاءات ، وإذا حان وقت الصلاة ثقلت بالنعاس عيناه .

١٣ - الراهب المتواني بارع في هذر الكلام وإذا حان وقت القراءة غفا ولم يستطع فتح عينيه . عند البوق الاخير يقوم الاموات وعند الكلام البطال يفيق النائمون .

١٤ - النوم الطاغي صديق غاش ، كثيراً ما ينصرف عنا عند شبعنا ويهاجمنا بشدة عند جوعنا وعطشنا .

١٥ - ويشير علينا وقت الصلاة بعمل يدوي اذ لا وسيلة أخرى له لاحباط صلاة الساهرين .

١٦ - يدخل أولاً على المبتدئين فيقاتلهم ليتوانوا في مستهل زهدهم أو ليهيء طريق الزنى اليهم .

١٧ - ما دمنا لم نتحرر من سلطان النوم فلنصلِّ مع الجماعة لأننا في أكثر الحالات نخجل من الاخوة فلا ننعس . كما يعادي الكلب الارنب يعادي العُجب النوم .

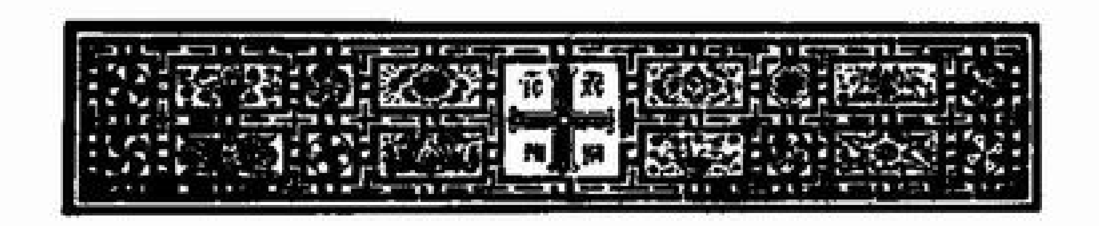
١٨ - يجلس البائع يحسب ربحه آخر النهار ، أما الراهب المجتهد فبعد تلاوة المزامير .

١٩ ـ تنبه بعد انتهاء الصلاة فتبصر أسراب الشياطين يحيطون بنا وكأنهم قد استُفزوا بصلاتنا ، فيحاولون أن يرشقونا بخيالات سمجة . إجلس وارصد فتعاين الذين اعتادوا أن يخطفوا أولى ثمار النفس .

٢٠ ـ قد يعرض لمن يتلو مزاميره يومياً أن يردد آيات منها في نومه . وقد تُهجسنا إياها الشياطين أحياناً لتوقعنا في الكبرياء . أما الحالة الثالثة فما كنت لأذكرها لو لم يضطرني أحدهم ، وهي أن النفس التي تلهج بكلام الرب دون هوادة ترتاح الى ترديده في نومها تلقائياً لأن هذا الترديد التلقائي في النوم إنما هو من الرب ، نعمة عوض نعمة ، من أجل دره السقطات وطرد الخيالات .

هذه درجة عشرون من صعدها فقد أشرق نور في قلبه .





المقالة الحادية والعشرون

في الجبن الصبياني العديم الرجولة

١ ـ إن كنت تطلب الفضيلة مقيماً في دير مشترك المعيشة أو برفقة جماعة فليس من عادة الجبن أن يقاتلك كثيراً . أما من يقضي حياته في موضوع أكثر عزلة فعليه أن يبذل كل جهد لئلا يستولي عليه الجبن الذي هو ثمرة العُجب وابن عدم الايمان .

٢ ـ الجبن سجية طفل في نفس عجوز معجبة بذاتها . هو ارتداد عن الايمان يجعلنا نخشى وقوع شرور غير متوقعة أصلاً .

٣ ـ الخوف هو الاغتمام مقدماً لخطر وهمي ، أو هو ارتعاد قلب قلق لمصائب مبهمة غير محددة . إنه الارتياب بالامر اليقين .

٤ ـ النفس المتكبرة عبدة للجبن ، تتوكل على ذاتها باطلاً فتهلع لصوت الخلائق وظلها .

٥ ـ إن الذين ينوحون على خطاياهم وهم غير مبالين (١) لا يجبنون . غير أنهم كثيراً ما يصابون بذعر مفاجىء وسهو عقلي ، وهذا حق ، لأن الله يتخلى بعدل عن المتكبرين حتى نتأدب نحن الباقين فلا نتكبر .

٦ ـ إن كل الذين يجبنون معجبون بذواتهم ، ولكن ليس كل الذين لا يجبنون متواضعين . فاللصوص ونبّاشو القبور لا يجبنون .

---

(١) أي الرهبان الذين ينتمون الى حياة التوبة إسماً ، ولكنهم بالحقيقة لا يبالون بخلاصهم .

٧ ـ لا تتوان عن المضي ليلاً الى الاماكن التي تفزع منها فإن تقاعست قليلاً سيشيخ معك هذا الخوف الصبياني المضحك . وحين مضيّك تدرع بالصلاة ، ومتى وصلت ابسط يديك واجلد محاربيك باسم يسوع فإنه ليس من سلاح أقوى في السماء وعلى الأرض . وإذا برئت من هذا الداء فسبح مخلصك فإنه يسترك الى الدهر إن ثابرت على شكره .

٨ ـ كما لا يمكنك أن تملأ معدتك بلقمة واحدة كذلك لا يمكنك أن تغلب الخوف دفعة واحدة . بمقدار كثرة نوحنا على خطايانا ينصرف الخوف عنا وبمقدار نقص نوحنا نلبث خائفين .

٩ ـ قال اليفاز في وصفه لمكر الشيطان : « إقشعر شعري ولحمي » (٢) . فقد تجبن النفس حيناً والجسم حيناً آخر وينقل أحدهما الخوف الى الآخر . متى ارتعش جسمنا ولم ترتعب نفسنا فالشفاء من هذا الداء قريب . أما إذا تقبلنا بانسحاق قلب كافة الحوادث غير المتوقعة التي قد تحصل لنا فنكون قد انعتقنا من الخوف حقاً .

١٠ ـ ليست ظلمة المكان ووحشته هي التي تقوّي الشياطين علينا بل خلوّ النفس من الثمار . وربما كان هذا أحياناً تدبيراً إلهياً لتأديبنا .

١١ ـ من أضحى عبداً للرب يهاب الرب وحده ومن لا يهاب ربه بعد فكثيراً ما يخشى ظله .

١٢ ـ عند حضور روح شيطاني غير منظور يرتعد الجسد . أما عند حضور ملاك فتتهلل نفوس المتضعين . فإذا فطنّا لحضوره من فعله فينا فلنهرع الى الصلاة لأن ملاكنا الحارس قد وافى ليصلي معنا .

هذه درجة حادية وعشرون من صعدها فقد تأيد قلبه وأسرع نحو ربه (٣) .

---

(٢) أيوب ٤ : ١٥ .

(٣) وبحسب مخطوطة أخرى : من غلب الجبانة فقد كرس حياته ونفسه لله جلياً .



المقالة الثانية والعشرون

في العُجب الكثير الأشكال

١ ـ يؤثر البعض تمييز العُجب عن الكبرياء فيُفردون له فصلا خاصاً ، وعلى هذا الاساس يقولون ان الاهواء الرئيسية (أصل بقية الشرور) هي ثمانية . ولكن ابانا غريغوريوس اللاهوتي ومعلمين آخرين معه قد سلموا الينا أنها سبعة . وأني أميل الى موافقتهم . اذ من هو الذي تتغلب عليه الكبرياء بعد انتصاره على العُجب ؟ فإنه لا فرق بينهما سوى الفرق الكائن بين الفتى والرجل ، وبين القمح والخبز ، لأن العجب هو البداية والكبرياء هي النهاية . ولما كان سياق البحث قد قادنا الى التكلم عن ذلك التكبر النجس ، الذي هو مبتدأ أهوائنا ومنتهاها فلنقل فيه قولاً وجيزاً لأن من يبتغي أن يتفلسف ويبحث فيه بإسهاب يشبه من يبالغ باطلاً في البحث عن وزن الريح .

٢ ـ العُجب من حيث الشكل هو تغيير لطبعنا وتزييف لخلقنا وتحاشٍ لكل مذمة تلحق بنا أمام الناس . وهو من حيث الفعل تبديد لأتعابنا وإضاعة لأعراقنا واختلاس لثروتنا ، وابن لعدم الإيمان وسابق للكبرياء وغرق في الميناء ونملة في البيدر صغيرة لكنها تسطو على كل تعب وثمر . النملة تنتظر جمع القمح والعُجب ينتظر جمع ثروة الفضائل ، تلك تفرح بأن تسرق وهذا بأن يبدد .

٣ ـ روح اليأس يفرح إذا رأى الرذيلة متوافرة ، وروح العُجب إذا رأى الفضيلة متكاثرة . لأن باب الأول هو تكاثر الجراحات وباب الثاني توافر الاتعاب .

٤ ـ أرصد تجد العُجب النجس زاهراً في الثياب والاطياب والاستقبال والتشييع والعطور وأمثالها حتى القبر .

٥ ـ تنير الشمس البرايا كلها بسخاء وينتفس العُجب في كل شيء بارتياح . فإن أنا صمت أعجبت بصومي وإذا حللت صومي عن فطنة لأخفيه عن الآخرين أعجبت بفطنتي . إن أنا لبست ثياباً بهية انهزمت للعُجب وان أبدلتها بثياب حقيرة استحوذ علي أيضاً . ان تكلمت داخلني العُجب وان سكت انقهرت له أيضاً . فكيفما طرحت هذه الحسكة المثلثة الشعب انتصبت شوكتها قائمة .

٦ ـ المُعجَب بنفسه هو مؤمن عابداً للأصنام ، إذ انه يجل الله في الظاهر وهو يريد أن يرضي الناس لا الله .

٧ ـ كل من يود إظهار ذاته هو معجَب بنفسه . صوم المُعجب بنفسه لا ثواب له وصلاته غير مجدية لأنه يصوم ويصلي من أجل مديح الناس .

٨ ـ الناسك المعجب بنفسه يُظلّم ظلماً مضاعفاً: يضني جسده ولا ينال ثواباً .

٩ ـ من لا يهزأ بصائد المجد الفارغ الذي يقف للترتيل ويدفعه العجب الى أن يضحك حيناً ويبكي حيناً أمام الجميع ؟

١٠ ـ كثيراً ما يخفي الله عن أعيننا المحامد التي اكتسبناها، فيفتحها من يمدحنا وبالاحرى من يخدعنا بمديحه. وحالما تنفتح أعيننا تتلاشى ثروتنا.

١١ ـ الرجل الملاق خادم للأبالسة ، يقود الى الغرور ويبيد الخشوع ، يبدد الفضائل ويضل عن الطريق . « فان الذين يطوبونكم يضلونكم » يقول النبي (١) .

١٢ ـ إن ذوي الاخلاق السامية يتحملون الشتائم بنبل وفرح . ولكن القديسين والابرار يتقبلون المديح بغير أذى .

١٣ ـ رأيت تائبين مُدحوا فاحتدموا غيظاً ، وكأنهم في السوق ، قد قايضوا هوى بآخر .

١٤ ـ « لا يعرف خفايا الانسان إلا روح الانسان الذي فيه » (٢) . فليخز إذا

---

(١) اشعيا ٣ : ١٢ .
(٢) ١كو٢ : ١١ .

وليخرس الذين يعمدون الى تقريظ المرء في وجهه .

١٥ ـ متى سمعت أن قريبك أو صديقك قد عابك في غيابك أو حضورك فأظهر له حبك وتقديرك .

١٦ ـ عظيم هو من يردّ مديح الناس عن نفسه والأعظم منه من يردّ مديح الشياطين .

١٧ ـ من يذم ذاته لا يبدي اتضاعاً اذ كيف لا يحتمل الانسان ذاته ؟ بل من يعيره غيره ولا يُنقص محبته له .

١٨ ـ لاحظت شيطان العُجب يوحي الى أخ بعض الخواطر ويعلنها لآخر ، ثم يحث الثاني على أن يكشف للأول أفكار قلبه ، ويطوّبه على أنه عرفها مسبقاً .

١٩ ـ لا تصغ إليه إن أوحى إليك أفكار أسقفية أو رئاسة أو تعليم ، فإن الكلب لا يُبعَد عن قرمة القصاب إلا بتعب جزيل .

٢٠ ـ متى أبصر روح العُجب أن البعض قد صاروا الى شيء من الهدوء والسلامة ، أوعز إليهم في الحين بمغادرة البرية الى العالم ، قائلاً : إذهبوا لانقاذ نفوس تهلك .

٢١ ـ كما يختلف الانسان عن تمثال الانسان (٣) ، هكذا يختلف عُجب المقيمين في الاديار ذات العيشة المشتركة عن عجب العائشين في البراري .

٢٢ ـ إن العُجب يحمل الرهبان الطائشين الى استباق حضور الضيوف من أهل العالم والخروج لاستقبالهم والجثو عند أقدامهم ، والتسربل بوشاح التذلل ، وهو كله تكبر ، فيضبط الخلق ويخفض الصوت ويجعل الراهب ينظر الى أيدي القادمين لينال منهم شيئاً ويدعوهم أسياده ورؤساءه وواهبين له الحياة بعد الله . ويحث الجالسين الى المائدة على كبح نهمهم وانتهار من هم دونهم رتبة بدون شفقة . ويجعل المسترخين في التسبيح نشيطين والذين لا صوت لهم حسني الصوت والغافين ساهرين ، فيتملقون قائد

---

(٣) وردت في الأصل : كما يختلف الاحباش عن تماثيلهم .

الجوقة ويلتمسون منه التقدم على غيرهم ويدعونه أباً ومعلماً إلى حين انصراف الضيوف .

٢٣ ـ العُجب يجعل المكرَّمين مستكبرين والمستهان بهم حاقدين .

٢٤ ـ كثيراً ما يكون العجب سبباً للهوان بدلاً من الاكرام إذ يجلب على أتباعه خجلاً عظيماً .

٢٥ ـ إن العُجب يجعل الحاذّين الطبع وديعين أمام الناس.

٢٦ ـ إنه يطمع في ذوي المواهب الطبيعية وكثيراً ما يُهلك بواسطتها اولئك الأشقياء .

٢٧ ـ شاهدت شيطان العُجب يغم شيطان الغضب ويطرده . فقد اغتاظ أخ مرة واتفق أن حضر آنذاك قوم من أهل العالم فباع الشقي غيظه للعُجب إذ لم يستطع ان يتعبد للاثنين معاً .

٢٨ ـ من باع نفسه للعُجب يعيش حياة مزدوجة : يقيم بظاهره بين الرهبان وبفكره وذهنه في العالم .

٢٩ ـ إن كنا نتوخى إرضاء الملك السماوي فلنَتُقْ الى مذاق المجد العلوي ، لأن من ذاق ذلك المجد يستهين بكل مجد أرضي . وإني لأعجب ممن يستهين بالمجد الثاني ما لم يكن قد ذاق المجد الاول .

٣٠ ـ كثيراً ما يسلبنا العُجب ثم نعود فنقوى عليه ونسلبه . فقد رأيت قوماً قد بدأوا نشاطاً روحياً بدافع العجب ثم صححوا نيتهم ، فكان الانطلاق ذميماً وصار الانتهاء محموداً .

٣١ ـ من يتباه بملكاته الطبيعية ، كحدة الذهن ، وسرعة التعلم ، وحسن النطق ، وطلاقة اللسان ، ولين العريكة ، وسائر المواهب المماثلة غير المكتسبة بالتعب ، فلن ينال يوماً المواهب الفائقة الطبيعة ، لأن غير الامين في القليل يكون غير امين في الكثير (٤) ، ومعجباً بذاته .

---

(٤) لوقا ١٦ : ١٠ .

٣٢ ـ كثيرون يُضنون أجسادهم باطلاً في سبيل اكتساب اللاهوى الاقصى والمواهب السامية كصنع العجائب ومعرفة المستقبل وقد خفي عنهم أن أمّ هذه النعم وأمثالها ليست أتعاب الجسد بل التواضع .

٣٣ ـ من يسأل الله المواهب لقاء أتعابه يضع أساساً غير سليم . أما من يحسب ذاته غريماً بالاتعاب فسوف ينال على حين غرة ثروة لا ينتظرها .

٣٤ ـ لا تصدق العدوّ المبدد الذي يوحي اليك بأن تشهر فضائلك لمنفعة السامعين . « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو أفاد العالم كله وخسر نفسه ؟ » (٥) فلا شيء يستطيع أن يبني الناظرين مثل الخلق المتضع الصادق والكلام غير المتكلف لأنها بمثابة حافز للآخرين لكيلا يتعالوا يوماً ، وأية منفعة أجلّ من هذه ؟

٣٥ ـ إن أحد أصحاب موهبة المعاينة الروحية روى لي ما عاين فقال : كنت جالساً مرة في مجمع فوافاني شيطانا العجب والكبرياء وقعدا بجانبيّ ، ثم لكز أحدهما جانبي الايمن باصبع العجب موعزاً الي أن أتحدث عن رؤيا رأيتها أو عمل عملته في البرية . ولكن حالما ردعته قائلاً : « ليرتد الى الوراء ويخز الذين يريدون لي الشر » (٦) ، همس في أذني الجالس عن يساري قائلاً : « نعمّاً نعمّاً ! ما أحسن ما فعلت ! لقد صرت عظيماً إذ تغلبت على أمي العادمة الحياء » . فأجبته حالاً ببقية القول : « ليرجعوا في الحين خازين القائلون لي نعمّاً نعمّاً وما أحسن ما فعلت » (٧) . ولما سألته كيف يكون العجب أم الكبرياء أجابني : إن المدائح ترفع النفس وتنفخها وإذا تشامخت النفس أخذتها الكبرياء وأصعدتها إلى السماء ثم أحدرتها إلى الهاوية .

٣٦ ـ هناك مجد يأتي من الرب إذ قال : « سأمجد الذين يمجدونني » (٨) ومجد آخر ينجم عن دسائس الشياطين حسب قوله : « الويل لكم إن قال فيكم جميع الناس حسناً»(٩) . وستميز المجد الأول بوضوح من كونك قد احتسبته مؤذياً لك وتجنبته بكل وسيلة واخفيت سيرتك أينما ذهبت. أما المجد الثاني فستعرفه متى أتيت أي عمل ليراك

(٥) أنظر متى ١٦ : ٢٢ ولوقا ٩ : ٢٥ .
(٦) مز ٣٩ : ١٤ .
(٧) مز ٦٩ : ٣ (أنظر ٣٩ : ١٥) .
(٨) ١ ملوك ٢ : ٣٠ .
(٩) لوقا ٦ : ٢٦ .

الناس (١٠) .

٣٧ - إن روح العجب النجس يوحي إلينا بالتظاهر بفضائل لا نملكها متذرعاً بقول السيد : « فليشرق نوركم قدام الناس لكي يروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السموات » (١١) .

٣٨ - كثيراً ما يردّ الرب المعجبين بأنفسهم الى الاتضاع بالهوان الذي يعرض لهم .

٣٩ - ابتداء الغلبة على العُجب ضبط اللسان وحب الهوان . ووسطها أن يقطع المرء كل ما من شأنه أن ينتج له عُجباً . وتمامها (إن كان للهاوية من نهاية) أن يعمد المرء إلى افتعال ما يسبب له الهوان أمام الآخرين بدون أن يتأثر به .

٤٠ - لا تستر خزيك لتوهمك أنك إذا كشفت خطيئتك تسبب عثرة لغيرك . وإلا فلعلّ هذا العلاج لا يعود يفيدك فتضطر الى استعمال دواء أكثر حدة لشفائك . إلا أن اعتماد العلاج المذكور لا يناسب كل الاحوال بل بعض الخطايا فقط .

٤١ - إذا طلبنا المجد لأنفسنا أو أتانا من غيرنا دون ان نسعى إليه ، أو قمنا بعمل يؤول إلى العُجب فلنذكر توبتنا ورهبة الوقوف في صلاتنا أمام الله ، فنردّ عنا إذ ذاك ولا شك العجب الوقح . هذا إن كنا اللهم نبالي بالصلاة الحقيقية ، والا فلنذكر خروجنا من الدنيا . وإن لم نفعل فلنخش على الأقل الخزي الذي يعقب المجد اذ « من رفع نفسه اتضع » (١٢) ليس هناك فقط بل هنا أيضاً لا محالة .

٤٢ - متى ابتدأ مادحونا ، وبالاحرى مضلونا ، بامتداحنا فلنذكر سريعاً كثرة آثامنا ، فنجد أنفسنا غير أهل لما يقال فينا او يعمل إكراماً لنا .

٤٣ - لا ريب أن هناك معجبين بأنفسهم يستحقون أن يستجيب الله بعض طلباتهم ، ولكن الرب يسبق ويتمم سؤالهم قبل أن يلتمسوه لئلاّ ينالوه بابتهالهم فيزدادوا غروراً .

---

(١٠) متى ٦ : ١ .
(١١) متى ٥ : ١٦ .
(١٢) لوقا ١٤ : ١١ .

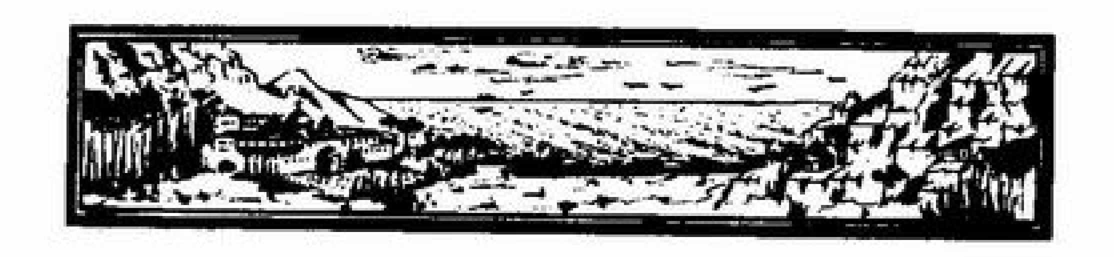
٤٤ ـ من كانوا أوفر بساطة لا يصابون بهذا الداء كثيراً لأن العُجب إنما هو إنتفاء البساطة واعوجاج السيرة .

٤٥ ـ كثيراً ما تنمو الدودة وينبت لها جناحان ترتقي بهما في الجو . وكذلك العُجب إذا اكتمل أنتج الكبرياء التي هي أصل الشرور كلها ومنتهاها .

٤٦ ـ مَن عدِم هذا الداء فهو قريب من الخلاص ، ومن لم يتحرر منه فهو بعيد عن مجد القديسين .

هذه درجة ثانية وعشرون من تخطاها ولم يعلق بالعُجب لن يسقط في الكبرياء الحمقى البغيضة لدى الله .





المقالة الثالثة والعشرون

في الكبرياء الغبية وفي أفكار التجديف التي لا يباح بها

١ ـ الكبرياء جحود لله وصنع الشياطين وإزدراء للناس وأم للادانة وابنة للمدائح وعلامة للعقم ، وتنح عن معونة الله ونذيرة بضلال العقل ونصيرة للسقطات وعلة للصرع وينبوع للغضب وباب للرياء وعون للأبالسة وصائنة للخطايا وولية لقساوة القلب وجهل للحنو ومحاسب مر وقاض ظالم وخصم لله وأصل التجديف .

٢ ـ أول الكبرياء إكتمال العُجب ، وإنتصافها إزدراء للقريب وتبجح وقح بالاتعاب وثناء على الذات مقيم في القلب ، ومقت للمذمة . أما كمالها فتغرب عن معونة الله واعتداد بالذات وتشبه بالشياطين .

٣ ـ فلنسمع جميعاً نحن الراغبين في تحاشي هذه الهوة : كثيراً ما تستمد الكبرياء غذاءها من الشكر ، لأنها لا توحي إلينا للوهلة الاولى أن نجحد الله بوقاحة . لقد رأيت من يشكر الله بلسانه وهو متعظم بفكره ، ويشهد على ذلك جلياً قول الفريسي الجاهل : « أشكرك يا الله . . . » (١) .

٤ ـ حيثما حلت سقطة فهناك سبقت وسكنت الكبرياء ، لأن حضور هذه يؤذن بحلول تلك .

٥ ـ سمعت إنساناً جليلاً يقول : إفترض أن أهواء الهوان اثنا عشر ، فان ارتحنا لواحد منها ، وأقصد به الغرور ، فسوف يملأ هذا مكان الاحد عشر هوى الباقية .

---

(١) لو ١٨ : ١١ .

٦ ـ الراهب المتكبر يناقض مخاطبه بحدة ، أما المتضع فلا يعرف حتى أن يرفع طرفه نحو من يخاطبه .

٧ ـ كما لا تنحني السروة على الارض لتمشي ، كذلك لا يتنازل الراهب المتكبر ليكون مطيعاً .

٨ ـ الرجل المتكبر يطمع بالرئاسة فلا يهلك في الواقع بل لا يريد أن يهلك إلا عن طريقها .

٩ ـ إن الرب يقاوم المتكبرين (٢) ، فمن يستطيع أن يرحمهم بعد ؟ كل متشامخ القلب نجس عند الرب (٣) ، فمن يستطيع أن يطهّر مثل هذا ؟

١٠ ـ السقوط يؤدب المتكبرين ، والشيطان بشوكته يلطمهم (٤) . أما ضلالهم ففي تخلي الله عنهم . وكثيراً ما شفى أناس أناساً في الحالين الاولين . أما الحالة الاخيرة فلا شفاء لها عند الناس .

١١ ـ من يرفض التوبيخ يُظهر تكبره ، ومن يرضخ له يتحرر من هذا الاسر .

١٢ ـ إن كان ملاك (٥) قد سقط من السماء لكبريائه فقط دون أي هوى آخر ، فلننظر لعلنا نستطيع الصعود إليها بالتواضع فقط دون أية فضيلة أخرى .

١٣ ـ التكبر إتلاف لمكاسبنا ولأتعابنا . « صرخوا فلم يكن من منقذ » ، لا شك انهم صرخوا بتكبر . « صرخوا الى الرب فما استجاب لهم » (٦) ، ولا شك أنهم لم يقطعوا علة الشرور التي التمسوا النجاة منها .

١٤ ـ عاتب شيخ أحد الاخوة على تكبره معاتبة روحية . فأجاب الاخ : إغفر لي يا أبي فاني لست متكبراً . فقال له الشيخ الكلي الحكمة : يا ولدي ، أي برهان تعطينا

---

(٢) يع ٤ : ٦ .
(٣) أمثال ١٦ : ٥ .
(٤) ٢ كو ١٢ : ٧ .
(٥) ابليس .
(٦) مز ١٧ : ٤٢ .

على تكبرك أوضح من قولك « لست متكبراً » ؟

١٥ ـ إن أمثال هذا الأخ تلائمهم جداً الطاعة وقسوة العيش والهوان ومطالعة سيرة الآباء وأتعابهم الفائقة الطبيعة ، لعله يكون لهم بهذا رجاء ضئيل بالخلاص .

١٦ ـ من الخزي أن يفتخر المرء بمحاسن غيره ولكنه منتهى الجنون أن يتباهى بمواهب الله فيه . فافتخر فقط بما حققته قبل ولادتك (!) لأن ما حققته بعدها قد وهبك الله إياه كما وهبك الولادة نفسها . وكل الفضائل التي أحكمتها بغير عقلك (!) هي وحدها لك ، لأن العقل قد وهبك الله إياه . وكذلك كافة القتالات التي خضتها بدون جسدك (!) خضتها وحدها بهمتك أنت ، لأن جسدك ليس لك بل هو خلقة الله .

١٧ ـ لا تطمئن الى ذاتك ومصيرك قبل صدور الحكم الاخير عليك ، واذكر ذاك الذي رُبطت يداه ورجلاه بعد إتكائه في الخدر وألقي في الظلمة الخارجية (٧) .

١٨ ـ لا تتشامخ وأنت من الارض لأن كثيرين قد أُهبطوا من السماء وهم قديسون ولاهيوليون .

١٩ ـ متى احتل الشيطان موضعاً في قلب المنقادين له تراءى لهم إذ ذاك في النوم أو اليقظة بشكل ملاك أو شهيد كاشفاً الاسرار أو واهباً قدرات شتى ينخدع بها الاشقياء فيجنّوا جنوناً كاملاً .

٢٠ ـ لو صبرنا على ألوف الميتات من أجل المسيح لا نكون قد وفينا ما علينا ، لأن دم الاله ليس كدم العبيد ، أعني من حيث الكرامة لا من حيث الكنه .

٢١ ـ لا نكفن عن فحص ذواتنا ومقارنتها بالآباء الذين سبقونا إذ هم أنوار عصرهم ، وحينئذ سنجد أننا لم نقتف بعد أثر السيرة النسكية الصحيحة ولا حفظنا عهدنا بنقاوة ، بل لا نزال نمارس سيرة أهل العالم .

٢٢ ـ الراهب الحقيقي هو عين لنفس لا تطمح وحس لجسد لا يهتز .

٢٣ ـ الراهب هو من يستدعي القتالات إليه كما تستدعى الوحوش ، ويستفزها

---

(٧) متى ٢٢ : ١٣ .

في حال ابتعادها عنه .

٢٤ ـ الراهب ذهول متواصل وكآبة حياة .

٢٥ ـ الراهب هو من يتأصل في الفضائل كتأصل غيره في اللذات .

٢٦ ـ الراهب ضوء دائم في عين القلب .

٢٧ ـ الراهب لجة من التواضع أغرق فيها وأسكت كل روح شرير .

٢٨ ـ ينشأ الغرور من نسيان الزلات لأن ذكرها يؤول الى الاتضاع .

٢٩ ـ الكبرياء فاقة قصوى لنفس فقيرة تتوهم الغنى ، وتكون في الظلام فتتخيل النور . إن هذه النجسة لا تمنعنا من التقدم وحسب بل تُسقطنا أيضاً من علو الفضائل .

٣٠ ـ المتكبر رمانة مهترئة في داخلها تلمع بهية في ظاهرها .

٣١ ـ الراهب المتكبر لا يحتاج الى شيطان لإسقاطه لأنه قد صار شيطاناً وعدوّاً لذاته .

٣٢ ـ الظلام غريب عن النور والمتكبر غريب عن الفضيلة .

٣٣ ـ في قلوب المتكبرين تنشأ أقوال التجديف ، وفي نفوس المتضعين تأملات سماوية .

٣٤ ـ كما يمقت السارق نور الشمس يزدري المتكبر الودعاء .

٣٥ ـ لست أعلم كيف تخفى حال معظم المتكبرين عن عيونهم فيظنون أنهم قد تحرروا من الاهواء ولا يدركون فقرهم الا عند الرحيل .

٣٦ ـ من استولت عليه الكبرياء يتوقف خلاصه على الله لأن الخلاص منها بالانسان باطل (٨) .

٣٧ ـ داهمت يوماً تلك الحمقى التائهة تتحرك في قلبي محمولة على كتفي أمها

---

(٨) مز ٥٩ : ١٨ .

(العُجب) فاقتنصتها بعقال الطاعة وجلدتها بسوط التذلل وسألتها أن تقولا لي كيف دخلتا الي فقالتا : نحن لا منشأ لنا ولا ولادة لأننا منشأ للأهواء كلها . إن تطحن القلب الناجم عن الطاعة يحاربنا بشدة إذ لا نحتمل أن يترأس علينا أحد ، ولهذا أقصينا من السماء حيث كانت لنا رئاسة . وباختصار ، نحن نلد كافة الرذائل المنافية للتواضع لأن كل ما يعززه ينافينا ، ونسود في كل مكان ما عدا السماء ، فإلى أين تهرب من وجهنا ؟ وكثيراً ما نلازم الصبر على الهوان والطاعة والوداعة ونسيان الاساءات والخدمة . أولادنا زلات الروحانيين ، أعني الغضب والتعيير والفظاظة والغيظ والصياح والتجديف والمراءاة والمقت والحسد واتباع المشيئة الذاتية والمقاومة والتمرد . وهناك أمر واحد لا نستطيع التغلب عليه ونقولها كارهين تحت وطأة جلداتك : إن ذمت ذاتك ذماً خالصاً متواصلاً أمام الرب حسبتنا كالعنكبوت . فالعُجب كما ترى هو فرسي الذي ركبته أنا الكبرياء . إلا أن التواضع المقدس ومذمة الانسان لذاته يهزآن بالفرس وراكبه ، ويسبحان تسبيح الظفر كما يليق قائلين : « لنسبح الرب لأنه بالمجد قد تمجد ، فانه طرح الخيل وفرسانها في البحر » (٩) ، أي في قعر التواضع .

هذه درجة ثالثة وعشرون ، من ركبها فقد اشتدت شوكته ،
إن كان ركوبها اللهم ممكناً .



(٩) خروج ١٥ : ١ .

ملحق للمقالة الثالثة والعشرين

في أفكار التجديف التي لا يباح بها

٣٨ ـ لقد سمعنا فيما تقدم أن أرومة رديئة وأمّا خبيثة تنتج غصنا أكثر خبثاً منها، أعني أن الكبرياء النجسة تولّد التجديف الذي لا يباح به. ولذلك لا بد لنا من إظهاره على حقيقته خاصة وأنه ليس هو بخصم عادي بل هو ألدّ محاربينا جميعاً. وأسوأ من هذا أنه ليس من السهل الافصاح عنه والاعتراف به أو كشفه لطبيب روحاني. ولذا فكثيراً ما سبّب قنوطاً ويأساً لكثيرين فأفنى كل رجاء لهم على مثال فعل السوس في الخشب.

٣٩ ـ فهذا الكلي الدنس كثيراً ما يعمد الى التشنيع بالرب وبالقدسات أثناء إقامة القداس الالهي وعند إجراء الأسرار الرهيبة بالذات. ومن هنا بالضبط نعرف جلياً أن نفسنا ليست هي الناطقة بتلك الكلمات الكفرية الشنيعة والممتنع تصورها بل هو الشيطان عدو الله الذي طُرد من السماء لأنه كان يرشق الرب هناك بتجاديفه على ما يبدو. إذ كيف أنطق أنا بتلك الكلمات القذرة القبيحة وفي الوقت نفسه أسجد للقربان الذي أتناول؟ كيف أستطيع أن أسفهه وأباركه في آن واحد؟

٤٠ ـ وكثيراً ما اقتاد هذا المضل والمفسد للنفوس أناساً كثيرين الى الجنون لأنه ليس من فكر آخر يصعب البوح به كما يصعب البوح بهذا الفكر. ولذلك كثيراً ما شاخ مع كثيرين لأنه ما من شيء يقوّي الشياطين والافكار ضدنا مثل إخفائها في القلب وتغذيتها وعدم الاعتراف بها.

٤١ ـ لا يحسبن أحد ذاته مصدراً لأفكار التجديف لأن الرب يعرف خفايا القلوب وهو يعلم أن تلك الكلمات والافكار إنما هي صادرة عن أعدائنا.

٤٢ ـ كما أن السكر علة التعثر، كذلك الكبرياء علة الافكار السمجة. والعاثر لا يُسأل عن عثرته لكنه ولا شك يعاتَب على سكره.

٤٣ ـ إذا ما قمنا نصلي قامت علينا تلك الأفكار النجسة والممتنع النطق بها. لكنها تنصرف حالاً إذا تابعنا صلاتنا لأنها لا تحارب محاربيها.

٤٤ ـ إن ذاك الكافر لا يجدف فقط على الالوهة وكل الالهيات لكنه يتكلم في

فكرنا بأقبح الكلمات وأشنعها لكي يجعلنا نهمل صلاتنا أو نيأس من أنفسنا . وقد قطع كثيرين عن الصلاة وفصل كثيرين عن الأسرار المقدسة .

٤٥ ـ إن هذا الطاغية الخبيث والظالم قد أذاب أجسام البعض وأضنى بالصوم آخرين ولم يتح لهم أية راحة . وهو يفعل هذا ليس فقط بالعائشين في العالم بل في العزلة أيضاً ويهجس لهم بانه لا خلاص لهم على الاطلاق ويصور لهم أنهم أحق بالشفقة وأكثر شقاء من جميع الكافرين ومن الوثنيين أنفسهم .

٤٦ ـ فمن يعذبه روح التجديف ويشاء أن يتخلص منه فليعلم يقيناً أنه ليس هو مصدر مثل هذه الأفكار بل الشيطان النجس الذي قال مرة للرب « أعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لي » (١) . لذلك فلنزدره نحن أيضاً ولا نعر أقواله أي اهتمام بالكلية بل لنقل له : إذهب عني يا شيطان (٢) فإني أسجد للرب الهي وإياه وحده أعبد (٣)، فليرتد عناؤك وكلامك على رأسك وليسقط تجديفك على هامتك (٤) في هذا الدهر وفي الآتي آمين .

٤٧ ـ من يريد أن يقاتل شيطان التجديف على غير هذه الطريقة يشبه من يحاول أن يضبط برقاً بيده . إذ كيف يستطيع أن يمسك أو يناقض أو يصارع روحاً يُقبل الى القلب إقبال الريح على حين غفلة ويلقي كلمة بأسرع من طرفة عين ويغيب في الحين ؟ لأن جميع التجارب الاخرى تواجه المرء وتصارعه وتثبت إزاءه فتعطيه مجالاً لمصارعتها ، بخلاف روح التجديف هذا الذي حالما يظهر يتلاشى وحالما يتكلم ينصرف .

٤٨ ـ وقد ألف هذا الشيطان في أحيان كثيرة أن يتسلط على أذهان السذّج والابرياء الذين يضطربون له ويقلقون أكثر من غيرهم . وفي صددهم نقول إن هذا كله يحدث لهم لا لاعتدادهم بذواتهم بل لحسد الشياطين لهم .

٤٩ ـ ان كففنا عن إدانة القريب والحكم عليه لن نخشى أفكار التجديف لأن إدانة القريب من شأنها أن تبعث فينا الافكار .

---

(١) متى ٤ : ٩ .
(٢) متى ١٦ : ٢٣ .
(٣) متى ٤ : ١٠ .
(٤) مز ٧ : ١٧ .

٥٠ ـ وكما أن المرء المغلق عليه في بيته يسمع أقوال المجتازين في الخارج دون أن يوافق عليها ، كذلك النفس التي تخلو الى ذاتها تسمع تجاديف الشيطان وهو يعبر بها فتضطرب لها .

٥١ ـ من يزدر هذا العدو ينعتق منه . ومن يتحايل ليحاربه بوسيلة أخرى يخضع له في النهاية لأن من يشاء أن يضبط الارواح بواسطة الكلمات يشبه من يشاء أن يحبس الرياح .

٥٢ ـ لقد عذب هذا الشيطان راهباً حريصاً مدة عشرين سنة فأذوى جسده بالاصوام والاسهار ولما لم يشعر بأي نفع ذهب وكتب أمره على ورقة وناولها الى رجل قديس بعد أن جثا طريحاً على وجهه لا يجسر على النظر اليه . فلما قرأها الشيخ تبسم وأنهض الأخ وقال : « ضع يا ولدي يدك على عنقي » فامتثل الأخ ، فقال له الشيخ الكبير : « لتكن هذه الخطيئة عليّ يا أخي ، مهما فعلت بك مدى السنين الماضية ومهما ستفعل ، أما أنت ، فقط ، فلا تعود تهتم لها » . وقد أكد لي ذلك الأخ أنه لم يخرج من قلاية الشيخ إلا وقد تلاشى عنه روح التجديف . لقد أخبرني بهذا الامر من اختبره بنفسه وكان يشكر الله .

من غلب هذا الهوى فقد أقصى عنه الكبرياء .



المقالة الرابعة والعشرون

في الوداعة والبساطة والبراءة المكتسبة غير الفطرية ، وفي الخبث

١ ـ ضياء الصبح يسبق الشمس وابتغاء الوداعة يتقدم التواضع . فلنستمع الى النور الحقيقي الذي رتب هذا الترتيب إذ قال : « تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب » (١) . وبالتالي يحسن أن نستنير بالضياء قبل إستنارتنا بالشمس حتى نشخص من ثم الى الشمس شخوصاً جلياً . لأنه يتعذر معاينة شمس التواضع قبل اختبار ضياء الوداعة ، كما يعلمنا قول الرب الصادق وترتيبه .

٢ ـ الوداعة خُلُق لا يتغير ، حاله واحد في الاهانات والكرامات .

٣ ـ الوداعة هي أن يبتهل المرء من أجل قريبه الذي يثير فيه الاضطراب ابتهالاً خالصاً ، خالياً من الاحساس بالاضطراب .

٤ ـ الوداعة صخرة قائمة على شاطىء بحر الغضب ، تكسر كافة الأمواج التي تلطمها ولا تتحرك أو تضطرب البتة .

٥ ـ الوداعة دعامة للصبر وباب للمحبة بل أمّ لها ، وأساس للتمييز ، إذ قيل : « إن الرب يعلّم الودعاء طرقه » (٢) . هي نصرة لغفران الخطايا ودالة في الصلاة ومسكن للروح القدس ، لأنه قيل : « إلى من أنظر الا إلى الوديع الهادىء ؟ » (٣) .

(١) متى ١١ : ٢٩ .
(٢) مز ٢٤ : ٩ .
(٣) اشعيا ٦٦ : ٢ .

٦ ـ الوداعة منجدة للطاعة ومرشدة الى التآخي ولجام للهائجين وكبح للغضوبين ، وباعثة على السرور وتشبّه بالمسيح وخاصة ملائكية وعقال للشياطين وترس في وجه الفظاظة .

٧ ـ في قلوب الودعاء يستقر الرب ويستريح ، أما النفس المضطربة فمقرّ لابليس .

٨ ـ « الودعاء يرثون الارض » (٤) بل يستولون عليها ، أما الحانقون فيُستأصلون من أرضهم .

٩ ـ النفس الوديعة مقرّ للبساطة ، والعقل السخوط يبدع الخبث .

١٠ ـ النفس الرضية تسمع أقوال الحكمة « لأن ربنا يهدي الودعاء في الحكم »(٥) وبالاحرى في التمييز .

١١ ـ النفس البسيطة قرينة للتواضع أما النفس الخبيثة فابنة للكبرياء .

١٢ ـ نفوس الودعاء تمتلىء معرفة أما العقل الغضوب فيساكن الظلام والجهل .

١٣ ـ تقابل الغضوب والملاق فلم يكن في حديثهما قول مستقيم . إذا كشفت قلب الاول وجدت جنوناً ، وإذا فحصت نفس الثاني رأيت خبثاً .

١٤ ـ البساطة خُلُق عديم التلون والتصنع ، لا تحركه أية نية سيئة .

١٥ ـ الخبث علم بل حرفة شيطانية خالية من الصدق ، يتوهم صاحبه أنه يخفيه عن أكثر الناس .

١٦ ـ المراءاة سجية محبوكة بكل أنواع الحيل يظهر فيها الجسد بمظهر مناف لما في النفس .

١٧ ـ البراءة سجية نفس سليمة مطمئنة بعيدة عن أي تحايل .

---

(٤) متى ٥ : ٥ .
(٥) مز ٢٤ : ٩ .

١٨ ـ البساطة فكر عديم التكلف ، وخلق عديم الغش ، وكلام عديم التصنع والتنميق .

١٩ ـ عديم الخبث هو من كانت نفسه نقية كما فطرت ، ويعمل بوحي تلك النقاوة .

٢٠ ـ الخبث استقامة ممسوخة وفكر ملتو وعناية كاذبة وإيمان باطلة وأقوال ملتبسة وقلب متخف عميق ولجة غش وكذب متأصل وغرور قد تحول الى طبع ومقاومة للتواضع ومراءاة بالتوبة وإقصاء للندامة ومعاداة للاعتراف واتباع للأهواء وباعث على السقطات ومعيق للنهوض منها واستهزاء بالتأنيب واحتشام متكلف مضحك وتورع خادع وسيرة شيطانية .

٢١ ـ الرجل الشرير رفيق أبليس وسميّه ، ولذا علّمنا الرب أن نسمي ابليس بالشرير قائلين : « نجنا من الشرير » (٦) .

٢٢ ـ لنهرب من هوة المراءاة ومن جب المخادعة إذ نسمع القائل : « إن عمال الاثم سوف يُستأصلون » (٧) ، « ومثل الحشيش سريعاً ييبسون ومثل البقل الأخضر عاجلاً يذبلون » (٨) لأن مثل هؤلاء هم مأكل للشياطين .

٢٣ ـ كما أن الله يسمى محبة كذلك يدعى مستقيماً ، ولذا قال سليمان الحكيم في نشيد الانشاد مخاطباً القلب النقي : « إن المستقيمين يحبونك » (٩) ، وقال داود ابوه : « الرب صالح ومستقيم » (١٠) ، وحين يقول أنه « يخلص المستقيمي القلوب » (١١) فهو يفهمنا أن الله يخلص من كان سمياً له . ويقول أيضاً ان الرب ينظر الى المستقيمين ووجهه يلقاهم (١٢) .

٢٤ ـ إن سجية الاطفال الاولى هي بساطة عادمة التصنع . وحين كان آدم يقتنيها

---

(٦) متى ٦ : ١٣ .
(٧) مز ٣٦ : ٩ .
(٨) مز ٣٦ : ٢ .
(٩) نشيد الانشاد ١ : ٣ .
(١٠) مز ٢٤ : ٨ .
(١١) مز ٧ : ١٠ .
(١٢) انظر مز ١٠ : ٨ .

لم يكن يبصر عري نفسه ولا قبح جسده .

٢٥ ـ إن البساطة الفطرية حسنة ومغبوطة ، ولكنها ليست كالبساطة المطعّمة من الخبث بالاتعاب والاعراق (١٣) . لأن الاولى مصونة من التكلف والاهواء ولكن الثانية تؤول الى اتضاع اسمى . وثواب الاولى ليس بوفير أما ثواب الثانية فلا حد له .

٢٦ ـ علينا كلنا نحن الذين نبتغي إسترضاء الرب واستمالته إلينا أن نتقدم منه كالتلاميذ الى معلمهم ببساطة ودون تصنع وكلفة أو خبث ومواربة . فإنه بسيط عادم التركيب ويريد أن تكون النفوس المقبلة إليه بسيطة سليمة ، اذ لن تخلو البساطة يوماً من التواضع .

٢٧ ـ الخبيث نبي كاذب يتخيل أنه يدرك أفكار رفيقه من أقواله وما في قلبه من سيمائه .

٢٨ ـ رأيت مستقيمين تعلموا الخبث من قوم خبثاء فتعجبت كيف استطاعوا أن يفقدوا هكذا سريعاً فطرتهم ومزيتهم . وبمقدار ما يسهل تحول المستقيمين الى الخبث يصعب انتقال الخبثاء الى الاستقامة . ولكن الغربة الصادقة والطاعة وصيانة الشفتين كثيراً ما قدرت بصورة عجيبة على شفاء سقماء ممتنع شفاؤهم .

٢٩ ـ إن كانت المعرفة تنفخ الكثيرين فلعل الغباوة والجهل يذللان الكثيرين بالمقدار نفسه ، على أن هناك أحياناً أناساً يتفاخرون بجهلهم .

٣٠ ـ ولقد صار لنا بولس البسيط المثلث الغبطة (١٤) مثالاً حياً ورسماً للبساطة السعيدة . إذ لم يُسمع يوماً ولم يُر قط ولن يُرى نجاح عظيم كنجاحه في وقت قصير على غراره .

٣١ ـ الراهب الذي يتسم بالبساطة هو بمنزلة أصمّ ، عاقل ومطياع ، قد ألقى حمله على مرشده . الحيوان لا يعارض من يربطه والنفس البسيطة لا تعارض وليّها بل تتبع سائقها الى حيث يشاء ولا تعرف أن تقاوم ولو سيقت الى الذبح .

---

(١٣) أي البساطة الناتجة عن الخبث بعد تطعيمه بالاتعاب والاعراق .

(١٤) هو من آباء البرية القديسين امتاز ببساطته الكلية .

٣٢ ـ يصعب ويعسر على الاغنياء دخول الملكوت (١٥) وعلى « الفهماء » الاتيان الى البساطة .

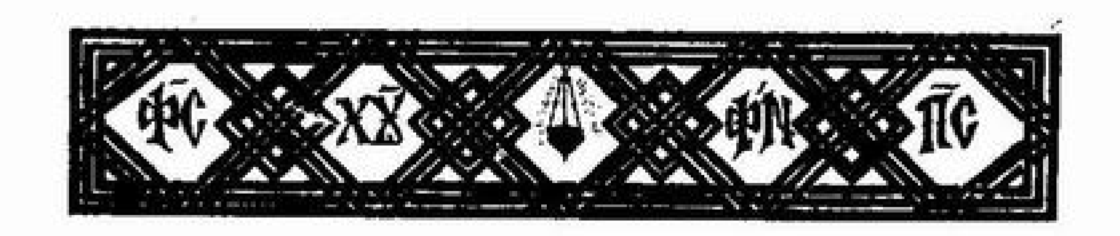
٣٣ ـ كثيراً ما أصلحت سقطة أناساً خبثاء فآتتهم بغير إختيارهم بساطة وخلاصاً .

٣٤ ـ صارع في سبيل نبذ حكمتك فإن فعلت هذا تجد خلاصاً وسلامة بيسوع المسيح ربنا آمين .

هذه درجة رابعة وعشرون من امتلكتها فليتشجع لأنه أصبح متشبهاً بالمسيح معلمه ، ونجا .

---

(١٥) متى ١٩ : ٢٣ .



المقالة الخامسة والعشرون

في التواضع الجليل مبيد الأهواء بصورة خفية

١ ـ من يشاء أن يصف بكلام محسوس الشعور بمحبة الرب وفعلها فينا ، أو الشعور بالتواضع المقدس ، والطهارة المغبوطة ، وإشراق الله في النفس ، وخوفه تعالى ، ويقين القلب ، وذلك بصورة صحيحة ودقيقة ، واضحة وصادقة ، ويظن أنه بوصفه هذا ينير الذين لم يذوقوا ذلك الشعور ولم يختبروه ، يشبه رجلاً يريد أن يبيّن بأقواله وتشابيهه حلاوة العسل لمن لم يذوقوه البتة . أما هذا فعبثاً يشرح حتى لا أقول أنه يثرثر . وأما ذاك فإمّا أن يبدو وكأنه عديم الخبرة بما يصف أو أن يكون مغروراً .

٢ ـ وعلى هذا النحو فإن الفضيلة التي نعتزم بحثها الآن قائمة أمامنا ، بمثابة عمك ، ككنز موضوع في آنية خزفية (هي أجسادنا) يعجز كل قول عن وصف خاصيته . وقد سُطِّرت عليه كتابة سماوية لا تُفهم ولا تدرك ، والذين يسعون لتفسيرها يواجهون أبحاثاً كثيرة وتعباً لا حد له . أما تلك الكتابة فهي : « التواضع المقدس » .

٣ ـ ليدخل معنا إلى هذا المحفل الروحي الكلي الحكمة جميع المنقادين بروح الله ، حاملين بأيديهم العقلية ألواح المعرفة التي كتبها الله في قلوبهم . . . فالتأمنا وبحثنا ودققنا معاً في فحوى تلك الكتابة الشريفة فقال أحدنا : « التواضع نسيان دائم لما أحكمنا » . وقال غيره : « هو أن يحسب الانسان نفسه آخر الناس كلهم وأكثرهم خطايا » . وقال آخر : « إنه إدراك النفس لضعفها وعجزها » . وقال غيره : « هو أن يسبق الواحد قريبه في حالات الغيظ فيزيل حقده أولاً » . وقال آخر : « هو معرفة الانسان لنعمة الله عليه واشفاقه » . وقال غيره أيضاً : « هو إحساس نفس منسحقة وجحود للمشيئة الذاتية » . ولما سمعت أنا هذه الأوصاف كلها وتأملتها في ذاتي وتصفحتها باحتراس لم

إذا جاز القول ، بماء النوح الصادق ، وأخيراً تُخبز بنار الرب فتصير خبزاً متماسكاً هو التواضع المبارك الخالي من خمير الكبرياء . وهكذا يكتمل حبل التواضع الجليل المثلث الجدائل ، بل قل قوس القزح السماوي ، متجمعاً في قوة واحدة وفعل واحد ومكتسباً خواصه المميزة . والعلامة الدالة على توفر احدى جدائله الثلاث تجدها قد صارت في الوقت نفسه علامة لرفيقتيها . وما قلته الآن بإيجاز سأحاول أن أوضحه وأثبته تفصيلاً .

٧ ـ إن الخاصة الاولى لثالوثية التواضع الفريدة العجيبة هذه هي اقتبال الهوان بأوفر سرور بأيدي نفس منبسطة تتسلمه وتحتضنه وتُحله محل علاج شاف لأسقامها ومحرق لخطاياها . والخاصة الثانية هي تلاشي كل غضب مع عدم التباهي بالعزوف عن الغضب . أما الخاصة الثالثة والفضلى فهي حذر صادق من الحسنات الذاتية ورغبة دائمة في التعلم .

٨ ـ « إن غاية الناموس والانبياء هي المسيح للبر لكل من يؤمن » (٢) ، أما غاية الاهواء النجسة ونهايتها فهي العُجب والكبرياء لكل من لا يتيقظ ويحترس . ولكن التواضع ذاك الأيل العقلي (٣) يصرعها ويقي من يقترن به من تأثير كل سم قاتل . إذ كيف وأين يمكن أن ينبت فيه سم المراءاة ؟ أو الوقيعة ؟ وأين تلبد فيه حية وتستتر ؟ بل الا ينتزعها بالحري من أرض القلب ويشهرها ويميتها ويبيدها ؟

٩ ـ لا يُرى عند المقترن بالتواضع أي مظهر من مظاهر المقت أو أي نوع من أنواع المحاججة أو أي أثر للعصيان، ما لم يكن الامر متعلقاً بالايمان .

١٠ ـ من اتحد بالتواضع اتحاد العروس بعروسه فهو على الدوام لطيف ، متوجع القلب ، شفوق ، هادىء ، بشوش ، سهل الانقياد ، لا يحزن أحداً ، يقظ ، نشيط ، وبكلمة واحدة خال من الاهواء ، « لأن الرب ذكرنا في مذلتنا وأنقذنا من أعدائنا »(٤) ومن أهوائنا وأدناسنا .

١١ ـ الراهب المتواضع لا يتحرى عن الخطايا . أما المتكبر فيفحص عن أحكام الله .

---

(٢) رو ١٠ : ٤ .
(٣) انظر المزمور ٤١ : ١ .
(٤) مز ١٣٥ : ٢٣ ـ ٢٤ .

١٢ ـ تراءى الشياطين يوماً لأحد الاخوة الجزيلي المعرفة وطوّبوه على فضيلته فأجابهم قائلاً : إن كففتم عن مدحي بهذه الأفكار التي تزرعونها في قلبي فسوف أستنتج من انصرافكم عني أني عظيم . وإن لم تكفوا فمن مدحكم لي سأفطن لنجاستي « لأن كل متشامخ القلب هو نجس عند الرب » (٥) ، فانصرفوا إذا لأتعظم متشامخاً أو فامدحوني وبسببكم أقتني مزيداً من التواضع » . فانذهلوا من هذا الجواب المحيّر وتلاشوا في الحين .

١٣ ـ لا يكونن في نفسك بئر لذلك الماء الحي يفيض أحياناً ويجف أحياناً أخرى من حرّ التكريم والتكبر بل فليطفح كل حين بنبع اللاهوى ونهر المسكنة .

١٤ ـ إعلم أيها الحبيب أن الاودية تتوشح بالحبوب وبالثمار الروحية (٦) . فالوادي هو النفس السحيقة بين الجبال (أعني بها الأتعاب والفضائل) ، وهي تبقى على الدوام وادعة لا صلف فيها ولا حركة : ما صمتُ ولا سهرت ولا نمت على الحضيض ولكنني « اتضعت فخلصني الرب سريعاً » (٧) ، يقول النبي داود .

١٥ ـ التوبة تُنهض والنوح يقرع باب السماء ولكن التواضع المقدس يفتح . أقول هذا وأسجد لثالوث في وحدانية ولوحدانية في ثالوث .

١٦ ـ الشمس تنير كل ما هو منظور والتواضع يؤيد كل ما يفعله العقل . ففي غياب النور كل شيء معتم ، وفي غياب التواضع كل أعمالنا منتنة .

١٧ ـ إن مكاناً واحداً في الخليقة كلها شاهد الشمس مرة فقط (٨) ، وفكراً واحداً (٩) كثيراً ما ولّد تواضعاً . وهناك يوم واحد (١٠) ابتهج به العالم كله ، وهذه فضيلة واحدة يتعذر على الشياطين تقليدها .

---

(٥) أمثال ١٦ : ٥ .
(٦) مز ٦٤ : ١٣ .
(٧) مز ١١٤ : ٦ .
(٨) قعر البحر الاحمر .
(٩) كفكر الموت أو الدينونة أو آلام المسيح .
(١٠) يوم خروج نوح من الفلك أو يوم الفصح أو يوم الميلاد .

١٨ ـ التكبر يختلف عن عدم التكبر وكلاهما يختلفان عن الاتضاع . فالمتكبر يدين غيره طول النهار ، وغير المتكبر لا يدين أحداً وقد يدين ذاته أحياناً . أما المتضع فيدين ذاته كل حين وهو غير ملام .

١٩ ـ الاتضاع غير الاجتهاد في سبيل الاتضاع ، وغير الثناء على المتضعين : فالأول يتصف به الكاملون والثاني المطيعون (١١) الحقيقيون والثالث جميع المؤمنين .

٢٠ ـ من اتضع في داخله لا تخونه شفتاه لأن الكنز لا يُخرج مالا يحويه .

٢١ ـ إن الفرس الذي يجري وحده كثيراً ما يظن أنه يعدو عدواً حثيثاً ، أما إذا رافق خيلاً تجاريه فحينئذ يفطن لبطئه وتوانيه .

٢٢ ـ إن كف الفكر عن التباهي بالمواهب الطبيعية فهذا دليل على تماثله الى العافية وما دمنا نشعر بتلك النتانة فلن نحس برائحة الطيب .

٢٣ ـ قال التواضع الجليل : إن عاشقي لا ينتهر ولا يدين ولا يترأس ولا يُظهر حكمته حتى يقترن بي . لأنه بعد أقترانه بي لن تسري عليه شريعة فيما بعد .

٢٤ ـ زرع الشياطين الأشرار مديحاً في قلب أحد الحريصين على هذا التواضع المغبوط والجادين في سبيله فاحتال هو بالهام الهي ليقهر خبث الابالسة بحيلة مقدسة . فقام وكتب على حائط قلايته أسماء الفضائل السامية كالمحبة الكاملة والتواضع الملائكي والصلاة النقية والعفة غير الفاسدة وأمثالها . وكلما بدأت أفكاره تمتدحه كان يخاطبها بقوله : لنذهب الى مؤنبنا ، ثم يأتي ويقرأ ويصيح بذاته : يوم تقتني هذه الفضائل سوف تعرف أنك ما زلت أيضاً بعيداً عن الله .

٢٥ ـ نحن لا نقدر أن نصف قوة شمس التواضع وكنهها ولكننا ندرك ذاتيتها من خلال مفاعيلها وصفاتها .

٢٦ ـ تواضع القلب ملاذ إلهي يحجب عن نظرنا ما حققناه . تواضع القلب عمق من التذلل لا قرار له ، بعيد عن منال السالبين . تواضع القلب « برج في وجه العدو

---

(١١) رهبان الشركة .

حصين » (١٢) « لا يتفوق عليه عدوه ، وابن المعصية ، بل فكر المعصية ، لا يعود يضره ، وسيقطع أعداءه من أمام وجهه ويهزم مبغضيه » (١٣) .

٢٧ ـ الى جانب الخواص التي ذكرنا لهذا التواضع الغني العظيم والتي هي ظاهرة كلها تدل الناظرين على ذلك الغنى ما عدا واحدة منها (١٤) ، هناك خواص أخرى تقوم في نفس مالك تلك الثروة ولا يراها الناظرون . وإنك لسوف تعرف بلا انخداع أن الاتضاع المقدس موجود فيك إذا صرت في كثرة نور لا يوصف وفي عشق للصلاة لا ينطق به . وقبل البلوغ الى هذه الحال إذا بقي قلبك سليماً لا يثلب هفوات الآخرين . ويسبق ذلك كله مقت لكل عُجب .

٢٨ ـ من عرف ذاته وميّز كل شعور من مشاعر نفسه فقد زرع في الأرض . ومن لم يزرع على هذه الصورة فلن يزهر التواضع فيه .

٢٩ ـ من عرف ذاته حصل على روح مخافة الرب ، ومتى سلك بموجب هذا الروح وصل سريعاً الى باب المحبة .

٣٠ ـ إن تواضع القلب هو باب الملكوت يولج أخصاءه الى داخله . وأعتقد أن الرب أنما يقصد الداخلين من هذا الباب حين يقول : « يدخل ويخرج » من الدنيا بلا خوف « ويجد مرعى » وخضرة في الفردوس . وجميع الذين جاؤوا الى الاسكيم الرهباني من غير هذا الباب «هم سراق له ولصوص » (١٥) .

٣١ ـ وعلينا نحن الساعين الى التواضع ألا نكف عن تصفح ذواتنا . وإن كنا نشعر حقاً أن قريبنا يتقدمنا في كل شيء فرحمة الله قريبة منا .

٣٢ ـ كما لا يمكن أن تصدر النار من الثلج لا يمكن بالاكثر أن يسكن التواضع في غير مستقيمي الرأي . فإن التواضع يبلغه المؤمنون الاتقياء ، شرط أن يتطهروا من خطاياهم أولاً .

---

(١٢) مز ٦٠ : ٤ .
(١٣) انظر مز ٨٨: ٢٣ .
(١٤) ملامة النفس .
(١٥) يو ١٠ : ٨ ـ ٩ .

٣٣ - إن معظمنا يدعون ذواتهم خطأة ، ولعلهم يعتقدون ذلك فعلاً ، إلا أن الهوان هو الذي يمتحن القلب .

٣٤ - إن المسارع الى ميناء التواضع الهادىء لن يكف يوماً من أن يفكر ويتخيل ويبتكر طرائق مختلفة ، أقوالاً وأفكاراً وتصورات ، أبحاثاً واستقصاءات ، مساعي واختراعات ، نذوراً وصلوات ، محتالاً بكل سبيل لكيما بوسائل أوفر تذللاً وأكثر هواناً وبمعونة الله ينقذ سفينة نفسه من التعظم الدائم الهيجان . ذلك لأن من ينجو من التعظم يصبح كالعشار حسن الاستغفار في بقية خطاياه كلها .

٣٥ - يتخذ البعض من سيئاتهم السابقة ، حتى بعد غفرانها ، مدعاة للاتضاع يردعون به تعظمهم الباطل الى آخر حياتهم . وآخرون يذكرون آلام المسيح فيحسبون ذواتهم أنهم مدينون له أبداً . وغيرهم يذللون أنفسهم بسبب النقائص الحاصلة منهم كل يوم . وآخرون قد طرحوا عجرفتهم من جراء التجارب والهفوات العارضة لهم . وغيرهم امتلكوا أمّ المواهب (أي التواضع) لإقفارهم من المواهب . وهناك أيضاً أناس (إن وجدوا في أيامنا هذه) يضعون أنفسهم بمقدار ازدياد مواهب الله فيهم ، محتسبين أنهم غير مستحقين لثروة كهذه ومعتقدين أنهم يضيفون كل يوم على دينهم ديناً . هذا هو التواضع . هذه هي الغبطة . هذه هي الجائزة التامة .

٣٦ - متى رأيت راهباً أو سمعت عنه أنه قد اقتنى اللاهوى الاسمى في سنين قليلة فتحقق أنه لم يسلك طريقاً آخر غير هذا الطريق المغبوط والأقصر من كل الطرق الاخرى .

٣٧ - المحبة والتواضع زوج جليل طاهر لأن الاولى ترفع أما الثاني فيحفظ الذين ارتفعوا ولا يدعهم يوماً يسقطون .

٣٨ - الانسحاق يختلف عن معرفة الذات وكلاهما يختلف عن التواضع .

٣٩ - فالانسحاق وليد السقوط ، لأن من يسقط يتهشم فيقف في صلاته مكروباً بغير دالة ولكن بوقاحة ممدوحة متكئاً على عكاز الرجاء وطارداً به كلب اليأس .

٤٠ - أما معرفة الذات فهي إدراك المرء لمقدرته وذكر لا يهدأ لأصغر زلاته .

٤١ ـ وأما التواضع فعلم روحي يعلّمه المسيح للذين يؤهلون له وهو مدّخر عقلياً في خزانة نفوسهم ويتعذر تعبيره بأقوال حسية .

٤٢ ـ من يقول أنه يحس تماماً بشذا هذا الطيب ويتحرك قلبه للمدائح ولو يسيراً أو يفهم قوة أقوالها ، فلا يضلن فأنه مخدوع .

٤٣ ـ سمعت إنساناً يقول من كل قلبه : « لا لنا يا رب لا لنا بل لاسمك أعط المجد » (١٦) ، لأنه عرف أن طبيعتنا لا تلبث عادة غير متضررة من المديح ، « لأن منك قبلك هي مدحتي في جماعة عظيمة » (١٧) أي في الدهر الآتي لأني قبل ذلك الدهر لا أستطيع أن أحتمل المديح بدون خطر

٤٤ ـ إن كان منتهى الكبرياء وحدّها وحالها الأخير أن نتظاهر حباً بالمجد بفضائل ليست فينا، فالدلالة على منتهى عمق التواضع هي أن نُظهر بحضرة الناس عللا ليست فينا وذلك تذللا منا. هكذا صنع الذي تناول بيديه الخبز والجبن (١٨). . وهكذا صنع الذي نزع ثوبه متعرياً، وهو عفيف طاهر، وطاف المدينة، خالياً من الهوى (١٩). فأمثال هؤلاء لن يهتموا بالأ يعثروا أحداً إذ قد نالوا بصلاتهم قوة غير منظورة ليستميلوا إليهم كل أحد. أما من اهتم بعدم إعثار الناس فقد دل على إفتقاره الى تلك القوة. لأننا نستطيع أن نعمل كل شيء حيث يكون الله متأهباً لاستجابتنا.

٤٥ ـ انر بالحري أن تغم الناس ولا تحزن الله لأنه يفرح إذا رآنا ساعين وراء الهوان حتى نطرح غرورنا الباطل ونسحقه ونبيده .

٤٦ ـ إن الغربة القصوى توفر لنا مثل هذه الجهادات لأن العظماء وحدهم يحتملون الاستهزاء حقاً من أقربائهم ومعارفهم . لا نعجبن لهذا القول فإنه لم يقدر أحد يوماً على صعود سلم دفعة واحدة .

---

(١٦) مز ١٣ : ٩ .

(١٧) مز ٢١ : ٢٦ .

(١٨) الانبا سمعان الذي ركب الحائط بأكل خبزاً وجبناً هرباً من مدح السلطان القادم لمشاهدته .

(١٩) الانبا سرابيون . ولم يصنع في الحقيقة ذلك إنما عرضه بمثابة محكّ على الناسكة المدّعية العفة .

٤٧ ـ بهذا يعرف الجميع أننا تلاميذ الله (٢٠) : إذا كتبت أسماؤنا في سماء التواضع (٢١) لا إذا خضعت لنا الشياطين .

٤٨ ـ إن عدم الاثمار يرفع عادة أغصان شجر الليمون الى فوق ، أما إذا حُنيت إلى أسفل فتخصب سريعاً بالثمار . فمن يتأمل في ذلك يفقه معناه .

٤٩ ـ إن التواضع المقدس يقتني من عند الله قوة يرتقي بها المرء فيه ، فواحد يصعد الى الدرجة الثلاثين وآخر الى الستين وآخر الى المئة (٢٢) . فالدرجة الاخيرة يرتقي إليها المتحررون من الاهواء ، والدرجة الوسطى الشجعان ، أما الدرجة الاولى فيستطيع بلوغها الجميع .

٥٠ ـ من عرف ذاته لا يقدم أبداً على الاهتمام بما يفوق طاقته ، لكنه يستمر ثابتاً في درب التواضع المبارك .

٥١ ـ كما يروّع الباز العصافير كذلك تخيف المناقضة المتواضعين .

٥٢ ـ لقد وجد الكثيرون الخلاص خلواً من نبوءات واستنارات وآيات وعجائب ، ولكن لن يدخل أحد خدر العرس بدون الاتضاع . لأن هذا حفظ أولئك وبدونه صارت تلك سبباً لهلاك العادمي الفطنة .

٥٣ ـ لقد دبر الرب لأجل اتضاعنا أن لا يستطيع أحد معاينة جراحاته وعيوبه كما يراها قريبه ، فنضطر بالتالي إلى أن ننسب شفاءنا لا إلى ذواتنا بل إلى القريب وإلى الله .

٥٤ ـ يكره المتواضع مشيئته كرهه للضلال ، وفي توسلاته الى الرب بإيمان لا ريب فيه يتفقه فيعرف كيف يطيع وماذا ينبغي أن يعمل . وهو لا ينظر الى سيرة مرشديه بل يلقي همه على الله الذي علّم بلعام قديماً ما ينبغي أن يعمل بواسطة حمار . ومع أنه ينقاد بروح الله في كل ما يرتئي ويعمل وينطق فهو لا يثق بنفسه . لأن ثقة المتواضع بنفسه منخز له وعبء عليه كعبء محاورة الآخرين على المتكبر إذا فرضت عليه .

---

(٢٠) انظر يو ١٣ : ٣٥
(٢١) انظر لو ١٠ : ٢٠ .
(٢٢) أنظر متى ١٣ : ٩ .

٥٥ ـ يبدو لي أن الملاك وحده غير معرَّض للخطايا إذ إني أسمع الملاك الارضي نفسه يقول : « لست أشعر بشيء في ذاتي لكني لست بذلك مبرراً ، فالذي يحكم فيَّ هو الرب » (٢٣) . ولذلك ينبغي أن نحكم على أنفسنا وندمها دائماً كي نطرح عنا بتذللنا الاختياري خطايانا الكرهية . وإلا فسنحاسَب عليها محاسبة شاقة وكاملة عند خروجنا من الدنيا .

٥٦ ـ من يسأل الله نعماً دون استحقاقه فسينال لا محالة مننا فوق قدره . ويشهد بهذا العشار الذي التمس صفحاً فاقتبل تبريراً (٢٤) ، واللص الذي طلب ذكره في الملكوت فورث الفردوس كله (٢٥) .

٥٧ ـ كما لا يمكن أن ترى نار ، يسيرة كانت أم كبيرة ، في طبيعة أية خليقة ، كذلك لا يوجد في التواضع الصادق أي عنصر مادي (٢٦) . وما دمنا نسقط باختيارنا فهذا التواضع ليس فينا . لأن عدم السقوط هو علامة حضوره فينا .

٥٨ ـ إن السيد إذ علم أن فضيلة النفس تتأثر بالحشمة الخارجية اتزر بإزار (٢٧) وأرانا بذلك منهج طريق الاتضاع ، لأن النفس تتشبه بالهيئة الظاهرة وتتشكل بأعمال السيرة وتماثلها . فالرئاسة كانت سبباً لتشامخ أحد الملائكة ، مع أنه لم يقتبلها لهذه الغاية .

٥٩ ـ إن حال الجالس على عرش غير حال الجالس على مزبلة . ولعله لأجل هذا جلس ذلك الصدّيق الكبير على المزبلة خارج المدينة . لأنه امتلك حينذاك تواضعاً كاملاً وقال من كل قلبه : حقَرت ذاتي وذبت واحتسبت ذاتي تراباً ورماداً (٢٨) .

٦٠ ـ إني أرى أنه لم يخطأ أحد من الناس كما خطىء منسى الذي نجس هيكل الله وانتهك بالاصنام حرمته كلها . ولو صام العالم كله من أجله لما أمكنه أن يكفّر عن

---

(٢٣) اكو ٤ : ٤ .
(٢٤) لو ١٨ : ١٠ .
(٢٥) لو ٢٣ : ٤٣ .
(٢٦) أي هوى .
(٢٧) يو ١٣ : ٤ .
(٢٨) ايوب ١٣ : ٦ .

خطيئته . إلّا أن التواضع استطاع أن يشفيه من أسقام لا شفاء لها . هذا وقد قال داود لله « لو آثرت الذبيحة لكنت الآن أعطي لكنك لا تسر بالمحرقات » ، أي بالاجسام المضنية بالاصوام ، « فالذبيحة لله روح منسحق . . . » وما يتلو ذلك معلوم عند الجميع (٢٩) .

٦١ ـ هتف التواضع المغبوط الى الله يوماً بفم داود النبي بعد ارتكابه الفسق والقتل : « قد خطئت الى الرب » . فسمع سريعاً هذا القول : « الرب قد انتزع عنك خطيئتك » (٣٠) .

٦٢ ـ لقد علم آباؤنا الدائمو الذكر أن أتعاب الجسد طريق للتواضع وأساس له . أما أنا فأوصي بالطاعة واستقامة القلب اللتين تعارضان بطبيعتها الغرور .

٦٣ ـ إن كانت الكبرياء قد جعلت من بعض الملائكة أبالسة فلا جرم أن التواضع يستطيع أن يجعل من الشياطين ملائكة . ولذا فليثق الذين سقطوا ويتشجعوا .

٦٤ ـ لنبادر ونكافح بكل قوتنا لكي نصعد الى رأس هذه الفضيلة . والا فالى كتفيها على الأقل . وإن كنا نعجز عن ذلك فلا أقل من أن لا نهوي من أحضانها . لأني أعجب إن كان الساقط من أحضان التواضع يُرزق أية موهبة أبدية .

٦٥ ـ أوتار الاتضاع وسبله هي التالية ، ولكنها ليست بالضرورة علامات ثابتة لاقتنائه : الفاقة ، الغربة الخفية ، الحكمة المستورة ، بساطة الكلام ، التماس الصدقة ، كتمان حسن النسب ، إقصاء الدالة ، طرح الثرثرة .

٦٦ ـ لا شيء البتة يذلل النفس كالفاقة والاستجداء ، وتظهر حينذاك حكمتنا ومحبتنا لله إذ نكون قادرين على الترفع ونفر منه بغير التفات .

٦٧ ـ إن تهيأت لتقاتل هوى من أهوائك فاقتن التواضع حليفاً لك ، فإنه سوف يطأ الافعى والثعبان ويدوس الاسد والتنين (٣١) ، أعني الخطيئة واليأس والشيطان والجسد .

---

(٢٩) مز ٥٠ : ١٧ .
(٣٠) ٢ ملوك ١٢ : ١٣ .
(٣١) مز ٩٠ : ١٣ .

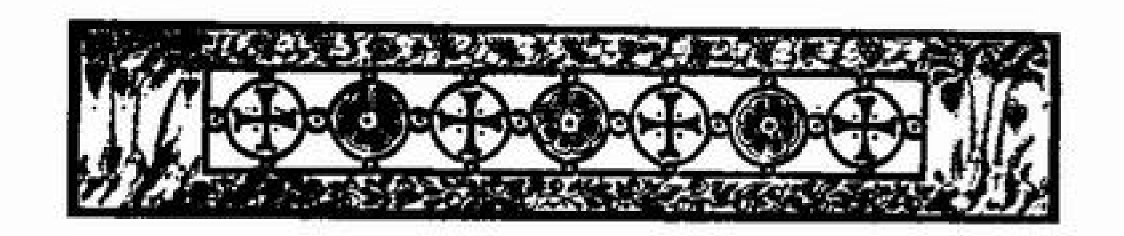
٦٨ ـ تواضع القلب « شاروق » سماوي قادر على رفع النفس من قعر الخطايا الى السماء .

٦٩ ـ عاين أحدهم جمال الاتضاع في قلبه فاشتمله الذهول ، ثم سأله عن اسم والده فابتسم له بابتهاج وسكون وقال : لماذا تطلب معرفة اسم والدي ؟ فانه ليس له اسم ، ولن أبوح لك به حتى تقتني الله فيك ، له المجد الى الأبد آمين .

هذه درجة خامسة وعشرون من صعدها فقد أباد أهواءه .

اللجة امّ الينبوع ، أما التواضع فينبوع التمييز .





المقالة السادسة والعشرون

في تمييز الافكار والاهواء والفضائل

١ ـ التمييز عند المبتدئين هو معرفة ذواتهم معرفة حقيقية . أما عند المتوسطين فهو حس داخلي لا يخطىء ، يميز السجية الصالحة حقاً عن السجية الطبيعية وعن السجية الرديئة . وأما عند الكاملين فهو معرفة ناتجة عن استنارة إلهية تستطيع أن تضيء بمصباحها ما هو مظلم عند الآخرين . ولعل تحديد التمييز بصورة عامة هو أنه معرفة ثابتة لمشيئة الله في كل ظرف وفي كل آن ومكان ، تتوفر فقط لأنقياء القلوب والاجساد والافواه .

٢ ـ من غلب بتقواه الاهواء الثلاثة (١) قهر معها الخمسة الأخرى (٢) ، ومن توانى في القضاء عليها لن يقهر غيرها أصلاً .

٣ ـ التمييز ضمير طاهر وحس نقي .

٤ ـ إذا سمع أحد أو أبصر في السيرة الرهبانية أمراً يفوق الطبيعة فلا يسقطن عن جهل في عدم التصديق إذ حيث يسكن الله الفائق الطبيعة تصير الاعمال فائقة الطبيعة .

٥ ـ إن القتالات الشيطانية تنشأ كلها فينا لأحد الاسباب العامة الثلاثة التالية : التواني والغرور وحسد الشياطين . فالمتواني يرثى له ، والمغرور شقي ، أما المحسود من الشياطين فمغبوط .

---

(١) الشراهة وحب المال والعُجب .

(٢) الزنى والغضب واليأس والضجر والكبرياء .

٦ - ليكن لنا ضميرنا بعد الله رقيباً ومرشداً ومقياساً في كل شيء ، حتى إذا عرفنا مهب الريح رفعنا قلوعنا مقابلها .

٧ - يعترضنا الشياطين في كل أعمالنا المرضية لله بحفرهم لنا ثلاث حفرات : الحفرة الاولى أنهم يحاولون منع قيام العمل الصالح أصلاً ، والثانية أنهم بعد فشلهم في مسعاهم الاول يجتهدون لحملنا على عدم إتيان ذلك العمل بقصد إرضاء الله . وإن أخفقوا في هذه المحاولة أيضاً يقفون بنا خلسة يطوبوننا على أننا نسلك في كل شيء بحسب رضى الله . أما المحاولة الاولى فنقاومها بالتيقظ وذكر الموت ، وأما الثانية فبالطاعة والانسحاق وأما الثالثة فبلوم ذواتنا على الدوام . وسوف يعترضنا هذا الجهاد الى أن تدخل نار الله مقدسنا (٣) ، حيث لا نعود بحاجة حينذاك الى أن نتحسب للخطايا لأن « إلهنا نار آكلة » (٤) تبيد فينا كل شهوة وانفعال وتخيل وقساوة وظلمة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، حسية أو عقلية .

٨ - أما الشياطين فيصنعون بنا عكس ما ذكر . لأنهم حين يستولون على النفس ويطفئون ضوء العقل لا يعود فينا نحن الاشقياء لا تيقظ ولا تمييز ولا معرفة ولا خجل بل جفاء وعدم احساس وعدم تمييز وعمى .

٩ - إن الذين استفاقوا من الزنى أو رجعوا عن الدالة أو تحولوا عن الوقاحة الى الاحساس يعرفون جيداً ما قلناه : كيف أنهم بعد إفاقة عقولهم وزوال تحجرهم بل زوال عماهم يخجلون من ذواتهم ، إذا جاز القول ، بسبب ما كانوا يقولون ويعملون في سلوكهم السابق .

١٠ - إن لم يمل نهار النفس الى المساء والظلمة لا يسرق السارقون ولا يذبحون ويُهلكون .

١١ - فالنفس تُسرق وتفقد فضيلتها حين تأتي أعمالاً رديئة كأنها غير رديئة ونحن مسبيون ولا نشعر . أما ذبح النفس فهو موت العقل لاستغراقه في أعمال منحرفة . وأما هلاكها فهو يأسها من ذاتها بعد انحرافها .

---

(٣) مزمور ٧٢ : ١٧ .
(٤) عب ١٢ : ٢٩ .

١٢ ـ لا يتذرعن أحد بعدم قدرته على إتمام وصايا الانجيل ، فإن البعض قد عملوا أكثر منها . ويُثبت لك هذا من أحب قريبه أكثر من ذاته وبذل نفسه عنه ، مع أن الرب لم يأمره بذلك (٥) .

١٣ ـ ليتشجع الذين استعبدتهم أهواؤهم ، لأنهم وإن كانوا قد سقطوا في كافة الحفرات واقتنصوا بسائر الفخاخ وانسقموا بكل الامراض فسيصيرون بعد تعافيهم مصابيح منيرة ومرشدين وأطباء للجميع يكشفون لهم أعراض كل مرض وينقذون بفضل تجربتهم من أشرف على السقوط .

١٤ ـ إن وجد رهبان لا تزال تتسلط عليهم عاداتهم السيئة لكنهم يستطيعون تعليم غيرهم ، ولو بمجرد الكلام ، فليعلّموا ، (ولكن دون أن يترأسوا) ، لعلهم يخجلون يوماً من أقوالهم فيشرعون بتطبيق ما يقولون ، أو يتم فيهم ما شاهدته في أناس متمرغين في الحمأة : فهؤلاء وهم عالقون بالطين كانوا يخبرون المجتازين بهم كيف غطسوا فيه ويرشدونهم لكي لا يسقطوا بدورهم في ذلك الطريق . ولأجل إنقاذهم غيرهم من تلك الحمأة فقد افتداهم الرب القادر على كل شيء . أما العالقون بأهوائهم يتهافتون على الملذات باختيارهم فليكن تعليمهم عن طريق الصمت ، لأنه قيل : « الأعمال التي ابتدأ يسوع يعملها ثم يعلم بها » (٦) .

١٥ ـ نعم أيها الرهبان المساكين نحن نجتاز لجة خطرة حقاً وحافلة بالارياح والصخور والدوامات والضحول (٧) ، والوحوش والقراصنة والاعاصير والامواج الكثيرة . أما الصخر فنقصد به الغضب الوحشي الذي يثور فينا على حين غرة . وأما الدوامة فهي عدم الرجاء يستولي على العقل ويحاول أن يهبطه الى قعر اليأس . وأما الضحل فهو جهلنا الذي يجعلنا نتمسك بالامور الرديئة كأنها صالحة . وأما الوحش فهو الجسد الكثيف الفظ . وأما القراصنة فهم دوافع الغرور الخطرة جداً التي تسلب حمولتنا وتعب فضائلنا كلها . وأما الموج فهو البطن الملآن المتخم الذي يدفعنا بنهمه

---

(٥) الانبا ليو الذي افتدى ثلاثة اسرى بشخصه (أنظر المرج الروحي ليوحنا موسخوص الفصل ١١١) .

(٦) ١ ع ١ : ١ .

(٧) الضحل هو الماء اليسير أو القريب القعر .

الى الوحش . وأما الاعصار فهو الكبرياء التي تطرحنا الى الاعماق بعد أن تصعدنا الى السماء .

١٦ ـ يعرف المتعلمون كافة أية دروس تناسب مستوى المبتدئين وأيها تناسب المتوسطين وأيها تناسب المعلّمين. فلنحترس ونحتط للأمر لئلا تطول دراستنا ونبقى رغم ذلك في طور إحكام حروف الهجاء. فإنه لعمري خزي كبير أن يرى شيخ ذاهباً الى المدرسة.

١٧ ـ وهذه هي حروف الابجدية الصالحة للجميع : طاعة ، صوم ، مسح ، رماد ، دموع ، إقرار بالهفوات ، صمت ، إتضاع ، سهر ، شجاعة ، برد ، تعب ، شقاء ، هوان ، إنسحاق ، عدم حقد ، محبة الاخوة ، لطف ، إيمان بسيط خال من الأبحاث الفضولية ، إقصاء الاهتمامات الدنيوية ، الابتعاد عن الوالدين دون مقتهما ، زهد ، بساطة وبراءة ، تذلل اختياري .

١٨ ـ أما الذين تقدموا في الفضيلة فهذا هو نظامهم ودليلهم : عدم الغرور ، عدم الغضب ، حسن الرجاء ، هدوء ، تمييز ، ذكر دائم للدينونة ، حنو ، محبة للغرباء ، تأديب الآخرين باعتدال ، صلاة خالية من الاهواء ، عدم محبة المال .

١٩ ـ وأما الكاملون في تقوى الروح والجسد فهذا هو نهجهم وحالهم وشرعهم : قلب حصين لا يسبى ، محبة كاملة ، ينبوع من التواضع ، عقل متغرب عن العالم ، سكنى المسيح فيهم ، ضوء صلاة لا ينطفىء ، كثرة الاشراق الالهي فيهم ، إشتياق الى الموت ، مقت للحياة الدنيا ، هرب من الجسد ، تشفع في العالم ، إقتسار لله ، الاشتراك مع الملائكة في عبادته تعالى ، لجة من المعرفة ، إدخار للأسرار ، إحتفاظ بما لا يباح به ، خلاص للناس ، سيادة على كل من الشياطين والاهواء والجسد ، تسلط على الطبيعة ، إقصاء للخطيئة ، بيت للاهوى ، تشبّه بالسيد بمعونة السيد .

٢٠ ـ حينما يمرض جسمنا نحتاج الى تيقظ بليغ لأن الشياطين متى أبصرونا مطروحين أرضاً ، عاجزين عن ممارسة أعمال النسك لمقاومتهم ، يعمدون الى محاربتنا بقسوة . فإن روح الغضب ، مع روح التجديف أحياناً ، يحوم حول المرضى المقيمين في العالم ، أما الخارجون عن العالم فإن كانت حوائج المعيشة متوفرة لهم يهاجمهم شيطانا

الشراهة والزنى ، وإن كانوا محرومين من كل تعزية يلازمهم روح الضجر الطاغي وروح عدم الشكر .

٢١ ـ شاهدت ذئب الزنى يزيد في أوجاع مريض ويسبب له حركات جسدية واحتلامات . وكان ذلك الجسم الهائج في وسط آلام شديدة مشهداً عجيباً . ورأيت مرضى طريحي الفراش تعزّيهم قوة الهية ، نظراً لتوبتهم وتوجّع قلبهم ، فيزيلون آلامهم بهذه التعزية حتى انهم لم يعودوا يريدون الشفاء من أمراضهم . وعدت فرأيت مرضى آخرين قد تحرروا من أحد الاهواء النفسانية بسبب مرضهم الذي كان بمثابة عقاب لهم ، فمجدت من طهّر حماة بحماة .

٢٢ ـ إن القلب ، كونه روحياً في الأصل ، ينطوي على حس روحي . فلا نتوقفن عن طلب استعادة هذا الحس (الذي هو فينا وليس فينا في آن واحد) . فإنه إذا عاد وظهر فينا فسيبطل تلقائياً ولا شك تأثير الحواس الخارجية علينا . هذا ما علّمه أحد الحكماء فقال : « وستجد فيك حساً الهياً » (٨) .

٢٣ ـ ليكن سلوكنا في السيرة الرهبانية (حتى لا أقول في السيرة الملائكية) من كل القلب ، سواء في الاعمال أو الاقوال أو الافكار أو الحركات ، وإلا فليست هي سيرة رهبانية .

٢٤ ـ عناية الله شيء ونصرته شيء آخر ، وكذلك حمايته ورحمته وتعزيته . فعنايته تظهر في الخليقة كلها . أما نصرته ففي المؤمنين فقط ، وحمايته في المؤمنين حقيقة ، ورحمته في خدامه ، وتعزيته في محبيه .

٢٥ ـ قد يكون دواء ما لأحد الناس سمًّا لغيره ، وقد يكون هذا الدواء نفسه سمًّا لهذا الانسان عينه إذا تناوله في غير وقته .

٢٦ ـ رأيت طبيباً جاهلاً قد حقّر مريضاً متهشماً فأوقعه في اليأس . وشاهدت طبيباً بارعاً طبب بالهوان قلباً متشامخاً متكبراً ففرّغ منه كل نتن .

٢٧ ـ رأيت مريضاً يعمد حيناً الى شرب دواء الطاعة فينشط ويعمل بلا هوادة في

---

(٨) القديس نيلوس السينائي (على الاغلب) .

سبيل تنقية ذاته ، ولكنه يلبث حيناً آخر ساكناً بلا حراك من جرّاء مرض عين نفسه . فمن له اذنان للسمع فليسمع .

٢٨ ـ يوجد أناس (ولست أعرف السبب لأني لم أعتد أن أتطاول وأفحص مواهب الله) يجنحون بطبعهم ، إذا جاز القول ، إلى الاعتدال أو الطهارة أو الهدوء ، أو الاحتشام أو الوداعة أو التخشع . ويوجد آخرون تعاندهم طبيعتهم عينها في اقتناء هذه المناقب فيغصبون ذواتهم على ممارستها قدر طاقتهم ، ورغم أنهم يفشلون أحياناً فاني أجلّهم أكثر من الاولين لأنهم يقسرون طبيعتهم .

٢٩ ـ لا تتباه أيها الانسان بثروة حزتها بلا تعب ، فأن معطي المواهب سبق فعلم ضعفك الجم وعجزك وانحلالك فشاء أن يخلصك مجاناً بعطاياه .

٣٠ ـ إن تربيتنا ، مع ما يرسخ فينا من عادات ومعلومات في سن الطفولة ، تقاومنا متى كبرنا وتعيق سعينا في الفضيلة والسيرة الرهبانية .

٣١ ـ الملائكة نور للرهبان ، وسيرة الرهبان نور للناس أجمعين . فليجتهد الرهبان إذاً ليصيروا في كل شيء مثالاً صالحاً ولا يكونوا عثرة لأحد (٩) في كل ما يعملون ويقولون لأنه « إذا كان النور ظلاماً فالظلام كم يكون » (١٠) .

٣٢ ـ إن سمعتم مشورتي (يا من تريدون أن تسلكوا هذا الطريق) فيجدر بنا أن لا ننهمك فنقسّم نفسنا في محاربة الالوف والربوات من الاعداء (١١) لأننا لا نقدر أن ندرك أنواع مكرهم كلها ولا أن نتبينها .

٣٣ ـ بمعونة الثالوث القدوس لنتدرع بالثلاثة لمحاربة الثلاثة (١٢) ، وإلا فنسبب لأنفسنا أتعاباً جزيلة .

٣٤ ـ إن كان يسكن فينا حقاً «مَن حوّل البحر الى يبس» (١٣) فإن إسرائيلنا ،

---

(٩) ٢ كو ٦ : ٣ .

(١٠) متى ٦ : ٢٣ .

(١١) مز ٩٠ : ٧

(١٢) أي لنحارب الشهوة بالامساك ، وحب المال بحب الله ، والغرور بالتواضع . وفي تفسير آخر : الفقر والعفة والطاعة مقابل حب المال واللذة والتسلط .

(١٣) مز ٦٥ : ٦ .

وأقصد به عقلنا المعاين لله ، سوف يعبر البحر هادئاً سالماً لا محالة ويشاهد المصريين غارقين في مياه دموعه . وإن لم يكن ذاك فينا فمن يستطيع أن يحتمل دوي أمواج (١٤) ذلك البحر ، أعني به الجسد ؟

٣٥ ـ إن قام الله فينا من جراء جهادنا فسيبدد أعداءه . وإن أقتربنا إليه بالمعاينة العقلية فسيهرب مبغضوه من أمام وجهه ووجهنا (١٥) .

٣٦ ـ لنجتهد أن نتعلم الالهيات بالاتعاب والاعراق لا بالكلام فأننا في وقت خروجنا من الدنيا لا نحتاج الى تقديم أقوال بل أفعال .

٣٧ ـ أن الذين يسمعون بوجود كنز في مكان ما يفتشون عنه ، وإذا عثروا عليه بتعب يحرصون على الاحتفاظ به . أما الذين يغتنون بلا تعب فيبددون ثروتهم سريعاً .

٣٨ ـ إن التغلب على النقائص المتأصلة في الانسان أمر صعب جداً . أما الذين لا يكفون عن إضافة نقائص جديدة على نقائصهم السابقة فإما أن يكونوا قد يئسوا من أنفسهم أو انهم لم ينتفعوا من زهدهم شيئاً . لكنني أعلم أن الله قادر على كل ما يشاء وانه لا يتعذر عليه شيء .

٣٩ ـ سألني بعضهم سؤالاً صعباً يفوقني وأمثالي ولا يحتويه أي كتاب من الكتب الواصلة اليّ فقالوا : ما هي أولاد كل من الرذائل الثمانية ؟ أو أي الرذائل الثلاث الكبرى تلد الخمس الباقية ؟ ولما أحترت وتذرعت بجهلي تعلمت من أولئك الابرار ما يلي : الشراهة هي امّ الزنى . والعُجب ابو الضجر . والحزن ، مع الغضب أيضاً ، إبن الثلاث الباقية (١٦) . والعُجب أبو الكبرياء أيضاً .

٤٠ ـ ثم توسلت الى اولئك الدائمي الذكر أن أعرف أيضاً أولاد الثمانية كلها وولد كل منها ، فعلّمني بلطف كثير أولئك المتحررون من أهوائهم قائلين : ليس للأهواء الغاشمة نظام أو ترتيب بل كلها تشويش وبلبلة . وثبّت المغبوطون قولهم هذا ببراهين مقنعة مقدمين أمثالاً كثيرة أوردنا بعضها في هذه المقالة كمقياس للأمثال الاخرى .

---

(١٤) مز ٦٤ : ٨ .

(١٥) مز ٦٧ : ١ .

(١٦) الكبرياء وحب المال والكسل .

٤١ ـ وهكذا فإن الضحك في غير وقته يتولد أحياناً من الزنى وأحياناً من العُجب إذا ما كرّم أحد ذاته متظاهراً بالوقار بلا خجل .

٤٢ ـ والنوم الكثير ينجم حيناً عن التنعم وحيناً آخر عن الصوم إذا تفاخر الصائم بصومه ، وحيناً عن الضجر وحيناً آخر عن الطبيعة .

٤٣ ـ وتأتي الثرثرة من العجب أحياناً ومن الشراهة أحياناً أخرى .

٤٤ ـ والضجر ثمر التنعم حيناً وثمر عدم خوف الله حيناً آخر .

٤٥ ـ والتجديف ابن الكبرياء بالدرجة الاولى ولكنه كثيراً ما يتولد من الادانة الخفية للقريب أو من حسد الشياطين الغاشم .

٤٦ ـ وقساوة القلب تنتج عن الشبع وعن عدم الحس وعن التعلق بالاشياء أحياناً كثيرة ، والتعلق بالاشياء ربما يتولد من الزنى أو من العجب أو من أسباب أخرى كثيرة .

٤٧ ـ وينجم الخبث عن الغرور والغضب .

٤٨ ـ وتأتي المراءاة من الرضى عن الذات واتباع المشيئة الذاتية .

٤٩ ـ أما الفضائل المناقضة لهذه الرذائل فتتولد من أضداد أسبابها ، ولئلا يطول الشرح (لأن الوقت قد يضيق بي إن شئت أن أفحص عنها واحدة فواحدة) فإن التواضع يبيد أصلاً الاهواء المذكورة كلها ، والذين اقتنوه قد قهروها بأسرها .

٥٠ ـ والدا الشرور كلها اللذة والخبث ، فمن حواهما لن يعاين الرب . هذا ولن ينفعنا طرح اللذة شيئاً ما لم نطرح الخبث أيضاً معها .

٥١ ـ ليكن لنا خوف الرؤساء والوحوش مثالاً لخوف الرب . وليصر عشق الأجساد مثالاً للشوق الى الله . إذ ليس ما يمنع من استخدام الرذائل كأمثلة للفضائل .

٥٢ ـ لقد فسد الجيل الحاضر فساداً مريعاً وامتلأ كله غروراً ورياء . فقد لا يزال يمارس أتعاباً جسدانية نظير آبائنا القدماء لكنه غير اهل لمواهبهم . مع أن طبيعتنا في نظري لم تحتج يوماً الى المواهب كاحتياجها إليها الآن . وقد أصابنا هذا بعدل لأن الله لا

يتجلى في الأتعاب بل في البساطة والاتضاع. وإذا كانت قوة الله فينا وبالضعف تكمل »[١٧] فلن يرذل المجاهد المتضع[١٨].

٥٣ ـ إذا رأينا أحد مجاهدي المسيح مصاباً بداء جسداني فلا نحاولن بخبث معرفة سبب مرضه بل فلنسلّم بالامر الواقع ونجتهد بالحري أن نشفيه بمحبة بريئة وبساطة كعضو منا وكجندي رفيق لنا قد جرح في الحرب .

٥٤ ـ رُبَّ مرض كان للتنقية من الزلات ورُبَّ آخر لتذليل الذهن .

٥٥ ـ إن سيدنا وربنا الكلي الصلاح اذا رأى البعض متكاسلين في النسك ألى الغاية يذلّل أجسادهم بأحد الأمراض بمنزلة نسك بلا تعب، ولربما طهّر به نفوسهم أحياناً من الافكار الشريرة والاهواء.

٥٦ ـ إننا نقبل كل ما يعرض لنا من أمور منظورة وغير منظورة إما قبولاً حسناً أو بهوى أو بين بين . فإني رأيت ثلاثة أخوة يعاقبون فالاول اغتاظ والثاني لم يغتم وأما الثالث فاجتنى من عقابه فرحاً كثيراً .

٥٧ ـ أبصرت فلاحين يلقون في الارض نوعاً واحداً من البذار إلا أن كلاً منهم قصد من زرعه غرضاً خاصاً به . فالواحد كان غرضه أن يوفي ديونه ، والآخر أن يجمع ثروة ، وغيره أن يكرم سيده بالهدايا ، وآخر أن يتصيد بحسن عمله مديحاً من المُجتازين في طريق العمر ، وغيره أن يحزن عدوه الذي يحسده ، وغير هؤلاء أن لا يلومه الناس على بطالته . وهذه أسماء البذار الذي ألقاه الفلاحون في الأرض : صوم وسهر وصدقة وخدمة وما الى ذلك . فليفحص كل أخ قصده بعناية في ضوء مشيئة الرب .

٥٨ ـ كما أننا نستقي من البئر ضفدعاً مع الماء أحياناً ، على غير انتباه منا ، كذلك كثيراً ما نصنع الرذائل مضفورة مع الفضائل بصورة غير منظورة . فإن الشراهة مثلاً تختلط مع ضيافة الغرباء ، والزنى مع المحبة ، والدهاء مع التمييز ، والخبث مع الفطنة . ثم يندسّ مع الوداعة كل من الغش والمماطلة والبلادة والمحاججة واتباع المشيئة الذاتية وعدم الطاعة ، ومع الصمت ادعاء العلم ، ومع الفرح الغرور ، ومع الرجاء التواني ومع المحبة الادانة ، ومع الهدوء الضجر والكسل ، ومع الطهارة الحدة ،

(١٧) ٢ كو ١٢ : ٩ .

(١٨) انظر مز ٥٠ : ١٧ .

ومع التواضع الدالة . ويرافق العجب هذه الفضائل كلها بمنزلة مرهم بل سمّ مشترك يطليها .

٥٩ ـ لا نغتمن إذا التمسنا من الرب نعمة ما طيلة فترة من الزمن ولم نُستجب فإن الرب يودّ لو يصير جميع الناس عادمي الاهواء في لحظة واحدة لكنه يعرف بسابق معرفته أن هذا ليس لصالحهم .

٦٠ ـ كل الذين يسألون الله أمراً ولا ينالونه لا يستجابون لأحد الاسباب التالية : إما لكون سؤالهم سابقاً لأوانه ، أو لأنهم يطلبون بعجب ما هم غير أهل له ، أو لكونهم عتيدين أن يتكبروا إذا بلغوا مرادهم ، أو لكونهم بعد امتلاك سؤالهم سيجنحون الى التواني .

٦١ ـ لا يشك أحد في أن الشياطين والاهواء تنصرف عن النفس إما انصرافاً وقتياً أو انصرافاً دائماً ، ولكن قليلين يعرفون أسباب انصرافها عنا .

٦٢ ـ فقد تنصرف الاهواء كلها عن بعض المؤمنين ، بل عن غير المؤمنين أيضاً ، ما عدا هوى واحد تخلفه وراءها بمنزلة أمير يحل مكانها كلها ، ما دام يستطيع بشرّه أن يهبط المرء حتى من السماء .

٦٣ ـ وقد تُستأصل مادة الاهواء الخسيسة وتُفنى بنار إلهية آكلة فتطهر النفس وتنصرف عنها الأهواء كلها ، إلا إذا عدنا فاجتذبناها إلينا بالتواني والسيرة العالمية .

٦٤ ـ وقد ينصرف الشياطين عنا من تلقاء أنفسهم لكي يوحوا إلينا بالاطمئنان ثم يسبون نفسنا الشقية على حين غرة .

٦٥ ـ وأعرف لهؤلاء الوحوش انصرافاً غير هذا ، فإنهم ينصرفون عن النفس بعد أن تعتاد الشر إعتياداً تاماً وتصبح متمكنة في الاهواء كل التمكن ، فتصير مضلة ومحاربة لذاتها . والاطفال مثال لذلك إذ انهم بعد اعتيادهم الرضاعة زماناً طويلاً يمصون أصابعهم بدلاً من الثدي .

٦٦ ـ وأعرف أيضاً حالة خاصة من اللاهوى في النفس ناتجة عن بساطة كثيرة في

الشر وبراءة ممدوحة لأن معونة الله مخلص مستقيمي القلوب (١٩) متوفرة لهؤلاء بحق وهي تنجيهم من الشرور دون أن يحسوا بها ، ما دام الاطفال عند تعريتهم من ثيابهم لا يعون عريهم أصلاً .

٦٧ ـ ليس في طبيعتنا رذيلة أو هوى في الاصل لأن الله لم يخلق الاهواء بل أوجد فينا فضائل طبيعية كثيرة ومنها بدون شك : الرحمة ، إذ إن الوثنيين أنفسهم يتحننون ويشفقون ، ثم المحبة ، لأن البهائم العديمة النطق كثيراً ما تدمع على فراق رفيقاتها ، ثم الايمان ، لأننا نجد أنفسنا جميعاً مفطورين عليه ، ثم الرجاء ، إذ اننا على رجاء الانتفاع نقرض ونقترض ، ونزرع ، ونسافر . . فإن كانت المحبة فضيلة طبيعية فينا على ما تبين ، وهي « رباط الشريعة وكمالها » (٢٠) ، فالفضائل بالتالي ليست بعيدة عن طبيعتنا ، فليخز إذاً الذين يحتجون بعدم قدرتهم على اكتسابها .

٦٨ ـ أما المناقب الفائقة الطبيعة فهي الطهارة وعدم الغضب والتواضع والصلاة والسهر والصوم ونخس القلب المتواصل . وهذه يعلّمنا بعضاً منها الناس ، وبعضاً آخر الملائكة . أما البعض الباقي فالإله الكلمة هو معلمها ومعطيها .

٦٩ ـ وعلينا عند الاضطرار أن نقايس بين الشرور ونختار أخفها . مثالاً على ذلك كثيراً ما نكون قائمين بالصلاة فيأتينا أخوة فنضطر الى ترك الصلاة أو الى إحزان الأخ وردّه خائباً . فالمحبة أعظم من الصلاة لأن الصلاة وصية جزئية أما المحبة فتشمل الفضائل كلها ولا تتعارض وإياها .

٧٠ ـ لما كنت شاباً يافعاً ذهبت مرة إلى إحدى القرى ، وعند جلوسي للطعام داهمني كل من العُجب والشراهة فخشيت عاقبة الشراهة وآثرت الانغلاب للعجب إذ عرفت أن روح الشراهة كثيراً ما يغلب روح العجب عند الشباب ، وليس هذا بمستغرب لأن الشراهة عند الرهبان هي أصل الشرور على غرار محبة المال عند أهل العالم .

٧١ ـ كثيراً ما يستبقي الله عند الروحانيين أهواء خفيفة الوطأة ، وذلك تدبيراً منه

---

(١٩) مز ٧ : ١٠ .

(٢٠) افسس ٤ : ٣ وكو ٣ : ١٤ ورو ١٣ : ١٠ .

لكيما يؤنبوا ذواتهم بشدة على بعض النواقص الطفيفة الخالية من الخطيئة فيمتلكوا ثروة من التواضع لا تسلب .

٧٢ ـ يتعذر اقتناء التواضع على من لا يسلك طريق الطاعة في بدء رهبانيته ، إذ إن كل من يتعلم صناعة من غير معلم يغتر بنفسه .

٧٣ ـ يحدد الآباء أن الجهاد الرهباني يقوم على فضيلتين عامتين شاملتين أكثر من كل الفضائل (٢١) وذلك بحق لأن الواحدة تقصي الملذات والاخرى تثبّت بالتواضع إقصاءها . أما النوح فله ذلك الفعل المضاعف إذ يقصي الخطيئة ويولدّ التواضع .

٧٤ ـ الاتقياء يلبّون كل من يسألهم ، ومن هم أكثر تقى يجودون حتى على من لا يسألهم . ولعل الذين بلغوا اللاهوى وحدهم لا يسترجعون متاعهم عن أخذه منهم ، لا سيما إن كانوا قادرين على ذلك .

٧٥ ـ لا نكفن عن فحص ذواتنا في جهاد الاهواء والفضائل متسائلين أين نحن : أفي البداية أم في منتصف الطريق أم في النهاية ؟

٧٦ ـ إن كافة القتالات التي تثيرها الشياطين علينا تنجم عن أحد أسباب ثلاثة : إما عن حب اللذة أو عن حسد الشياطين . فالذين يحسدهم الشياطين مغبوطون ، والمغرورون اشقياء ، ومحبو اللذة باطلون لا يصلحون للشيء .

٧٧ ـ يوجد حس أو بالاحرى سجية تسمى الصبر على الاتعاب واحتمال المشقات ومن تملكته لا يعود يخشى أي تعب أو ألم ولا يحجم عنه البتة . وبهذه الشيمة المأثورة تأيدت نفوس الشهداء فازدروا العذابات واحتملوها بأيسر مرام .

٧٨ ـ رصد الأفكار غير حفظ القلب ، وبمقدار بعد المشرق عن المغرب (٢٢) يعلو الثاني على الاول ، وإن كان الاول أوفر تعباً .

٧٩ ـ الابتهال من أجل التخلص من الافكار ، غير الاعتراض لها ، والاعتراض لها غير ازدرائها والإعراض عنها . فالنهج الاول يشهد به القائل : « اللهم بادر الى

---

(٢١) هما الصوم والطاعة .

(٢٢) مز ١٠٢ : ١٢ .

معونتي . . » (٢٣) وما شابه هذا القول . والنهج الثاني يشهد به القائل : « سأجيب الذين يعيّرونني» (٢٤) ، وأيضاً « جعلتنا مقاومة لجيراننا » (٢٥) . أما النهج الثالث فيشهد به من ترنم قائلاً : « اعتقل لساني ولم أفتح فمي » (٢٦) ، و« وضعت حارساً لفمي حينما وقف الخاطىء قبالتي » (٢٧) ، وأيضاً « المتكبرون تمادوا في المعاصي أما أنا فلم أجنح عن شهاداتك » (٢٨) . فمن اعتمد النهج الوسط (مقاومة الافكار) يحتاج أن يلجأ الى النهج الاول (الصلاة) مراراً كثيرة حين يفاجأ بالافكار وهو على غير استعداد . أما من توقف عند النهج الاول فلا يقوى على استخدام النهج الثاني لصّد أعدائه . وأما من بلغ النهج الثالث (ازدراء الافكار) فقد بصق على الشياطين وازدراهم كل الأزدراء .

٨٠ ـ لا يجدّ جسد ما لا جسد له ، ولكن كل شيء مستطاع لمن يقتني الله .

٨١ ـ كما يستطيع ذوو حاسة الشم السليمة معرفة حامل الطيوب سرًّا مهما أخفاها ، كذلك تعرف النفس النقية وتتبين في الآخرين الطيب الذي اقتنته هي من لدن الله او النتانة التي تخلصت منها ، وان كان غيرها لا يشعر بذلك .

٨٢ ـ ليس من الممكن ان يصير الجميع عادمي الاهواء لكنه من الممكن ان يخلص الجميع ويتصالحوا مع الله .

٨٣ ـ لا تستولينّ عليك تلك الافكار الغريبة التي تجنح بك الى الفحص عن أحكام الله الغامضة ، او عن الرؤى الممنوحة لبعض الناس ، موحية اليك خفية بأن الرب يحابي الوجوه ، فانها ثمرة الغرور وبه تعرف وتتسم .

٨٤ ـ كثيراً ما يتظاهر شيطان حب المال بالتواضع . اما شيطان العجب ، ومثله شيطان اللذة ، فيحثنا على الاحسان . فان تحررنا من كليهما فلا نكفن عن اعمال الرحمة

---

(٢٣) مز ٦٩ : ١ .
(٢٤) مز ١١٨ : ٤٢ .
(٢٥) مز ٧٩ : ٧ .
(٢٦) مز ٣٨ : ١٠ .
(٢٧) مز ٣٨ : ٢ .
(٢٨) مز ١١٨ : ٥١ .

اينما كنا .

٨٥ ـ قال البعض ان هناك شياطين يعاندون شياطين آخرين ، ولكني علمت انهم جميعا يسعون لإهلاكنا.

٨٦ ـ كل عمل روحي ، منظورا كان او عقليا ، يتقدمه عزم ملائم وشوق صالح ، وترافقه معونة الله . فان لم يسبق العمل الروحي عزم وشوق يلائمانه فلا تأتي معونة الله .

٨٧ ـ اذا كان لكل شيء تحت السماء وقت كما يقول الجامعة[٢٩] ، وسيرتنا الجليلة مشمولة بهذا القول ، فلنبحث ، ان شئتم ، ونطلب في كل وقت ما يناسبه . اذ ان للمجاهدين ولا شك وقتا للاهوى ووقتا للأهواء ، اعني في « طفولتهم » ، ثم وقتا للدموع ووقتا لقساوة القلب ، وقتا للطاعة ووقتا للأمر والنهي ، وقتا للصوم ووقتا لتناول الطعام ، وقتا لحرب الجسد اللدود ووقتا لخمود ثورته ، وقتا للعواصف النفسية ووقتا لسكون الروح ، وقتا لحزن القلب ووقتا للفرح الروحي ، وقتا للتعليم وآخر للاستماع ، وقتا للمصارعة وآخر للراحة والامان ، وقتا للهدوء وآخر لتعاطي الاشغال بغير تشتت ، وقتا للصلاة المتواصلة وآخر للخدمة الصادقة . فلا تخدعنا غيرة متكبرة فنطلب الشيء قبل اوانه . لا نطلبن في الشتاء ما يجنى في الصيف ، ولا في اوان البَذر ما يوافق اوان الحصاد، اذ لنا وقت نزرع فيه الاتعاب وآخر نحصد فيه عطايا النعمة التي لا توصف . والاّ فلن نجتني ثمار كل وقت حتى في اوانه .

٨٨ ـ لقد حصل البعض ، بتدبير الهي لا يوصف ، على الثواب الجليل قبل تجشمهم الاتعاب ، والبعض الآخر اثناء الاتعاب ، وغيرهم بعد الاتعاب ، وآخرون في ساعة الموت فقط . ترى من هم الاكثر تواضعا بين هؤلاء ؟

٨٩ ـ هناك يأس ناتج عن ثقل خطايا وتعب ضمير وحزن لا يحتمل من جراء اثخان النفس بجراحات كثيرة تغرق تحت وطأتها في قعر القنوط . وهناك يأس آخر نقع فيه بسبب الكبرياء والغرور اذا احتسبنا اننا لا نستوجب السقطة العارضة لنا . فمن يراقب يتبين ما يميز كلا منهما : فالاول (يأس الخطايا) يؤول الى الاستسلام للامبالاة في

---

(٢٩) الجامعة ٣ : ١ .

السيرة النسكية ، والثاني (يأس الغرور) يفضي الى ممارسة اتعاب النسك كأنها بلا جدوى . الا ان الامساك عن الاهواء وحسن الرجاء يشفيان الاول ، اما الثاني فيشفيه التواضع وعدم ادانة احد .

٩٠ ـ لا ندهش او نستغرب اذا رأينا اناساً يفعلون الشر وهم يتكلمون بالخير . فان الغرور والتكبر أسقطا الحية حتى في الفردوس .

٩١ ـ ليكن لك حداً وقانونا في كل ما تمارسه سواء كنت عائشا في الطاعة ام خارج الطاعة ، وسواء في اعمالك الخارجية او الداخلية ، ان تنظر هل انت سالك حقا بحسب مشيئة الله ؟ مثالا على ذلك اذا اتينا عملا ، صغيرا كان ام كبيرا ، ولم نكتسب منه مزيدا من التواضع فلست اظن اننا فعلناه بحسب مشيئة الله . لأن النمو في الاتضاع عندنا نحن المبتدئين هو علامة السعي بحسب مشيئة الرب . ولعل العلامة عند المتقدمين هي انقطاع القتالات عنهم . اما عند الكاملين فهي تكاثر النور الالهي وفيضه فيهم .

٩٢ ـ قد تكون الأمور الصغيرة غير صغيرة في نظر الأعظمين. اما في نظر الأصغرين فالامور الكبيرة ليست كاملة كل الكمال.

٩٣ ـ اذا جلت الغيوم عن السماء سطعت الشمس ، واذا تحررت النفس من النقائص واستحقت الغفران ابصرت نور الله .

٩٤ ـ الخطيئة شيء والبطالة شيء آخر ، كذلك كل من التواني ، والهوى ، والسقطة . والقادر ان يفسر هذا الامر بوضوح بنعمة الرب فليفعل .

٩٥ ـ يغبط البعض موهبة اجتراح العجائب وغيرها من المواهب الروحية الظاهرة اكثر من كل شيء آخر ، وقد غاب عن بالهم ان مواهب كثيرة خفية تفوق تلك ، ولذلك تبقى في منأى عن السقوط .

٩٦ ـ من تنقى تنقية كاملة يبصر نفس قريبه في اية حالة هي دون ان يبصر النفس عينها ، اما من لا يزال في طور التنقية فيستدل على حال النفس من خلال الجسد .

٩٧ ـ كما ان نارا قليلة تأتي مرارا كثيرة على غابة بأكملها كذلك ثقب صغير يضيع كل تعبنا .

٩٨ ـ قد تؤول راحة الجسد احيانا الى إذكاء قوة العقل ولا توقد نار الشهوة فينا ، بينما إرهاق الجسد احيانا يحركه علينا ، وذلك لئلا نكون متكلين على انفسنا [٣٠] بل على الله الذي يميت بصورة خفية الشهوة الحية فينا .

٩٩ ـ اذا رأينا اناسا يحبوننا في الرب فلنزدد احتراسا لئلا تقوم بيننا وبينهم دالة اذ لا شيء كالدالة يقضي على الحب ويحل البغض مكانه .

١٠٠ ـ ان عين النفس شفافة ونافذة جدا تفوق نضارة كل الخلائق الاخرى ما خلا العادمي الاجساد . ولذا كثيرا ما يستطيع الناس الذين هم عرضة للأهواء معرفة الافكار الخاطرة في نفوس غيرهم وذلك من تلقاء كثرة حبهم لهم ، خاصة اذا كانوا لم ينحرفوا ويتدنسوا بحمأة الجسد . فان كانت الطبيعة غير المادية لا يقاومها شيء مثل الطبيعة المادية فليفهم القارىء .

١٠١ ـ ان العوائد الشعبية التي تستهدف معرفة المستقبل تعاند عناية الله السابقة المعرفة ، فضلا عن انها عندنا (نحن الرهبان) تنافي المعرفة الروحية .

١٠٢ ـ فليدرك مرضى النفوس إفتقاد الرب لهم من خلال حالة أجسادهم والشدائد والتجارب الخارجية التي تنتابهم، وأما الكاملون فليعلموا ذلك من حضور الروح القدس فيهم وازدياد مواهبهم .

١٠٣ ـ يوجد شيطان يوافينا عند استلقائنا على فراشنا ويرشقنا بأفكار رديئة دنسة اذ اننا نكسل ونحجم حينذاك عن التدرع عليه بالصلاة فنرقد في افكار قبيحة وتتراءى لنا احلام نجسة .

١٠٤ ـ ويوجد شيطان يسمى السابق يداهمنا فور استيقاظنا من النوم ويدنس اول فكر لنا . فأعط انت للرب باكورة نهارك لأنه سيكون بأكمله لمن يتلقاها اولا . وقد اسرّ لي مجاهد فاضل قولا جديرا بالذكر فقال : « انني من خلال صباحي الباكر

---

(٣٠) ٢ كو ١ : ٩ .

اعرف مجرى نهاري كله » .

١٠٥ - كثيرة هي الطرق المؤدية للخلاص او للهلاك . ولذلك كثيرا ما يحدث ان ما لا يناسب الواحد يوافق الآخر ، وقصد كليهما مرضي عند الله .

١٠٦ - يبذل الشياطين جهدهم عند ابتلائنا بالمحن ليجعلونا نقول او نعمل ما لا يليق، وعند عجزهم عن ذلك يوحون الينا خلسة ان نشكر الله بتكبر.

١٠٧ - الذين وضعوا قلوبهم فوق ، متى توفوا تصعد نفوسهم الى فوق . والذين وضعوا قلوبهم اسفل فالى اسفل ينزلون . لأنه ليس لنفوس الراقدين مكان آخر بين هذين . ان النفس وحدها بين سائر المخلوقات خلقت قائمة في غيرها (اي الجسد) وليس في ذاتها . وانه لأمر عجيب ان تثبت كائنة خارج الجسد الذي أوجدت فيه.

١٠٨ - البنات الورعات تلدهن الأمهات ، اما الأمهات فيلدهن الرب [٣١] . ومن الحكمة ان يجري هذا النسق على الرذائل اضداد هذه الفضائل[٣٢] .

١٠٩ - ان موسى بل الله نفسه يأمر بأن لا يخرج جبان الى الحرب لئلا تصير له الضلالة الأخيرة النفسية شرا من السقطة الاولى الجسدية ، وذلك بعدل وحق [٣٣] .

عينا الجسد نور لسائر الاعضاء ، وتمييز الفضائل نور للذهن .

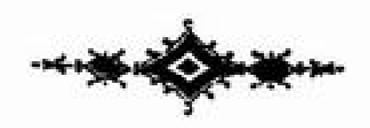


---

(٣١) يعني ان الايمان والرجاء والمحبة هي الفضائل العامة التي تلد بقية الفضائل وان الله هو مولدها فينا .

(٣٢) يعني ان الشراهة وحب المال والعجب هي الرذائل العامة التي تلد الرذائل الخاصة وابليس هو ابوها .

(٣٣) انظر تثنية الاشتراع الاصحاح ٢٠ .



المقالة السادسة والعشرون نفسها : القسم الثاني

فصل في صواب التمييز

١١٠ ـ كما يشتاق الأيل الظمآن الى مجاري المياه[١] كذلك يشتاق الراهب الى معرفة المشيئة الالهية الصالحة ، وليس الى معرفتها فقط بل ايضا الى معرفة المشيئة المختلطة بين الصلاح والشر ، والمشيئة الشريرة المضادة . ولنا في هذا الموضوع العسير كلام جزيل بغية التمييز بين الاعمال التي يجب ان نباشرها سريعا دون اي إرجاء او إبطاء ، حسب رأي القائل : « الويل لمن يتباطأ يوما بعد يوم وحينا بعد حين »[٢] ، والاعمال التي ينبغي ان نقوم بها بتريث واحتراس حسب وصية القائل : « بالتدابير تعمل حربك »[٣] والقائل الآخر : « ليكن كل ما تعملونه بلياقة وترتيب »[٤] . لأنه ليس لكل الناس ، لا ليس لكل الناس اطلاقا ان يميزوا سريعا ويعرفوا مثل هذه الامور المعضلة على جليتها . فان داود نفسه المتوشح بالله والناطق بالروح كثيرا ما نراه يبتهل ملتمسا هذه الموهبة وقائلا حينا : « علمني ان اعمل رضاك لأنك انت هو الهي »[٥] ، وحينا آخر : « أرشدني الى حقك »[٦] ، وايضا « عرّفني يا رب الطريق التي اسلك فيها لأني اليك رفعت نفسي »[٧] متساميا بها فوق كل اهتمام دنيوي وكل هوى .

(١) مز ٤١ : ١ .
(٢) الجامعة ٥ : ٧ ـ ٨ .
(٣) امثال ٢٤ : ٦ و ٢٠ : ١٨ .
(٤) اكو ١٤ : ٤٠ .
(٥) مز ١٤٢ : ١٠ .
(٦) مز ٢٤ : ٥ .
(٧) مز ١٤٢ : ٨ .

١١١ ـ على الطالبين معرفة مشيئة الرب ان يميتوا مشيئتهم اولا ، وبعد ان يصلّوا الى الله بإيمان وبساطة خالية من الخبث ويسألوا آبائهم او إخوتهم بقلب متواضع وفكر غير مرتاب ، أن يقبلوا ما يشيرون به عليهم كأنه من فم الله ، حتى ولو كان منافيا لرغبتهم او كان الذين سألوهم غير متقدمين في الروحانيات . وذلك ان الله ليس ظالما حتى يُضل نفوساً قد رضخت بايمان وطهارة لمشورة قريبها وحكمه . لأنه حتى ان كان الذين استشيروا اغبياء الا ان الله اللاهيولي واللامنظور هو الناطق فيهم . فالذين يرتضون ان ينهجوا هذا النهج ارتضاء لا ريب فيه هم ممتلئون اتضاعا جزيلا . هذا وما دام داود قد « كشف ألغازه على القيثار »[٨] أفلا تظنون ان عقلا ناطقا ونفسا عاقلة يفضلان جدا في الارشاد آلة صماء ؟

١١٢ ـ كثيرون هم الذين اعتداداً بأنفسهم لم يصلوا بعد الى اتباع هذا المنهج الصالح ، الكامل والسهل في آن واحد ، بل حاولوا ان يدركوا بأنفسهم وفي انفسهم ما هو مرضي للرب فوضعوا لنا في هذا الصدد احكاما جمة ومختلفة .

١١٣ ـ ان بعض الملتمسين تلك المشيئة الالهية عمدوا الى التخلي عن كل تعلق لهم واخضعوا فكرهم للرب في ابتغاء الامور ونبذها على السواء وافرزوا له عقولهم اياما معيّنة في توسل حار مجرد من اية مشيئة خاصة فأدركوا مشيئته تعالى وذلك بمخاطبة الروح لروحهم او من خلال تلاشي مقاصدهم الذاتية في انفسهم تلاشيا كاملا .

١١٤ ـ وآخرون استنتجوا من الهموم والعوائق التي عقبت شروعهم بما عزموا النية عليه ان مرادهم مرضي لله وفق الرأي القائل « لقد أردنا ان نجيء اليكم مرة واثنتين فمنعنا الشيطان »[٩] .

١١٥ ـ وآخرون تبينوا بالعكس قبول قصدهم عند الله من العون غير المتوقع الذي أسعفهم في تحقيق بغيتهم ، فقالوا مع القائل : ان الله يعين كل من يتوخى الصلاح[١٠] .

---

(٨) مز ٤٨ : ٤ .

(٩) اتس ٢ : ١٨ .

(١٠) لا نعرف لمن هو هذا القول .

١١٦ ـ من استنار بالله وحواه في داخله يعرف مشيئته تعالى ويتأكد منها باقتباله العون الالهي السابق الذكر حالا سواء في الاعمال الصالحة او في الاعمال القابلة للتأجيل .

١١٧ ـ ان التردد في الحكم على الامور والاستمرار طويلا في الشك والحيرة دلالة على نفس غير مستنيرة تطلب مجد الناس .

١١٨ ـ ليس الله بظالم حتى يغلق الباب دون الذين يقرعون باتضاع .

١١٩ ـ ينبغي ان نتوخى الغاية المقبولة عند ربنا في كل ما نفعل ، سواء في الامور المستعجلة او المؤجلة ، لأن اعمالنا المنزهة عن رغباتنا الشخصية وعن كل دنس والمؤداة فعلا لأجل الرب لا لغرض آخر ستحسب لنا كلها بمنزلة الاعمال الصالحة وان لم تكن صالحة كل الصلاح .

١٢٠ ـ ذلك لأن البحث عما يفوقنا لا يخلو من خطر ، فضلا عن ان حكم الرب بشأننا لا يُحَدُّ ، اذ كثيرا ما يعمد الى اخفاء مشيئته عنا تدبيرا منه لعلمه بأننا اذا عرفناها سوف نعصاها فنجلب على انفسنا عقابا اشد .

١٢١ ـ القلب المستقيم يبقى نقيا مجموعا في وسط الاشغال والاهتمامات المتنوعة وهو يبحر في سفينة البراءة دون خطر .

١٢٢ ـ توجد نفوس شجاعة تبادر بشغف إلهي واتضاع قلب الى القيام بأعمال تعلو على مقدرتها ، وتوجد قلوب متكبرة تباشر تلك الاعمال عينها ، لأن اعداءنا يوحون الينا في احيان كثيرة ان نمارس ما يفوق قوتنا لكي نضجر فنهمل حتى ما هو في طاقتنا ونصير عندهم هزءا واضحوكة .

١٢٣ ـ رأيت اناسا سقماء نفسا وجسدا قد اعتمدوا ، تكفيرا عن سقطاتهم الكثيرة ، ممارسة اتعاب نسكية تتجاوز مقدرتهم ولا يطيقون متابعتها . فقلت لهم ان التوبة تقاس عند الله بمدى اتضاعها لا بكمية اتعابها .

١٢٤ ـ التربية او العشرة علة لأعظم الشرور احيانا ، ولكن النفس المعوجة كثيرا ما تجنح الى الهلاك لمجرد اعوجاجها . فالناجي من سوء التربية وسوء العشرة قد يكون

ناجياً من اعوجاج النفس ايضاً. أما المعوجّ النفس فهو فاسد في كل مكان. اذ ليس من مكان اكثر حصانة من السماء[11].

١٢٥ ـ اذا عمد اناس غير مؤمنين او غير مستقيمي الايمان الى مناقشتنا في الدين وهم سيّئوا النية « فبعد الانذار مرة ومرتين لنكف عن مباحثتهم »[12]. اما الذين يتوخّون معرفة الحق فلا نملّن من فعل الخير معهم [13] مهما طال الزمن. ولكن لا نقدمن على ذلك في كلتا الحالتين الا اذا كان قلبنا مثبتاً[14] (في المعرفة والايمان).

١٢٦ ـ من يسمع أخبار فضائل القديسين الفائقة الطبيعة وييأس من نفسه يكون كثير الغباوة. لأن هذه الاخبار من شأنها بالعكس ان تفيدك جدا بأحد امرين: فهي إما تحثك على مماثلتها بشجاعة مقدسة او تأتي بك الى معرفة نفسك معرفة جزيلة وبالتالي الى تأنيبها بتواضع مثلث القداسة اذ تُظهر لك عمق ضعفك.

١٢٧ ـ ان بعض الشياطين الانجاس يفوقون غيرهم خبثا فيشيرون علينا بأن لا نعمل الخطيئة وحدنا بل يحملوننا على ان يكون لنا شركاء في عمل الشر ليجعلوا عقابنا امر واشد. فاني شاهدت امرؤا علّم غيره عادة خبيثة ثم عاد الى نفسه وبدأ يتوبُ وكف عن خطيئته ولكن توبته بقيت غير فاعلة وذلك بتأثير رفيقه الذي تعلم منه.

١٢٨ ـ كثير هو خبث الشياطين، كثير حقا وصعب كشفه، وقليلون هم الذين يلحظونه. وأعتقد ان هؤلاء القليلين انفسهم لا يلحظونه كليا. لماذا مثلاً اذا تنعمنا وشبعنا نسهر احيانا كثيرة بأوفر إفاقة، واذا صمنا وتقشفنا ننغلب للنوم انغلاباً يرثى له؟ اذا أقمنا في الهدوء تقسو قلوبنا واذا في شركة الاخوة نتخشع؟ اذا جعنا نجرَّب اثناء النوم واذا اتخمنا نلبث غير مجربين؟ نصير في العوز بليدي الذهن متحجري القلب واذا شربنا الخمر نضحي مشرقين وسريعي التخشع؟ فمن يستطيع في الرب فليفسر هذه العوارض لمن هم بصددها غير مستنيرين. فنحن في هذا المجال لسنا من المستنيرين. لكننا نستطيع ان نقول ما يلي: ان حدوث مثل ذلك التغيير فينا لا يحصل دائما من جراء الشياطين بل ينجم احيانا عن مزيج هذه الطبيعة الغليظ النهم، الذي لا اعلم كيف

---

(١١) ومع ذلك فقد سقط منها الشيطان

(١٢) تيطس ٣ : ١٠ .

(١٣) غلا ٦ : ٩ .

(١٤) عب ١٣ : ٩ .

أعطيتُه وتسربلته .

١٢٩ ـ وفي سبيل تمييز هذا الامر العسير فلنتضرع الى الرب تضرعا خالصا متواضعا مدة من الزمن طالبين كف العارض الحادث لنا ، فان استمر العارض فلنتيقن انه ليس من فعل الشيطان بل من طبيعتنا . وكثيراً ما يشاء التدبير الالهي ان يحسن الينا بكل الوسائل فيكبح غرورنا عن طريق مثل هذه الحوادث المضادة .

١٣٠ ـ ان سبر غور الاحكام الالهية محفوف بالخطر لأن الذين يقدمون على ذلك يسيرون في سفينة الغرور . ولكن لا بد من ذكر شيء عنها من اجل دعم ضعف الكثيرين .

١٣١ ـ سأل احدهم بعض القادرين على التمييز ما السبب في ان الله العارف مسبقا بهفوات البعض قد أنعم عليهم بمواهبه وعجائبه ؟ فأجاب : لكيما يصون ويثبّت باقي الناس الروحانيين ، ويبيّن حرية الانسان ، ويجعل الذين يسقطون لا عذر لهم في يوم الدين .

١٣٢ ـ الشريعة غير الكاملة تقول: «تيقظ لنفسك»[١٥]. اما الرب الفائق الكمال فقد اوصانا باصلاح اخينا ايضاً قائلا: «إذا اخطأ اليك اخوك الخ . . .»[١٦] فان كان تأنيبك لأخيك بل بالاحرى تنبيهك له نقيا متواضعاً فلا تحجم عن اتمام وصية الرب (ولا سيما مع الذين يقبلون منك التأنيب). وان كنت لم تصل بعد الى هذه الحال فتمم على الأقل وصية الشريعة.

١٣٣ ـ لا تعجب اذا رأيت احباءك يعادونك لتوبيخك اياهم فان ذوي الخفة اداة بيد الشيطان يستخدمهم بصورة خاصة ضد من يعاديه .

١٣٤ ـ يدهشني جدا كيف ان الله القادر على كل شيء، فضلا عن الملائكة والقديسين ، يؤازرنا في اكمال الفضائل ، في حين ان الشيطان الشرير وحده يدفعنا الى اتمام الرذائل ، فنجنح الى الاهواء جنوحا اسرع وايسر . اني لا اشاء ان اوضح هذا

---

(١٥) تثنية ٤ : ٩ .

(١٦) متى ١٨ : ١٥ .

الامر بل لا استطيع .

١٣٥ ـ ان كانت البرايا كلها تحافظ على طبيعتها التي خلقت عليها فكيف حصلتُ ، وانا صورة الله ، ممتزجا بالحمأة كما قال غريغوريوس النزينزي العظيم ؟ ان استحال شيء بطريقة ما الى خلاف ما خلق عليه فمن البين انه سيجنح دون انقطاع الى الرجوع لحالته الطبيعية الاولى . فعلى الانسان بالتالي ان يسعى بكل وسيلة ليُصعد جسده الترابي اذا جاز القول ويجلسه على عرش الله . ولا يتذرّعنّ احد بصعوبة هذا الارتقاء لأن الطريق والباب مفتوحان امامنا .

١٣٦ ـ ان الاستماع الى ما أحكمه الآباء من الاتعاب والفضائل ينبّه العقل والنفس الى اقتفاء آثارهم . والإصغاء الى اقوالهم يرشد السالكين في اثرهم الى مماثلتهم .

١٣٧ ـ التمييز سراج في الظلام وهدى للضالين ونور للعيون الكليلة . ذو التمييز يستعيد الصحة ويستأصل المرض .

١٣٨ ـ ان جماعة الذين يُظهرون إعجابهم بصغائر الامور انما يفعلون لسببين : اما لجهلهم المطبق او بقصد تذليل انفسهم عن طريق تعظيم اعمال الغير ورفع شأنها .

١٣٩ ـ لنجدّ ليس فقط في صد الشياطين بل ايضاً في شن الحرب عليهم، لأن من يصدهم يغلبهم حيناً ويغلبونه حيناً، اما الذي يهاجمهم بلا هوادة فيطردهم على الدوام .

١٤٠ ـ من قمع اهواءه يطعن الشياطين ، ومن تظاهر باتّباعها يخدعهم فيحجمون عن محاربته . فان احد الاخوة أُهين مرة فلم ينفعل داخليا البتة ، وبعدما صلّى عقليا بدأ يندب اهانته ساترا لأهوائه بهوى مصطنع . وأخ آخر كان لا يصبو الى الرئاسة بالكلية فتظاهر بأنه يسعى اليها . وكيف أصف لك طهارة ذاك الذي هرع الى بيت للبغاء متظاهرا بطلب الخطيئة فاجتذب البغيّ الى حياة النسك ؟ وقد اتى بعضهم بعنقود عنب في الصباح الباكر الى احد المقيمين في الهدوء فقام لتوّه بعد انصرافهم والتهمه التهاما خلوا من اية شهوة ، موحيا للأبالسة بانه شره . وآخر أضاع قليلا من الخوص فتظاهر بالاكتئاب طول النهار لإضاعته . ان امثال هؤلاء يحتاجون الى تيقظ كثير

لئلا يعمدوا الى اللهو بالشياطين فينتهي امرهم الى لهو الشياطين بهم . فهم بالحقيقة الذين قال فيهم الرسول «مضلين وهم صادقون»[١٧] .

١٤١ ـ من يبتغي ان يقدم للمسيح جسدا طاهرا وقلبا نقيا فليحرص على التمسك بالوداعة والاعتدال . لأن تعبنا كله يذهب سدى بدون هاتين الفضيلتين .

١٤٢ ـ كما يختلف نور العيون[١٨] بين شخص وآخر كذلك يختلف حلول نور الشمس العقلية في النفس ويتنوع . لأن حلوله عن طريق الدموع الجسدية غير حلوله عن طريق الدموع النفسانية ، وحلوله من خلال عيني الجسد غير حلوله من خلال عيني العقل ، وحلوله على اثر سماع قول نافع غير حلوله الحاصل من الفرح المتحرك تلقائيا في النفس ، وحلوله الناتج عن الهدوء والعزلة غير حلوله الناتج عن الطاعة . وعلاوة على هذه الاصناف كلها فهناك حلول فريد يخطف العقل ويوقفه لدى المسيح في نور عقلي لا يحدّ ولا يوصف .

١٤٣ ـ بين الفضائل فضائل اساسية تلد الفضائل الأخرى ، والرجل الفطن يجتهد ان يقتنيها قبل غيرها ، والله نفسه يعلّمنا اياها ، في حين ان معلمي الفضائل الثانوية كثيرون .

١٤٤ ـ لنحترس من التعويض عن نقص الاغتذاء بالاكثار من النوم او عن نقص النوم بالاكثار من الاغتذاء ، فان هذا هو شأن الفاقدي التمييز .

١٤٥ ـ رأيت مجاهدين قد تراخوا لسبب ما فتخموا بطنهم قليلا ثم عمدوا سريعا الى تعذيب ذلك الشقي بشجاعة بالوقوف ما طال الليل فلقنوه ان يحجم عن الشبع بسرور .

١٤٦ ـ ان شيطان حب المال يصارع بحدة من زهدوا في المال فاذا لم يقو عليهم

---

(١٧) ٢ كو ٦ : ٨ .

(١٨) يقصد اللون .

اوحى لهم بأن يذكروا الفقراء ، وبهذه الحجة اقنع الروحانيين البعيدين عن المادة ان يعودوا الى الاهتمام بالمادة من جديد.

١٤٧ ـ لا تغفلن في اوقات القنوط عن ذكر وصية الرب لبطرس بالغفران لمن اخطأ اليه سبعين مرة سبع مرات[١٩] . لأن من اوصى غيره بهذه الوصية سوف يفعل هو اكثر منها بكثير . اما في حالات التكبر فلنذكر بالعكس القول القائل بأن من يتمم الشريعة الروحانية كلها ويسقط في هوى واحد ، هو الغرور ، « فقد صار مجرما في الكل »[٢٠] .

١٤٨ ـ ان بعض الأرواح الشريرة الحسود تنصرف عن القديسين من تلقاء ذاتها لئلا تسبب لهم اكاليل الغلبة في حروب لا تستطيع ان تقهرهم فيها .

١٤٩ ـ « طوبى لصانعي السلام »[٢١] ولن يعترض على ذلك احد . غير اني شاهدت صانعي عداوة جديرين بالطوبى . فقد تحابّ اثنان محبة غير طاهرة ، وتلافياً لذلك توسط احد اكثر الأباء تمييزا ووشى الى هذا وذاك ان صاحبه يغتابه فمقت كل منهما رفيقه ، فاستطاع هذا الحكيم ان يتفادى شرا شيطانيا بمكر انساني ، وان يختلق مقتا ليفك رباط الزنى .

١٥٠ ـ قد يُبطل البعض وصية بسبب وصية اخرى ، فاني رأيت شابين يتحابان حبا مرضيا لله فاتفقا على ان ينفصلا الى حين ، تلافياً للأذى اللاحق بضمير الآخرين .

١٥١ ـ كما ان العرس والمأتم يتنافيان ، كذلك الكبرياء واليأس لا يتفقان . ولكنهما يجتمعان احيانا بتشويش من الشياطين .

١٥٢ ـ ان بعض الشياطين الانجاس يفسرون لنا الكتب الالهية في اوائل زهدنا . ويعمدون الى ذلك بصورة خاصة لدى المعجّبين بأنفسهم ، ولا سيما الذين أحكموا العلوم البشرية ، لكي يضلوهم شيئا فشيئا ويُفضوا بهم الى البدع والتجديف . ونتبين هذا اللاهوت الشيطاني ، وبالاحرى هذه الشعوذة ، من الشعور المشوش والفرح

---

(١٩) متى ١٨ : ٢٢ .

(٢٠) يعقوب ٢ : ١٠

(٢١) مت ٥ : ٩ .

غير النقي المتسايين الى النفس وقت التفسير .

١٥٣ ـ لقد اتخذت البرايا كلها من الخالق نظامها وابتدائها ، والبعض منها نهايتها ايضا . غير ان الفضيلة حازت غاية لا نهاية لها . وذلك ان المرنم قال : « لكل كمال رأيت حداً أمّا وصيتك فواسعة جداً »[٢٢] . فان كان بعض المجاهدين الصالحين ينطلقون من قوة العمل الى قوة النظر[٢٣] ، وان كان الحب لا يسقط ابداً[٢٤] ، وان كان الرب يحفظ دخول مخافتك وخروج محبتك[٢٥] ، فغاية الحب اذا إلا حد لها ولن نتتهي ابدا من التقدم فيه ، لا في الدهر الحاضر ولا في الآتي ، مستمدين دون انقطاع نورا من نور . ومهما كان هذا مستغربا عند كثيرين فاني سوف اقول ايها المغبوط ان الملائكة انفسهم ، بحسب الادلة التي اوردناها ، لا يعدمون التقدم بل يزدادون على الدوام مجدا فوق مجد ومعرفة فوق معرفة .

١٥٤ ـ لا تتعجب من ان الشياطين اعداءنا يوحون الينا احيانا كثيرة بأفكار صالحة يلحقونها بأفكار تناقضها ثم يدحضونها ، فان قصدهم انما هو إقناعنا بأنهم يعرفون افكار قلوبنا .

١٥٥ ـ لا تحكم بقساوة على الذين يعلّمون تعليما بليغا بأقوالهم ويتلكأون عن تطبيقه بأعمالهم ، فان منفعة الكلام كثيراً ما عوضت عن نقص العمل ، اذ لا نقتني جيعنا كل المحامد بالتاسوي ، فان الكلام عند البعض يزيد على العمل ، بينما يفوق العمل الكلام عند آخرين .

١٥٦ ـ لم يبدع الله الشر ولم يسببه ، وقد ضل الذين زعموا ان في النفس اهواء شريرة وخفي عليهم اننا نحن الذين حوّلنا خواص طبيعتنا الى اهواء . فان قدرة إنجاب الاولاد مثلا هي فينا بالطبع ولكننا حولناها الى الزنى . فينا الغضب بالطبع وذلك لكي نغضب على الشيطان فوجهناه نحن ضد القريب . فينا الغيرة لنتنافس في الفضيلة فتنافسنا في الشر . من طبع النفس ان تتوق الى المجد ولكن الى العلوي . فينا التكبر

---

(٢٢) مز ١١٨ : ٩٦ .

(٢٣) انظر مز ٨٨ : ٨ هذا ويقصد «بالعمل» اعمال التوبة والنسك و «بالنظر» معاينة الأمور الالهية .

(٢٤) انظر ١ كو ١٣ : ٧ .

(٢٥) انظر مز ١٢٠ : ٨ .

بالطبيعة ولكن على الشياطين فقط . كذلك فينا الفرح ولكن لنفرح بالرب ويحسن عمل القريب . قد أُعطينا الحقد لكن لنغتاظ من اعداء النفس ، ونلنا شهوة الطعام ولكن ليس للافراط في تناوله .

١٥٧ ـ ان النفس النشيطة تثير على ذاتها الشياطين . واذا تكاثرت حروبها تكاثرت اكاليلها . من لم يجرحه محاربوه فمن البيّن انه لن يكلل . ومن لا يخور عزمه بسبب السقطات العارضة له فسوف يمجده الملائكة كمحارب صنديد .

١٥٨ ـ ان الذي قضى في بطن الارض ثلاثة ايام عاد حياً الى الابد ، والذي يقهر اوقات التجربة[٢٦] الثلاثة لن يموت فيما بعد .

١٥٩ ـ قد يسمح الله من اجل تربيتنا روحيا بأن تعرف الشمس فينا غروبها[٢٧] بعد شروقها ، فيجعل الظلمة خباء له[٢٨] فيصير ليل ، وفيه تعبر الينا الاشبال الضارية وجميع وحوش غاب الاهواء الشائكة ، بعد ان كانت قد انصرفت عنا ، وتزأر لتختطف الرجاء الذي فينا وتلتمس من الله طعامها الذي هو اهواؤنا على صعيدي الفكر والعمل ، ثم تشرق الشمس فينا من جديد عبر ظلمة التواضع فتجتمع الوحوش وفي صيرها تربض[٢٩] ، اعني في قلوب الشهوانيين وليس فينا : حينئذ يقول الشياطين فيما بينهم : لقد عظّم الرب رحمته على هؤلاء ، فنجيبهم : لقد صنع الرب الينا العظائم فغدونا فرحين[٣٠] ، أما أنتم فمنبوذون . هوذا الرب راكب على سحابة خفيفة ، اي في نفس قد تعالت فوق كل شهوة ارضية ، وقادم الى مصر ، أي إلى القلوب المظلمة ليزعزع اصنامها ، صنع الأيادي[٣١] ، افكار عقل الانسان .

١٦٠ ـ ان كان المسيح القادر على كل شيء قد هرب من هيرودس جسديا فليتعلم المتهورون ألاّ يلقوا بذواتهم في التجارب ، فانه قيل : « لا تعط رجلك للزلل »[٣٢] .

---

(٢٦) وهي الشراهة وحب المال والغرور او بحسب الياس الكريتي : الغرور والزنى وحب المال ، وفي تفسير آخر : سن الحداثة وسن الكهولة وسن الشيخوخة .

(٢٧) مز ١٠٣ : ١٩ .

(٢٨) مز ١٧ : ١٢ .

(٢٩) مز ١٠٣ : ٢٠ ـ ٣٠ .

(٣٠) مز ١٢٥ : ٣ ـ ٤ .

(٣١) اشعياء ١٩ : ١ .

(٣٢) مز ١٢٠ : ٣ .

١٦١ ـ كما يلتف اللبلاب [٣٣] على السروة يلتصق الغرور بالشجاعة .

١٦٢ ـ لا نظنن يوما اننا قد امتلكنا صلاحا ما بل فلنفحص ذواتنا باجتهاد لتتبين ما اذا كانت مزية ذلك الصلاح هي حقا فينا ، واذ ذاك نفطن اننا مقصّرون جدا عن امتلاكه .

١٦٣ ـ إبحث وفتش بلا انقطاع عن دلائل الاهواء فيك فتفطن حينذاك لوفرتها ، اذ نحن عاجزون عن كشفها فينا بسهولة ما دمنا خاضعين لها ، وذلك إمّا لضعفنا او لتأصلها العميق فينا .

١٦٤ ـ الله في محبته يحكم على القصد والنية ، غير انه يطلب منا ايضا ان نعمل قدر طاقتنا . عظيم هو من لا يقصّر عن طاقته بشيء واعظم منه من يقدم بتواضع على ما يفوق قدرته .

١٦٥ ـ كثيراً ما يمنعنا الشياطين عن القيام بأعمال سهلة وموافقة لنا جدا ويحثوننا على ان نباشر عوضا عنها اعمالا شاقة اصعب منها .

١٦٦ ـ اني ارى ان يوسف العفيف قد مُدح لفراره من الخطيئة لا لانعتاقه من الهوى . اما نحن فلننظر ما هي وكم هي الخطايا التي يُكسبنا الهرب منها اكليلا ، لأن الهرب من الظل يختلف عن السعي الحثيث نحو شمس البر .

١٦٧ ـ الظلام علة التعثر ، والتعثر علة السقوط ، والسقوط علة الموت .

١٦٨ ـ الذين اظلموا بالخمر يغتسلون بالماء ، اما الذين اظلموا بالاهواء فيغتسلون بالدموع .

١٦٩ ـ تكدُّر البصر غير الرمد ، والعمى غيرهما . فالاول يشفيه الامساك والثاني الهدوء ، اما الثالث فالطاعة والله الذي صار مطيعا من اجلنا [٣٤] .

١٧٠ ـ نستطيع ان نتخذ طريقة تنظيف الامتعة الدنيوية مثالا لتنقية مريدي الحياة العلوية ، فنقول ان الجماعة الرهبانية السالكة بحسب مشيئة الرب هي بمنزلة

---

(٣٣) عشب طفيلي .

(٣٤) في ٢ : ٨ .

حانوت القصّار تجرّد النفس من اوساخها وفظاظتها وقباحتها ، اما عزلة التوحد فهي كالمصبغة تجمّل الذين طرحوا عنهم الفسق والحقد والغضب وصاروا الى الهدوء .

١٧١ ـ يقول البعض ان استمرار السقوط في خطايا معينة يأتي من نقص التوبة الملائمة للتكفير عن السقطات السابقة ولتقويمها . ولكن هل يا ترى كل من لا يسقط في خطاياه السالفة قد تاب توبة حقيقية ؟ فقد تستمر سقطات البعض إما لنسيانهم زلاتهم السابقة بالكلية او لشغفهم باللذة واتكالهم على محبة الله للبشر او ليأسهم من الخلاص . وربما لامني لائم إن قلت انهم أمسوا غير قادرين على ان يضبطوا جسدهم لاقتساره اياهم بقوة العادة .

١٧٢ ـ لماذا يا ترى لا تبصر النفس الارواح التي تفد إليها مع انها تماثل النفس في الطبيعة اذ هي مجردة من الجسد ؟ ألعل هذا لاقتران النفس بالجسد ؟ ان الذي قرنها يعلم وحده ذلك .

١٧٣ ـ سألني مرة بإلحاح احد ذوي المعرفة فقال : بيّن لي ما هي الارواح الشريرة التي تخفض العقل وما هي التي ترفعه عندما نخطأ ؟ فتحيرت انا لهذا السؤال واكلدت له جهلي بقسم . فعلمني حينئذ قائلا : ها انذا أودعك خبرة تمييز في كلمات قليلة وأتركك تفتش عن كامل الجواب بتعبك . ان ارواح الزنى والغضب والشراهة والضجر والنوم لا ترفع العقل . اما ارواح حب المال وحب الرئاسة والثرثرة ، وارواح كثيرة غيرها ، فقد ألفت ان تزيد على شرها شرا (هو الترفع والغرور) . ولذا يحسب روح الادانة معها .

١٧٤ ـ من زار علمانيين او استقبلهم يوما او ساعة ثم حزن لانصرافهم ولم يفرح بالحري كمن أفلت من فخ وعقال فهو ألعوبة العجب او الزنى .

١٧٥ ـ لننظر قبل كل شيء من اين تهبّ الريح لئلا نكون قد شرّعنا قلوعنا ضدها .

١٧٦ ـ عزِّ شيوخا مجاهدين قد طحنوا بالنسك اجسادهم متيحاً لهم قليلاً من الراحة ، وألزم بالامساك أحداثا قد طحنوا بالخطايا نفوسهم ، مذكرا اياهم بالعقاب .

١٧٧ ـ من المتعذر ، كما ذكرنا في موضع آخر ، ان تنتقى من الشراهة والعُجب في مستهل زهدنا تنقية سريعة وكاملة . ولكن لا نحاربن العجب بالتنعم وعدم الامساك[٣٥] ، لأن انهزام العجب يولّد عند المبتدئين عجبا ، بل فلنغلبه بالتقشف والفاقة اذ ستأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة لمن يشاء ، يُخضع الرب العجب فيها تحت اقدامنا .

١٧٨ ـ إن الأحداث والشيوخ القادمين الى حياة العزلة لا يقاتَلون بالاهواء نفسها، لأنهم في أحوال كثيرة يعانون من أمراض متضاربة تماماً. ولذا مغبوط هو التواضع المبارك الذي يجعل توبة الاحداث والشيوخ على السواء آمنة فعالة .

١٧٩ ـ لا تضطرب لما أنا مزمع أن أقول : نادرة حقاً ، وإن وجدت ، هي النفوس المستقيمة العديمة الخبث والمكر والرياء ، ولا يناسبها أن تقيم مع الناس بالكلية ، بل يمكنها بمساعدة مرشدها أن تصعد من هدوء العزلة الى السماء كأنه من ميناء ، ناجية من جلبة حياة الاديرة ومعاثرها .

١٨٠ ـ قد يشفي الفاسقين الناس ، والخبثاء الملائكة ، أما المتكبرون فالله وحده يستطيع أن يشفيهم .

١٨١ ـ قد يكون من المحبة في أحوال كثيرة أن نترك قريبنا ، إذا نزل بنا ، يعمل ما يشاء ، ونُظهر له كل بشاشة .

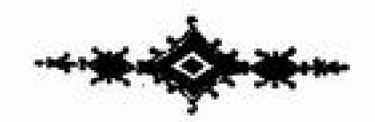
١٨٢ ـ لنتساءل هل التندم على الافعال الصالحة ينقضها كما تنقض الندامة الاعمال الرديئة ، وكيف يتم ذلك والى أي حد ومتى ؟

١٨٣ ـ علينا أن نميز بدقة كثيرة متى ينبغي أن نقاوم أسباب أهوائنا وفي أية حال والى أي حد ، ومتى ينبغي بالعكس أن ننسحب من القتال ، على اعتبار أن الهرب قد يكون أفضل أحياناً نظراً لضعفنا وتفادياً لهلاكنا .

١٨٤ ـ لننظر ونترقب متى وكيف نستطيع أن نُفرغ مرارة (الخطيئة) بمرارة (النسك) ومن هم الشياطين الذين يرفعوننا أو يذللوننا ، ويقسّوننا أو يعزّوننا ،

---

(٣٥) بحجة عدم افساح مجال للعجب بالامساك .



المقالة السادسة والعشرون نفسها : القسم الثالث

مراجعة وجيزة لكل المقالات السابقة

١ ـ الايمان الوطيد يؤول الى الزهد في العالم ، والعكس بالعكس .

٢ ـ والرجاء الثابت يقود الى الزهد في المقتنيات ، والعكس بالعكس .

٣ ـ ومحبة الله أساس الغربة ، والعكس بالعكس .

٤ ـ لوم الذات وابتغاء الشفاء من الاهواء يولّدان الطاعة .

٥ ـ إنتظار الموت والذكر الدائم للمرّ والخل اللذين تناولهما السيد يولّدان الامساك عن الاهواء .

٦ ـ الهدوء أساس العفة وعونها ، والصوم يطفيء ثورة الجسد ، وانسحاق القلب يطرد الافكار القبيحة .

٧ ـ الايمان والغربة يميتان الجشع ، بينما الحنق على القريب والتودد إليه يسلّمان الجسد الى أعدائه .

٨ ـ الصلاة الحارة تبيد الضجر ، وذكر الدينونة يشحذ الهمة .

٩ ـ حب الهوان يشفي الغضب ، والترتيل ، الى جانب الاشفاق على القريب والتخلي عن المقتنيات ، يبدد الحزن .

١٠ ـ الزهد في الحسيات يأتي بنا الى معاينة الالهيات .

١١ ـ الصمت والهدوء يقاتلان العُجب، وان كنت مقيماً في دير فارغب في الهوان .

١٢ ـ الكبرياء الظاهرة تشفيها الملمات ، أما غير الظاهرة فيشفيها الذي لا يُرى ، الكائن قبل الدهور .

١٣ ـ الأيل يبيد الافاعي الحسية ، والتواضع يبيد الافاعي العقلية بأسرها .

١٤ ـ إن الأمثلة المستوحاة من الطبيعة تساعدنا على توضيح الامور الروحية .

١٥ ـ فكما يتعذر على الحية نزع جلدها العتيق ما لم تندسّ في ثقب ضيق ، كذلك نحن أيضاً لا نستطيع أن نطرح عنا نقائصنا وعتاقة نفسنا وننزع ثوب انساننا العتيق ما لم نعبر طريق الصوم الضاغطة وسبيل الهوان الضيق .

١٦ ـ وكما أن الطيور السمينة (١) لا يمكنها أن تطير عالياً كذلك من يغذّي جسده وينعمه لا يمكنه أن يرتقي نحو السماء .

١٧ ـ الوحل إذا جف لا يُرضي الخنازير والجسد إذا نحف وضمر لا يوافق غرض الشياطين .

١٨ ـ كما أن كثرة الحطب تخنق لهيب النار وتطفئه وتُحدث دخاناً كثيفاً ، كذلك الحزن المفرط كثيراً ما يجعل النفس عكرة ومظلمة ويجفف الدموع .

١٩ ـ كما لا يصلح الاعمى لرمي القوس كذلك لا يرجى خير من التلميذ المعاند .

٢٠ ـ كما يستطيع الحديد المسقي أن يجلد الحديد غير المسقي ويشحذه ، كذلك كثيراً ما خلّص أخ نشيط أخاً متوانياً .

٢١ ـ كما أن بيض الطيور إذا طمر في السماد يؤول الى فراخ ، كذلك الافكار التي

(١) بالنسبة لحجمها الكامل .

لا يباح بها تؤول الى أفعال .

٢٢ ـ كما أن الخيل الراكضة تسابق بعضها بعضاً كذلك الجماعة الصالحة يتنافس أفرادها في الخير ويشجعون بعضهم بعضاً .

٢٣ ـ كما تحجب الغيوم الشمس كذلك تظلم الافكار الشريرة العقل وتعطله .

٢٤ ـ كما أن من تبلّغ الحكم عليه بالاعدام لا يتحدث عن المسارح وهو مساق الى الموت كذلك التائب الحقيقي لا يداري بطنه البتة .

٢٥ ـ كما يزداد إحساس الفقراء بفقرهم إذا أبصروا كنوز الملوك كذلك تتضع النفس إذا طالعت فضائل الآباء الجليلة .

٢٦ ـ كما يلتصق الحديد بالمغنطيس كارهاً ، وينجذب إليه بفعل قوة سرية في الطبيعة ، كذلك تقتسر العادات من تأصلوا في نقائصهم .

٢٧ ـ كما يسكّن الزيت البحر وهو صاغر كذلك يُخمد الصوم ثورة الجسد وهو كاره .

٢٨ ـ كما يعلو الماء إذا حُصر كذلك تصعد النفس بالتوبة الى الله أحياناً كثيرة إذا حصرتها الاخطار ، فتنجو .

٢٩ ـ كما يفضح أريج الطيوب حاملها كذلك يدل على رجل الروح كلامه وتواضعه .

٣٠ ـ كما يتألق الذهب في نور الشمس كذلك يتجلى المرء بالفضيلة .

٣١ ـ كما تخبط الرياح اللجة كذلك يعكّر الغضب الذهن أكثر من أي هوى آخر .

٣٢ ـ كما أننا لا نشتهي ما نسمع عنه إن لم نره كذلك ينعم أطهار الجسد من جراء طهارتهم براحة جزيلة .

٣٣ ـ كما أن اللصوص لا يهاجمون باستخفاف مستودع أسلحة الملك كذلك اللصوص العقليون لا يسرقون بسهولة من يعتصم بالصلاة القلبية .

٣٤ ـ كما أن النار لا تولّد ثلجاً كذلك من يبتغِ الكرامة الارضية لن يتمتع بالكرامة السماوية .

٣٥ ـ كما أن شرارة واحدة كثيراً ما تحرق حطباً وافراً كذلك فإن عملاً صالحاً واحداً يمحو هفوات كثيرة وعظيمة .

٣٦ ـ كما يتعذر قتل وحش بدون سلاح كذلك يُمتنع التغلب على الغضب بدون اتضاع .

٣ ـ كما أننا لا نستطيع أن نعيش بدون طعام كذلك لا مجال لنا أن نتوانى ولو يسيراً ، حتى الممات ، إذا أردنا الخلاص .

٣٨ ـ كما أن شعاع الشمس إذا دخل بيتاً من خلال ثقب يضيء كل ما فيه ويُظهر حتى دقيق الغبار ، هكذا خوف الله إذا حل في قلب انسان يكشف له كل خطاياه .

٣٩ ـ كما يتيسر اصطياد السراطين لسيرها تارة الى الأمام وتارة الى الوراء ، كذلك النفس التي تضحك حيناً وتبكي حيناً وتتنعم حيناً آخر تفشل ولا تنتفع شيئاً .

٤٠ ـ كما يُسلب النيام بأيسر مرام كذلك يُسلب الذين يسعون الى الفضيلة وهم بقرب العالم .

٤١ ـ كما أن من يقاتل أسداً يهلك لساعته إذا أزاح نظره عنه كذلك يهلك من يحارب جسده إذا أراحه .

٤٢ ـ كما أن الصاعدين على سلّم منخور يتعرضون للسقوط كذلك كل تكريم وتمجيد وسلطان ينافي الاتضاع ويطرح صاحبه .

٤٣ ـ كما يتعذر ألا يذكر الجائع الخبز كذلك يتعذر ألا يذكر الموت والدينونة من يسعى حثيثاً الى الخلاص .

٤٤ ـ كما يمحو الماء الكتابة كذلك تمحو الدموع الزلات .

٤٥ ـ كما أن الذين ينقصهم الماء لمحو الكتابة يلجأون الى طرق أخرى ، كذلك

إذا عجز البعض عن ذرف الدموع فانهم يمحون خطاياهم ويزيلونها بالحزن والاكتئاب الجزيل .

٤٦ ـ كما أن كمية كبيرة من السماد تولّد دوداً كثيراً كذلك كثرة الاطعمة تولّد هفوات وأفكاراً رديئة وأحلاماً كثيرة .

٤٧ ـ كما أن الاعمى لا يبصر طريقه كذلك لا يرى الكسلان الصلاح ولا يفعله .

٤٨ ـ كما أن من كُبِّلت رجلاه يعجز عن المشي ، كذلك يتعذر على مدّخري الاموال الصعود الى السماء .

٤٩ ـ بعكس الجرح الطري الذي يسهل شفاؤه يصعب شفاء جراحات النفس المزمنة (هذا إن تم شفاؤها) .

٥٠ ـ كما يتعذر على الميت أن يمشي كذلك يتعذر على الواقع في اليأس أن يخلص .

٥١ ـ من يعتنق الايمان القويم ويستمر في ارتكاب الخطايا يشبه وجهاً لا عينين له . ومن لا ايمان له وإن عمل بعض الصلاح يشبه من يستقي ماء ويصبه في خابية مثقوبة .

٥٢ ـ كما أن سفينة يقودها ربان ماهر تدخل سالمة الى الميناء بمعونة الله ، كذلك النفس التي يرعاها راع صالح ترتقي بسهولة الى السماء ، وإن كانت قد اقترفت سيئات كثيرة .

٥٣ ـ كما يضل الطريق سريعاً من لا دليل له مهما كان فطناً كذلك يهلك سريعاً من يسير في الطريق الرهباني وهو يتولى أمره بنفسه وإن كان متفقهاً بكل حكمة العالم .

٥٤ ـ من كان ضعيف الجسد عاجزاً عن احتمال أتعاب النسك ، وقد أجرم بارتكابه خطايا ثقيلة ، فليسلك سبيل الاتضاع بمتطلباته فانه لن يجد طريقاً آخر للخلاص .

٥٥ ـ كما أن الصحة لا تستعاد سريعاً بعد مرض طويل كذلك لا تقهر الاهواء للحال .

٥٦ ـ أفطن لمدى توفر كل هوى وكل فضيلة فيك فتعرف مدى تقدمك .

٥٧ ـ كما يخسر الذين يستبدلون الذهب بالطين كذلك الذين يتشدقون بالروحيات طمعاً بمكاسب جسدية .

٥٨ ـ لقد نال كثيرون صفحاً سريعاً عن خطاياهم، وأما اللاهوى فلم يبلغه أحد عاجلاً لأنه يحتاج الى زمان طويل والى شوق والى الله .

٥٩ ـ لنترقب البهائم أو الطيور التي تُضل لنا لتؤذينا في أوان الزرع والنمو والحصاد لكيما ننصب لها الشراك الملائمة .

٦٠ ـ كما لا يحق لمن تعتريه الحمى أن ينتحر كذلك لا يصح أن ييأس أحد من ذاته الى الرمق الاخير .

٦١ ـ كما لا يليق بمن دفن أباه أن يمضي الى عرس تواً بعد الدفن ، كذلك لا يناسب النائحين على زلاتهم أن يطلبوا من الناس إكراماً أو ترفيهاً أو تشريفاً في هذا الدهر .

٦٢ ـ كما تختلف مساكن المواطنين عن مساكن السجناء المجرمين كذلك ينبغي أن تختلف عيشة التائبين الباكين على آثامهم اختلافاً كلياً عن عيشة الذين لم يأثموا .

٦٣ ـ كما أن الملك لا يأمر بعزل الجندي الذي يتلقى الضربات على وجهه في الحرب بل يوعز بترقيته ، كذلك الملك السماوي يكلل الراهب الذي يصبر على تجارب الشياطين وضرباتهم الكثيرة .

٦٤ ـ الحس من خصائص النفس ، والخطيئة تحنّقه ، وانتظام هذا التعنيف يؤول الى تلاشي الاثم أو نقصانه . أما ذلك الانتظام فوليد الضمير ، وتوبيخ الضمير هو صوت الملاك الحارس الذي أُعطيناه يوم المعمودية . لذلك نجد أن تقريع غير المعمّدين لأنفسهم هو على شيء كثير من الابهام والغموض .

٦٥ ـ تناقص الأثم يؤول الى الكف عنه ، والكف عنه بدء التوبة ، وبدء التوبة هو بدء الخلاص ، وبدء الخلاص عزم صالح ، والعزم الصالح يولّد ممارسة الاتعاب ، وممارسة الاتعاب تأتي بنا الى بداية الفضائل ، وبداية الفضائل تزهر وتُفضي الى بدء العمل بها ، وثمر العمل بها المثابرة عليها ، ونتيجة المثابرة عليها اعتيادها ، واعتيادها يلد الخُلق الصالح ، والخُلق الصالح يلد خوف الله ، وخوف الله يلد حفظ الوصايا السماوية والارضية على السواء ، وحفظ الوصايا دلالة على المحبة ، وبدء المحبة كثرة التواضع ، والتواضع الكثير ابن اللاهوى ، واللاهوى كمال المحبة ، أعني سكنى الله الكاملة في أنقياء القلوب لخلوهم من الاهواء ، لأن أنقياء القلوب يعاينون الله (٢) ، له المجد الى أبد الدهور آمين .



---

(٢) متى ٥ : ٨ .



المقالة السابعة والعشرون

في الهدوء المقدس ، الجسدي والنفسي [1]

١ ـ نحن بمنزلة عبيد مبيعين تملكنا الاهواء الشريرة ولذا نعرف الى حدٍّ ما فقط مكائد الأرواح التي تسود على نفوسنا الشقية وأساليبها وإيحاءاتها وخدعاتها ، ولكن آخرين غيرنا ممن أعتقوا منها بفعل الروح القدس يدركون حيلها جلياً بنوره المقدس ويكشفونها . ذلك لأن تصورنا لفرج العافية حين نعاني أوجاع المرض يقل وضوحاً عن تصورنا لرهبة المرض وإحساسنا بها حينما نتمتع بالعافية . فنحن إذاً حيث أننا مرضى نخشى أن نتفلسف الآن في وصف ميناء الهدوء لا سيما وأننا نعلم أن هناك كلباً يقف كل حين لدى موائد الرهبان محاولاً التقاط كسرة خبز ، أعني نفس أحدهم ، ليجري بها الى العزلة فيأكلها باطمئنان . لذا ولئلا نفسح بكلامنا مجالاً لهذا الكلب ولا نعطي حجة لملتمسيها لا نستنسب التحدث عن الهدوء الى جنود الرب الذين يحاربون الآن ببسالة في جماعة الاخوة ، ونكتفي بالقول بأن هالة من الهدوء والسكون تُنسج حول الذين يجاهدون منهم بشهامة . ولكن إن شئتم فلننقل كلمة سريعة في صدد الهدوء وذلك في سياق بحثنا وعلى سبيل الاستدراك والتمييز حتى لا نحزن البعض إن أهملنا ذكره .

٢ ـ إن هدوء الجسد هو الإحاطة بطباعه وأحاسيسه وكبحها . أما هدوء النفس فهو الإحاطة بأفكارها ، وهو ذهن حصين لا يُسلب .

---

(١) ويقصد به التوحد والعزلة في الصمت والسلام الداخلي والصلاة (صلاة القلب بالدعاء لاسم يسوع) .

٣ ـ صديق الهدوء عقل شجاع صارم ساهر عند باب القلب يبيد الافكار الواردة اليه أو يبعدها . من كان هادئاً في أعماق قلبه يفهم ما نقول . أما من كان بعد طفلاً فانه لم يذقه ولم يعهده .

٤ ـ لن تعوز الهادىء (٢) الفطن أقوال ينطق بها لأنه يضيء بأعماله .

٥ ـ أول الهدوء إبعاد الضوضاء لأنها تعكر قعر النفس . أما كماله فعدم خشية الضوضاء بل عدم التأثر بها أو الالتفات إليها . ومن يسع في إثر الهدوء بانتظام يزدد لطفاً كلما تقدم فيه ويُمس بيتاً للمحبة بجملته لا يتحرك الى التكلم إلا بصعوبة ولا يتحرك الى الغضب على الاجمال. وعكس ذلك بيّن جلي.

٦ ـ الهادىء هو من يبذل جهده ليحصر عقله في حدود جسده ، على ما في ذلك من غرابة .

٧ ـ كما يرصد الهر الفأرة ليصطادها كذلك يرصد عقل الهادىء الفأرة العقلية . لا يكن هذا المقال عندك مرفوضاً وإلا فما عرفت الهدوء بعد .

٨ ـ الراهب الذي يعيش برفقة آخرين غير الراهب المتوحد المنفرد . فالراهب المنفرد تعوزه يقظة جزيلة وعقل لا يدور . وكثيراً ما يعين الاول رفيقه ، أما الثاني فالملاك وحده معينه .

٩ ـ إن القوات العقلية تشارك الهادىء الحقيقي صلاته وعبادته وترتاح الى السكنى معه ، أما من كان عكس ذلك فأسكتُ عنه .

١٠ ـ إن قعر العقائد عميق ، وعقل الهادىء يجول فيها دون خطر .

١١ ـ كما أن السباحة بالثياب غير آمنة كذلك تعاطي اللاهوت من قبل ذوي الاهواء لا يخلو من خطر .

١٢ ـ إن قلاية الهادىء سور لجسده تحوي داخلها بيتاً للمعرفة .

١٣ ـ من يقدم على سيرة الهدوء وهو مستعبد لأحد الاهواء يشبه من يثب من

---

(٢) الذي يعيش في عزلة الهدوء .

السفينة الى اليمّ متوهماً أنه يصل الى اليابسة على خشبة بسرعة وأمان .

١٤ ـ إن الهدوء في أوانه يوافق من يقاتلون حمأة الجسد ، اللهم إن كان لهم مرشد ، لأن الهادىء المتوحد يحتاج الى قوة ملائكية . واني لأتكلم عن الهادئين بالحقيقة جسداً وروحاً .

١٥ ـ متى تواني الهادىء مال الى الكذب وحمل الناس بأحاجيه على قطع هدوئه . وإذا ترك قلّايته تعلّل بالشياطين وقد تناسى أنه صار شيطاناً لنفسه .

١٦ ـ رأيت هادئين قد أرووا غليل شهوتهم وشوقهم اللاهب الى الله دونما ارتواء فأضرموا ناراً على نار وعشقاً على عشق وشوقاً على شوق .

١٧ ـ الهادىء ملاك أرضي قد أعتق صلاته من الفتور والتواني بثبات شوقه وغيرته . الهادىء هو من صاح حقاً : « مستعد قلبي يا الله » (٣) . هادىء ذاك الذي قال : « أنا نائم ولكن قلبي مستيقظ » (٤) .

١٨ ـ أغلق باب قلايتك على جسدك وباب لسانك على كلامك وباب قلبك دون الارواح الشريرة .

١٩ ـ سكون البَحر وحر الظهيرة أفرغا صبر البحّار ، وعوز الهادىء امتحن ثباته . الاول إذا أغتم سبح والثاني إذا ضجر اختلط بالآخرين .

٢٠ ـ لا تخف أن يلهيك الضجيج عن الله فان التوبة المتألمة لا تحين له ولا ترتاع .

٢١ ـ إن الذي تعلّم عقله ان يصلي حقيقة يخاطب الرب وجهاً لوجه كمن يخاطب الملك همساً في أذنه ، والذي يصلي بفمه يجثو أمامه كمن يجثو للملك بحضرة مجلسه ، والمقيم في العالم يتوسل الى الملك في وسط جلبة سائر الشعب . إن كنت عالماً بحرفة الصلاة فلن يخفى عنك ما قلناه .

٢٢ ـ إجلس في مكان عال وارصد نفسك إن كان لك في الرصد دراية ، فتبصر

---

(٣) مز ٥٦ : ٨ .

(٤) نشيد الانشاد ٥ : ٢ .

حينذاك أي لصوص يأتونك ليدخلوا ويسرقوا عناقيدك وكيف ومتى ومن أين يأتون وما عددهم .

٢٣ ـ إذا مل الرقيب (٥) فلينهض ويصلِّ ثم يجلس من جديد ويتابع عمله الاول بشجاعة .

٢٤ ـ لقد أراد أحدهم ممن خبروا هذه الامور أن يخبر عنها بدقة وتفصيل ، إلا أنه خشي أن يثبط عزيمة الجادّين في هذا السبيل أو يُفزع ويُنفّر بجلبة أقواله العازمين على سلوكه .

٢٥ ـ من يعمد الى شرح حالة الهدوء بدقة ومعرفة يثير عليه الشياطين إذ لا يستطيع سواه أن يفضح قبائحهم .

٢٦ ـ من بلغ الهدوء الكامل أدرك عمق الاسرار الالهية ، إلا أنه ما كان قد أدركه لو لم يكن قد أبصر وسمع أصوات الامواج والارياح أولاً وربما تبلل من جرائها . ويؤيد الرسول العظيم ما قلناه ، لأنه لو لم يُخطف (من اضطراب العالم) إلى الفردوس كأنه إلى الهدوء لما أمكنه أن يسمع كلمات لا يُنطق بها (٦) . إن اذن الهادىء تسمع من الله العجب ولذا قال ايوب الحكيم في سفره : « أية عجائب لم تسمعها منه أذني ؟ » (٧) .

٢٧ ـ الهادىء هو من يهرب من كل الناس دون أن يمقت الناس . وذلك بالهمة نفسها التي يسعى بها اليهم غيره بدافع التواني. انه لا يشاء أن تنقطع عنه حلاوة الله ولو قليلاً .

٢٨ ـ إذهب ووزع مالك سريعاً (لأن بيعه يحتاج الى وقت) ، وأعطه للرهبان المساكين (٨) ، لكي يرافقوك بصلاتهم في ابتغائك حياة العزلة ، وارفع صليبك حاملاً إياه بممارسة الطاعة وبالصبر الكثير على ثقل قطع المشيئة ، وهلم بعد ذلك اتبعني (٩)

---

(٥) رقيب نفسه .

(٦) ٢ كو ١٢ : ٤ .

(٧) ايوب ٤ : ١٢ (الترجمة السبعينية) .

(٨) متى ١٩ : ٢١ أي للعائشين الحياة المشتركة في الدير .

(٩) متى ١٦ : ٢٤ .

الى الاقتران بالهدوء الجزيل الغبطة فـاعرّفك العمل الـذي يتعاطـاه الملائكـة وسيرتهم الظاهرة . فإن أولئك العقليين لا يشبعون الى أبد الابدين من تسبيـح الخالق ، وكـذلك الذين دخلوا سماء الهدوء لا يكفون عن تسبيحه . أولئـك اللاّ ماديّـون لا يهتمون بـالمادة وكذلك هؤلاء اللا ماديـون الكائنـون في جسد مـادي لا يهتمون بـطعام . وكـما لا يحس أولئك بحاجة الى غذاء هكذا لا يحتاج هؤلاء الى الانهماك في استحضار الغذاء . أولئك لا يعنـون بالامـوال والاملاك وهؤلاء لا يبالـون بتشويش الارواح الشـريرة . أولئـك الذين هم من فوق لا يشتهون المخلوقات وهؤلاء الـذين هم على الارض لا ينظرون إلى الحسيـات . أولئك لن يكفـوا يوماً عن التقدم في الحب وهؤلاء لا يكفـون كل يـوم عن التشبه بهم . أولئك لا يجهلون مدى وفور تقدمهم وهؤلاء يعرفون توقهم الى الارتقـاء . فإنهم لن يقفوا الى أن يبلغـوا حال السيـرافيم ، ولن يكلّوا حتى يصيروا مـلائكة . فمن يرجو ذلك هو سعيد ، والمزمع أن يبلغه مثلث السعادة . أما من وصل فذاك ملاك .

فصل خاص في وصف مختلف حالات الهدوء والتمييز بينها

٢٩ ـ لا يخفى عـلى احد وجـود فـوارق في الآراء والمناهـج في سـائـر العلوم . إذ ليست كل الانجازات لجميع الناس ، وذلك إما لقلة إجتهـادهم أو لعجزهم . وبـالتالي فالقادمون الى ميناء الهدوء هذا ، بل الى هذه اللجة وربما الى هذا القعر ، هم قادمون إما لتلافي ثرثرتهم أو لتجاوز شهوانيتهم ، وغيرهم لانهم سريعو الغضب ولا يستطيعون أن يضبـطوه وهم مقيمـون بـين النـاس ، وآخـرون لأنهم ، من تلقـاء الغـرور ، يؤثـرون الاستقلال في السيرة على الخضوع للارشاد ، وغيرهم لأنهم لا يستطيعـون الانقطاع عن الماديـات وهم في وسـطهـا والبعض ليصيـروا بـانفـرادهم عن النـاس مجـدّين في سعي الفضيلة ، وغيـرهم ليعذبـوا أنفسهم تكفيـراً عن زلاتهم خفيـة عن النـاس ، وآخـرون ليحصلوا بسبب الانفراد على تشريف لأنفسهم . ويوجد غيرهم يقتـرنون بـالهدوء تمتعـاً بحب الله وحلاوته (إن كان ابن الانسان سيجد مثل هؤلاء عـلى الأرض عند مجيئـه) ، ولكنهم لن يحققوا أمنيتهم ما لم يعطوا الضجر بـأنواعـه كتاب طـلاق ما دام وصـالهم به يحسب زنى .

٣٠ ـ هـذا وقـد نجّـرت حسب معـرفتي القليلة وليس كمهنـدس حكيم ، سلّماً للصعود ، فلينظر كل واحد في أية درجة منهـا هو : أفي درجـة الاستقلال في السيـرة أم

طلب التشريف أم تدارك فرط اللسان أم تلافي الغضب أم الهرب من التعلق بالناس أم وفاء دين الزلات أم ابتغاء المجد والغيرة أم إستمداد المزيد من نار المحبة الالهية ؟ إن الآخرين أولون والاولين آخرون . أما الدرجات السبع الاولى فهي أعمال اسبوع هذا الدهر ، بعضها مقبول وبعضها مرفوض . وأما الدرجة الثامنة فمن الواضح أنها علامة الدهر الآتي .

٣١ ـ أيها الراهب المنفرد أرصد الاوقات التي تحوم فيها الوحوش حولك وإلا فلن تستطيع أن تنصب الفخاخ الملائمة لاقتناصها . وان كان الضجر الذي طلقته قد أنتزع عنك بالتمام فجهادك جزيل ، أما أن كان لا يزال ينقضّ عليك فلست أعرف كيف تقيم في الهدوء .

٣٢ ـ لماذا لم يظهر عند الرهبان الطابينسيين (١٠) الابرار آباء نيّرون بمقدار ما ظهر عند الاسقيطيين (١١) ؟ من استطاع أن يفهم فليفهم ، فاني لا أقدر والاحرى اني لا أريد أن أتكلم .

٣٣ ـ إن بعض الرهبان يدأبون على التخفيف من وطأة أهوائهم وغيرهم يعكفون على الصلاة وترتيل المزامير أكثر أوقاتهم ، بينما آخرون ينكبّون بشغف على التأمل العقلي ويؤخذون به . فليُبحث عن جواب لسؤالي السابق على أساس ترتيب هذه السلم المتدرجة . ومن يسع الى ذلك فليسع بتوفيق الرب .

٣٤ ـ قد تؤمّ الاديار ذات المعيشة المشتركة نفوس متوانية إذا توافرت لها فيها أسباب التواني تنتهي الى هلاك تام . ولكن نفوساً أخرى تطرح عنها توانيها إذا ما أقامت مع آخرين . وكثيراً ما يعرض ذلك لا للنفوس المتهاونة فقط بل للنفوس الغيورة أيضاً .

٣٥ ـ وينطبق هذا القول أيضاً على حياة العزلة لأن الهدوء قد استلم كثيرين فاضلين فخذلهم لاتّباعهم مشيئاتهم وأوضحهم محبين للذات ، بينما تسلم غيرهم فابرزهم مجتهدين حارين من جراء خوفهم من العقاب واهتمامهم به .

٣٦ ـ لا يجترئن أحد ينكّده غضب ، أو غرور ، أو رياء ، أو حقد ، على اقتفاء

---

(١٠) هم الرهبان اللذين أسسهم القديس باخوميوس في طابينسي في مصر وهم يعيشون حياة مشتركة .
(١١) هم العائشون في الاسقيط في صعيد مصر وهم متوحدون .

سيرة الهدوء لئلا يجني منه ضلالاً عقلياً لا غير . وإن كان أحد نقياً من تلك الاهواء فسوف يعرف ما يوافقه . وأخشى أن لا يعرف هو أيضاً ما يلائمه (١٢) .

٣٧ ـ إليكم سمات الجادّين بصورة سليمة في جهاد الهدوء ، وممارساتهم : عقل متيقظ وفكر نقي وانخطاف في الرب وذكر دائم للعقاب واشتهاء للموت وعدم الشبع من الصلاة واحتراس لا يُسلب واضمحلال الزنى وعدم التعلق بشيء وموت عن العالم وإقصاء الشراهة ومعرفة التكلم في اللاهوت وينبوع من التمييز وتحالف مع الدموع وتلاشي الثرثرة ، وسائر المناقب المماثلة التي يخالفها كلياً عامة الناس .

٣٨ ـ أما سمات الذين يمارسون الهدوء بدون معرفة فهي : فقرهم الروحي وازدياد غيظهم وادّخارهم للحقد ونقصان المحبة عندهم وتمادي غرورهم . وما يتبع ذلك أسكتُ عنه (١٣) .

٣٩ ـ ولكن لما كان كلامنا قد اتخذ هذا السياق فيلزمنا إضطراراً التحدث الآن في هذا الشأن عمن يسلكون في الطاعة أيضاً لا سيما وان كلامنا في هذا الكتاب موجه اليهم في الاساس .

٤٠ ـ فإليكم إذاً دلائل المقترنين بالطاعة الرصينة والبهية الحسن إقتراناً شرعياً طاهراً ، وهي الدلائل عينها التي حددها آباؤنا المتوشحون بالله والتي لا تكتمل إلا في حينها ، مع أننا نزداد فيها كل يوم نجاحاً وتقدماً : النمو التدريجي في التواضع ، تناقص الغضب (كيف لا يتناقص وقد أفرغت المرارة) ، تلاشي الارتياب ، تكاثر المحبة ، الإعراض عن الاهواء ، التحرر من المقت ، تناقص الفسق بسبب اقتبال التوبيخات ، عدم معرفة الضجر ، تزايد الجد ، العطف والود ، إقصاء الكبرياء . ولكن هذا يبتغيه الجميع ويحققه قليلون : إذا لم يكن في النبع ماء فاسمه لا يصلح له ، والمغزى مفهوم عند ذوي الفهم .

٤١ ـ أن المرأة التي لا تحفظ مضجعها تدنس جسدها ، والنفس التي لا تحفظ عهدها تدنس روحها ، تلك يلحقها ذم ومقت وضرب وطلاق (وهو أدعى للشفقة من

---

(١٢) ما لم يرجع الى رأي غيره .

(١٣) أي سقوط الجسد وضلال العقل

كل شيء) ، وهذه يلحقها تدنيس ونسيان لذكر الموت ونهم لا يشبع وفقدان لضبط النظر وسعي للغرور وعدم الشبع من النوم وقساوة القلب وعدم الاكتراث وتكاثر الافكار الرديئة مع الانسياق لها وأسر القلب واضطراب الاعمال وعدم الإذعان والمحاججة وعدم الايمان وعدم الايقان بالخلاص والثرثرة والتعلق بالمقتنيات والدالة التي هي أثقلها كلها . أما ما يستدعي الشفقة أكثر من الكل فهو قلب غير تائب ينجم عنه عند المتوانين عدم الاحساس الذي هو أمّ الارواح الشريرة والسقطات .

٤٢ ـ أن خمسة (١٤) من الافكار الثمانية تحارب الهادئين (١٥) ، والثلاثة الباقية (١٦) تقاتل المطيعين (١٧) .

٤٣ ـ من ينصرف في هدوئه الى محاربة الضجر كثيراً ما يتأذى ، إذ يضيع وقت الصلاة والثيوريا (١٨) في مقاتلته والاحتيال عليه .

٤٤ ـ استولى عليّ التواني مرة وأنا جالس في قلايتي فهممت بتركها فزارني أناس وطفقوا يطوبونني كثيراً على إقامتي في الهدوء فطرد الغرور حالاً فكر التواني . فعجبت كيف أن هذا الشيطان المثلث الحسكات يناهض الارواح كلها .

٤٥ ـ أرصد في كل حين حملات قرينك عليك (١٩) وتراجعاته عنك وكافة انعطافاته وتقلباته وكيف وأين تتجه . فمن اقتنى هدوءاً بالروح القدس لا يخفى عليه ما نقول .

٤٦ ـ إن عمل الهدوء الاول هو عدم الاهتمام بكافة الامور ، الصالحة منها وغير الصالحة ، لأن من يفسح مجالاً للأولى سوف يسقط لا محالة في الثانية . وعمل الهدوء الثاني صلاة لا تفتر . أما عمله الثالث فيقظة قلب منيعة لا تُسلب . من لم يتعلم القراءة يعجز بالطبع عن مطالعة الكتب ومن لم يمارس العمل الاول يعجز بالاكثر عن ممارسة

---

(١٤) الكبرياء والعجب والكسل والضجر ومحبة المال .
(١٥) أي المتوحدين .
(١٦) الشراهة والغضب والزنى .
(١٧) في الدير ذي المعيشة المشتركة .
(١٨) التأمل العقلي ومعاينة الامور الالهية .
(١٩) روح الضجر .

العملين الآخرين كما يجب .

٤٧ ـ لما كنت أواظب على العمل الاوسط (٢٠) وُجدت يوماً بين الوسطانيين (٢١) فصار أحدهم ينيرني ويروي عطشي الى المعرفة . وعندما وُجدت مرة أخرى بينهم سألته عن هيئة الرب قبل اتخاذه الصورة البشرية المنظورة فلم يستطع إجابتي إذ لم يُسمح له بذلك ، فسألته أن يقول لي كيف هو الآن فقال هو في الحالة الخاصة به وليس في حالتنا هذه . فاستخبرته ما هو وقوفه وجلوسه عن يمين الآب فأجابني : يتعذر على الاذن البشرية إدراك هذه الاسرار ، فناشدته أن يأخذني دون إبطاء الى من يشدني الحنين إليه فقال : لم يحن الوقت بعد لأن نار عدم الفساد لا تضطرم كفاية فيك . هذا ولست أعلم هل عاينت هذه الرؤيا في الجسد أم خارج الجسد (٢٢) . ولا أستطيع الفصل في ذلك البتة .

٤٨ ـ من الصعب أن ننفض عنا نعاس الظهيرة لا سيما في أوقات القيظ ، ولعلَّ العمل اليدوي حينئذ وحينئذ فقط ليس مرفوضاً .

٤٩ ـ خبرت أن روح الضجر يسبق ويمهد السبيل لروح الزنى حتى إذا أعيا الجسد إعياء شديداً وأغاصه في النوم قام روح الزنى بتدنيس الهادئين في النوم كأنهم في اليقظة . وإن أنت قاومتها بشدة عمدا الى مقاتلتك بعنف ليكفاك عن جهاداتك كأنها لم تجديك نفعاً . وليس ما يوضح انهزام الشياطين لنا كالحرب القاسية التي يشنونها علينا .

٥٠ ـ إذا خرجت من عزلتك احفظ ما جمعت فإن فُتح باب القفص طارت منه العصافير ، وحينئذ لن نستفيد من هدوئنا شيئاً .

٥١ ـ شعرة صغيرة تكدر العين واهتمام يسير يبدد الهدوء . لأن الهدوء إنما هو إقصاء لهواجس الافكار وجحود للاهتمامات كافة وإن كانت صالحة .

٥٢ ـ من بلغ حقاً الى الهدوء لن يهتم حتى بجسده لأن الذي وعد (٢٣) هو غير كاذب .

---

(٢٠) الصلاة الدائمة .

(٢١) الملائكة (ما بين الله والناس) .

(٢٢) ٢ كو ١٢ : ٢ وما يليها .

(٢٣) عب ١٠ : ٣٢ أنظر مت ٦ : ٢٥ ـ ٣٤ .

٥٣ ـ من يبتغي أن يُحضر عقله نقياً لدى الله وهو منشغل بالاهتمامات ومضطرب يشبه من يكبّل رجليه بقيود وثيقة ويريد أن يمشي سريعاً .

٥٤ ـ الضليعون بالفلسفة العالمية قليلون ولكني أؤكد أن العالمين حقاً بفلسفة الهدوء الالهي هم أقل منهم .

٥٥ ـ من لم يعرف الله بعد لا يؤهل للهدوء بل يعرّض نفسه فيه لأخطار كثيرة . إن الهدوء يدمّر غير المختبرين لأنهم لم يذوقوا حلاوة الله ، فيضيعون وقتهم في المهو واللهو .

٥٦ ـ من خبر حسنات الصلاة يهرب من الجموع هرب الحمار البري من الناس ، إذ ما الذي سوى الصلاة يجعله كالحمار البري حراً من مخالطة الناس ؟

٥٧ ـ من كان مستعبداً للأهواء وأقام في القفر يلهج بأهوائه . هذا ما أخبرني به وعلمني إياه شيخ قديس هو جرجي الارسيلايتي الذي تجهله أبوتك (٢٤) ، فقد أدبّني مرة وأرشد نفسي الباطلة الى الهدوء فقال : إنني ترقبت فلاحظت قدوم شيطاني الغرور والزنى عادة في الصباح ، وأرواح الضجر والحزن والغضب عند الظهيرة ، والشياطين الانجاس أسياد البطن عند المساء .

٥٨ ـ مطيع بسيط في الدير أفضل من معتزل شارد لاهٍ في البرية .

٥٩ ـ من احترف سيرة الهدوء السليمة ولا يلاحظ ربحه كل يوم فاما أن يكون لا يمارس الهدوء بصورة سليمة أو أن يكون مسلوباً من غروره .

٦٠ ـ الهدوء هو عبادة الله والوقوف بين يديه تعالى دون انقطاع .

٦١ ـ ليلتصق ذكر يسوع بتَنَفّسك (٢٥) فتعرف حينذاك منفعة الهدوء .

٦٢ ـ سقطة المطيع في الدير مشيئته الذاتية ، وسقطة المعتزل الهادىء انقطاعه عن صلاته .

---

(٢٤) أي يوحنا رئيس دير رايثو في فلسطين ، الذي كتبت السلم بناء على طلبه .

(٢٥) هذه إشارة الى صلاة يسوع كما يصليها الآن : « ربي يسوع المسيح إبن الله ارحمني أنا الخاطىء » .

٦٣ ـ إن كنت تفرح بحضور الضيوف إليك فاعرف أنك قد تفرغت للضجر لا لله .

٦٤ ـ ليكن إلحاح الارملة التي ظلمها خصمها (٢٦) مثالاً لصلاتك ، وليصر ارسانيوس الكبير ، الهادىء الملائكي ، رسماً لهدوئك . فاذكر في عزلتك سيرة هذا المتوحد العظيم وانظر كيف كان ، مرات كثيرة ، يردّ الآتين اليه لئلا يخسر ما هو أعظم (٢٧) .

٦٥ ـ لقد لاحظت أن الشياطين يحثون الرهبان الدوارين الجهلة على زيارة الهادئين الحقيقين بتواتر بغية تعويقهم عن جهادهم ولو قليلاً . فيا هذا لاحظ مثل هؤلاء ولا تمتنع عن كسفهم بخوف الله لعلهم بذلك يكفون عن دورانهم وتوانيهم ، لكن انظر ألا تندفع بحسن نيتك فتحزن نفساً ربما جاءتك عطشى لتنهل منك ماء ، فإنك تحتاج في كل شيء الى نور التمييز .

٦٦ ـ ليسلك الهادئون ولا سيما المنفردون منهم بوعي وإحساس فإن من يسعى وفق الأصول يتمم أعماله وأقواله وأفكاره وخطواته ومقاصده وحركاته كلها بحرارة في حضرة الرب ولوجهه تعالى . وان كان لا يزال يسهو عن ذلك فهو لا يتصرف بعد حسب أصول الفضيلة .

٦٧ ـ قال قائل سأكشف على القيثار قضيتي ومرادي (٢٨) لأن تمييزي لا يزال ناقصاً ، أما أنا فسأقترب الى الله في الصلاة مشيئتي فأنال منه يقيني .

٦٨ ـ الايمان جناح الصلاة لأن صلاتي بدونه ترجع الى حضني (٢٩) . الايمان ثبات النفس ويقينها فلا تضطرب لأية محنة . ليس المؤمن من يعتقد بأن الله قادر على كل شيء بل من يؤمن أنه سوف ينال منه أي شيء يطلبه . الايمان يأتينا بما لا نأمل وقد أوضح لنا هذا اللص الشكور (٣٠) . أمّ الايمان الشدة والقلب المستقيم ، فالقلب

---

(٢٦) لو ١٨ : ١ ـ ٨ .
(٢٧) أي النصيب الصالح الذي اختارته مريم أخت لعازر (لو ١٠ : ٤٢) .
(٢٨) مز ٤٨ : ٤ .
(٢٩) مز ٣٤ : ١٣ .
(٣٠) أنظر لو ٢٣ : ٤٢ ـ ٤٣ .

المستقيم يؤسسه والشدة تبنيه . والايمان بدوره أمّ الهادئين إذ كيف يهدأ من لا يؤمن ؟

٦٩ ـ المقيَّد في السجن يرتاع خوفاً من القاضي ، والمعتزل في قلايته يتولد فيه خوف الرب . ولا يخيف الاول مجلس القضاء مثلما يخيف الثاني كرسي الديان . أنت تحتاج أيها العجيب الى خوف كثير في هدوئك إذ لا شيء يطرد الضجر مثله . المجرم المحكوم عليه بالاعدام يترقب كل حين مجيء منفّذي الحكم عليه ، أما المجاهد الحقيقي فيتطلع الى اليوم الذي يأتيه فيه رسول الموت ليخرجه من جسده . ذاك مثقل بوثاق حزنه وهذا مأسور بنبع دموعه .

٧٠ ـ ان اقتنيت عكاز الصبر كفّت الكلاب سريعاً عن وقاحتها لديك . فالصبر جهاد للنفس ثابت لا يتثلم ولا تزعزعه أية صدمة ، متوقعة كانت أم غير متوقعة . الصبر يجد من الضيق بارتضائه إياه يوماً فيوماً . الصبور مجاهد لا يسقط بل من خلال السقطات يصنع لنفسه الظفر . الصبر قطع للتعلل بعلل التواني ولمراعاة الذات . لا يحتاج المجاهد الى طعام مثل احتياجه الى الصبر ، لأنه بحرمانه من الأول ينال إكليلاً أما بحرمانه من الثاني فيهلك . الصبور إنسان مات قبل دفنه وجعل قلايته قبراً له . الرجاء والنوح يولدان الصبر والخالي من كليهما عبد للضجر .

٧١ ـ على مجاهد المسيح أن يعرف أي أعداء ينبغي أن يطرد عن بعد وأيهم ينبغي أن يصارع عن قرب . فالصراع أحياناً يستحق الاكاليل وأحياناً أخرى يستوجب الشجب ، وكذلك الإحجام عن الصراع . ولكن تمييز هذا الامر لا يُكتسب بالتعليم النظري إذ ليس جميع الناس ذوي طباع واحدة واستعداد واحد .

٧٢ ـ إحترس بصورة خاصة من أحد الارواح (٣١) بتيقظ بليغ فإنه يقاتلك قتالاً لا هوادة فيه ، في وقوفك وانتقالك ، وقعودك وتحركك ، واضطجاعك وقيامك ، وصلاتك ونومك .

٧٣ ـ ليست أرغفة القمح السماوي كلها ذات شكل واحد في الطعام الروحي ، فبعض الذين سلكوا في الهدوء اتخذوا لأنفسهم عملاً داخلياً متواصلاً هو الهذيذ بالقول

---

(٣١) هو المنافي للعفة أو للتواضع .

التالي : « جعلت الرب أمامي في كل حين » (٣٢) ، وغيرهم اتخذوا الآية التالية : « بصبركم تقتنون أنفسكم » (٣٣) ، وآخرون : « اسهروا وصلوا » (٣٤) ، وغير هؤلاء «هيّء أعمالك لخروجك من الدنيا» (٣٥)، وآخرون: «اتضعت فخلصني الرب» (٣٦)، والبعض: «ان آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد الآتي» (٣٧)، والبعض الآخر يتأملون دائماً قوله: «احذروا لئلا يفترسكم وليس من منقذ» (٣٨). فكلهم يسعون ولكن واحداً ينالُ الجائزة سالماً(٣٩).

٧٤ ـ من تقدم في سيرة الهدوء يجاهد ليس في اليقظة وحسب بل وهو نائم أيضاً . من هنا أن البعض يقومون حتى أثناء النوم بشتم الشياطين القادمين عليهم ويعظون عن العفة نسوة سائبات . ولكن لا تنتظر أنت مثل هذه العوارض ولا تستعد لها فان سيرة الهدوء بسيطة خالية من التعقيد .

٧٥ ـ لا يتسرعن أحد في ابتناء قلاية هدوء (هي بمثابة برج) ما لم يجلس أولاً ويحسب ويتلمس بالصلاة إن كان عنده ما يلزم لاكمال البناء ، لئلا يضع الاساس ثم يصير هزءاً لأعدائه وتعويقاً لمجاهدين آخرين (٤٠).

٧٦ ـ تصفح الحلاوة الواردة اليك لئلا يكون قد ركّبها لك بمكر أطباء ظالمون بل غدارون .

٧٧ ـ أعط أكثر ليلك للصلاة وأقله للترنيم وتهيأ له في نهارك قدر طاقتك .

٧٨ ـ من شأن المطالعة (٤١) أن تضيء العقل بمقدار ليس بقليل ، لأن تلك

---

(٣٢) مز ١٥ : ٨ .
(٣٣) لو ٢١ : ١٩ .
(٣٤) مت ٢٦ : ٤١ .
(٣٥) أمثال ٢٤ : ٢٧ .
(٣٦) مز ١١٤ : ٥ .
(٣٧) رو ٨ : ١٨ .
(٣٨) مز ٤٩ : ٢٢ .
(٣٩) اكو ٩ : ٢٤ .
(٤٠) لو ١٤ : ٢٨ ـ ٣٠ .
(٤١) مطالعة الكتاب المقدس .

الاقوال هي للروح القدس وهي تقوّم الذين يواظبون عليها . إذا كنت مجاهداً فليكن لك ما تقرأه سبيلاً الى العمل به (٤٢) ، لأنك إذا عملت به تصبح قراءة ما عداه فضلة زائدة . أطلب بالحري أن تستضيء بأقوال الخلاص عن طريق الاتعاب لا عن طريق المطالعة . وقبل أن تحصل على قوة روحانية لا تطالع الاقوال الغامضة الغريبة لأنها أقوال ظلمة تظلم الضعفاء .

٧٩ ـ كما أن قدحاً واحداً من الخمر يكفي ليدل على طعمها كذلك كلمة واحدة يتفوه بها الهادىء توضح كل عمله الباطن وسيرته للقادرين على التذوق .

٨٠ ـ إقتن مقابل الغرور عين نفس ساهرة فليس بين السراق أخبث وأخطر .

٨١ ـ إحفظ لسانك عند خروجك من قلايتك فقد يبدد سريعاً أتعاباً كثيرة .

٨٢ ـ إطرح عنك الفضول والتكلف فإن البحث عما لا ينفع يدنس الهدوء تدنيساً لا يقدر عليه غيره .

٨٣ ـ قدم لمن يزورونك ما يحتاجون إليه ، جسدياً وروحياً . وإن كان القادمون إلينا أحكم منا فلنظهر حكمتنا بصمتنا . أما إن كانوا أخوة معادلين لنا في السيرة فلنفتح باب الكلام باعتدال . إلاّ أن الافضل على كل حال أن نحتسب الجميع خيراً منا .

٨٤ ـ أردت أن أمنع الذين هم أطفال بعد في السيرة الرهبانية عن أي عمل جسدي أثناء اجتماع الرهبان للصلوات ، فثناني عن ذلك حامل الرمل في الزنبيل طول بالليل (٤٣) .

٨٥ ـ كما أن عقيدة الثالوث القدوس له المجد تضاد في المعنى عقيدة التجسد (لأن الاقانيم في الثالوث ثلاثة بينما الاقنوم في المسيح واحد ، والطبيعة في الثالوث واحدة بينما في المسيح طبيعتان) على هذا المنوال تختلف الممارسات التي تلائم سيرة الهدوء عن التي تلائم سيرة الطاعة .

---

(٤٢) يع ١ : ٢٢ .

(٤٣) هو الأنبا باخوميوس وقد فعل ذلك لمقاومة النوم .

٨٦ ـ قال الرسول الالهي : « من عرف فكر الرب ؟ » (٤٤) . وأنا أقول : من عرف الرجل الهادىء بالجسد والروح ؟

٨٧ ـ عزّ الملك في غناه وكثرة رعاياه ، وعز الراهب الهادىء في غنى صلاته .

هذه درجة سابعة وعشرون من تهذب بها وأحكمها فقد صار نظير ملاك .



(٤٤) رو ١١ : ٣٤ .



المقالة الثامنة والعشرون

في الصلاة المقدسة المغبوطة أمّ الفضائل وفي القيام بها بالعقل والجسد

١ ـ الصلاة في كنهها هي عشرة الانسان مع الله والاتحاد به تعالى ، اما في فعلها فهي دعم الكون ومصالحة الله ، وأمّ الدموع وابنة لها ايضا ، وتكفير عن الخطايا ، وجسر لاجتياز التجارب ، وسور في وجه الاحزان ، وقطع دابر القتالات ، وشغل الملائكة ، وقوت جميع العادمي الاجساد ، والفرح المنتظر ، وعمل غير محدود ، وينبوع الصالحات، ومَعين المواهب، وتقدم غير منظور، وغذاء النفس، واستنارة العقل، وفأس يقطع اليأس، وعلامة الرجاء، وتلاشي الغم، وثروة الرهبان، وكنز المتوحدين الصامتين، وتسكين لغيظنا، ومرآة لتقدمنا، وإظهار لقدرتنا، وإيضاح لحالنا، وإعلان المستقبل، وسمة المجد. الصلاة هي للمصلي الحقيقي محكمة الرب ومنبره وحكمه قبل الحكم المنتظر.

٢ ـ فلنقم ونصغ الى هذه الجليلة ملكة الفضائل تصرخ بنا وتقول : « تعالوا الي يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم . احملوا نيري عليكم فتجدوا راحة لنفوسكم » ، وشفاء لجراحكم ، « لأن نيري لينٌ »[1] وشاف لسقطات عظيمة .

٣ ـ عندما نتوجه للمثول لدى ملكنا والهنا ومخاطبته فلا نجعلن سعينا هذا بغير استعداد لئلا يبصرنا الملك من بعد غير لابسين الحلة اللائقة للوقوف امامه ، فيوعز الى أعوانه وخدامه بنفينا بعيدا عن وجهه مغلولين ويردّ عرائضنا ممزقة امام وجهنا .

٤ ـ لتكن حلة نفسك عند ذهابك للمثول امام الرب منسوجة كلها بخيوط عدم

(١) متى ١١ : ٢٨ ـ ٣٠ .

الحقد الكامل وإلاّ فلا تستفيد من صلاتك شيئا .

٥ ـ لتكن طلبتك بسيطة كل البساطة خالية من التكلف والتزويق لأن العشار والابن الشاطر قد صالحا الله بكلمة واحدة .

٦ ـ ان هيئة جميع الماثلين للصلاة واحدة ولكن طلبة الواحد تختلف كثيراً عن طلبة الآخر ، فالبعض يصلون الى الباري كأنهم الى حبيب وسيد يسبحونه ويتضرعون اليه من اجل غيرهم لا من اجل انفسهم ، وآخرون يبتغون مزيدا من الغنى الروحي والمجد والدالة لديه ، وغيرهم يلتمسون النجاة من خصمهم نجاة تامة[٢] ، وقوم يسألون الحصول على نعمة ما ، وآخرون يرجون تأكيدا كاملا لترك ديونهم ، والبعض إطلاقهم من حبسهم ، وآخرون الصفح عن اوزارهم .

٧ ـ ينبغي ان ندرج في عريضة توسلاتنا شكرا خالصا قبل اي شيء آخر ، ثم اعترافاً بهفواتنا وتندما حارا عليها ، وبعد ذلك نعرض سؤالنا لملك الكل . هذه هي طريقة الصلاة الفضلى على ما اوضحه ملاك الرب لأحد الاخوة .

٨ ـ ان كنت قد مثلت مرة امام قاض ارضي فلن تحتاج الى مثال آخر لوقوفك في صلاتك . اما ان كنت ما وقفت متّهماً امام الناس ولا شاهدت آخرين يُستنطقون فتعلّم حرارة الصلاة على الاقل من تضرع المرضى الى الاطباء حين يعمد هؤلاء الى الشق او الكي .

٩ ـ لا تتأنق في ألفاظ صلاتك فان لعثمة اطفال بسيطة خالية من التنميق كثيرا ما استعطفت أباهم السماوي .

١٠ ـ لا تعمد الى الاكثار من الاقوال في الصلاة لئلا يشتت عقلك في البحث عن ألفاظ التضرع . فان كلمة واحدة من العشار قد استرضت الله ، وصرخة ايمان واحدة خلصت اللص . فالثرثرة في الصلاة كثيرا ما تجنّح العقل الى التخيلات وتشتته بينما الكلام المقتضب[٣] يجمعه .

١١ ـ اذا احسست بحلاوة او تخشع في لفظ من ألفاظ صلاتك فاثبت فيه فان

---

(٢) انظر المقالة الخامسة عدد ٢٥ .

(٣) يقصد ترداد كلمة واحدة او جملة واحدة monologia .

ملاكنا الحارس يصلّي معنا حينذاك .

١٢ ـ لا تتقدم الى الله بـدالّة حتى وان كنت قـد اقتنيت طهـارة بـل تقـدم اليـه بالاحرى بتواضع جزيل فتحظى بدالة اوفر .

١٣ ـ وان كنت قد صعدت سلم الفضائل كلها فصلّ من اجل غفران خطاياك ، اذ تسمع بولس يهتف قائلا عند ذكره للخطأة : « انا اولهم »[٤] .

١٤ ـ الاطعمة تُتبَّل بالزيت والملح ، والصلاة تُجنَّح بالعفة والدموع .

١٥ ـ اذا توشحت بتمام الوداعة وعدم الغيظ فلن تتعب كثيرا في تحرير عقلك من التشتيت .

١٦ ـ ما دمنا نجاهد لإحراز صلاة نقية والى ان نحرزها فنحن نشبه الذين يدرّبون الاطفال على البدء بالمشي .

١٧ ـ اجتهد لترفع فكرك الى فوق وبالاحرى لتحبسه في كلمات الصلاة . وإنْ ضعف بسبب حداثته وترك الصلاة فأعده اليها من جديد ، اذ ان عدم الثبات هو من خصائص عقلنا ، ولكن الله قادر على تثبيت كل شيء . فاذا واصلت هذا الجهاد بلا هوادة يوافيك من يحصر بحر عقلك ويقول له : « الى هذا الحد تأتي ولا تتعدى »[٥] . الروح لا يقيَّد ولكن حيث خالق الروح فان كل شيء يخضع له .

١٨ ـ ان كنت قد عاينت شمس العدل يوما ، كما يترتب عليك ، فانت تقدر ان تخاطبه كما يليق به ، والا فكيف تستطيع ان تحادث حقيقةً من لم تر ؟

١٩ ـ فاتحة الصلاة ان نطرد الهواجس الخاطرة لنا باستغاثة واحدة حال ظهورها ومنتصفها ان نحصر فكرنا في ألفاظ الصلاة ومعانيها . اما كمالها فهو اختطاف عقلنا في الرب .

٢٠ ـ ان الفرح الذي يحصل للمصلين في جماعة الرهبان غير فرح المصلين في

---

(٤) ١تي ١ : ١٥ .
(٥) ايوب ٣٨ : ١١ .

العزلة . فالاول قد يداخله شيء من التيه ، اما الثاني فيملأه التواضع .

٢١ ـ اذا كنت تروّض عقلك باستمرار على الا يشرد قط فستجده بقربك رهناً لك حتى اثناء الطعام . وان تركته يتيه بلا قيد فلن يثبت عندك يوما ، وقد قال الرسول العظيم الذي ارتقى الى الصلاة العليا الكاملة : « أشاء بالحري ان اقول خمس كلمات بعقلي الخ . . . »[٦] ولكن مثل هذه الصلاة غريبة عن « الاطفال » بالروح . ولذلك نحن غير الكاملين نحتاج الى كثرة ألفاظ الصلاة مع احتياجنا الى جودتها ، لأن وفرتها تقود الى نقاوتها ، اذ قيل : « هو المعطي صلاة نقية للمصلي »[٧] ، اي لمن كان دؤوبا على الصلاة رغم ما يخالطها من عكر وما يعاني فيها من تعب .

٢٢ ـ الصلاة العكرة غير الصلاة المتلاشية ، وغير الصلاة المسلوبة ، وتختلف عن الصلاة المستوجبة الدينونة . فالصلاة العكرة هي ان نقف امام الله ويخطر لنا فيها افكار غريبة عن الصلاة ، والصلاة المتلاشية هي ان نُسبى اثناء الصلاة غارقين في اهتمامات لا جدوى منها ، والصلاة المسلوبة هي ان تشرد افكارنا في اوان الصلاة دون ان نشعر بذلك ، والصلاة المستوجبة الدينونة هي ان ننقاد لأية تجربة تداهمنا وقت الصلاة ونؤخذ بها .

٢٣ ـ اذا اتفق حضور آخرين معنا وقت الصلاة فلترسم شكل صلاتنا وارتفاعها الى الله في داخلنا دون اظهاره ، اما اذا لم يحضر احد من خدام المدح والاطراء فلنعبّر عن ابتهالنا في هيئتنا الخارجية ايضا ، لأن الذهن عند غير الكاملين كثيراً ما يتمثل بالجسد .

٢٤ ـ يعوزّ الناس جميعا ، ولا سيما من يتوسل الى الملك لينال حل ديونه ، انسحاق لا يوصف . فما دمنا اسرى الجسد فلنصغ الى القائل لبطرس[٨] : إتّزر بإزار الطاعة وانزع مشيئتك وتقدم في صلاتك الى الرب عارياً ملتمسا مشيئته وحدها فتلقى الله حينذاك ضابطا دفة نفسك ومدبرا اياك بامان .

٢٥ ـ إنهض من حبك للعالم ومن شغفك باللذة واطرح عنك كل اهتمام وانزع

---

(٦) اكو ١٤ : ١٩ .

(٧) ملوك الاول ٢ : ٩ (بحسب نص الترجمة السبعينية) .

(٨) انظر اعمال ١٢ : ٨ .

فكرك واجحد جسدك ، فليست الصلاة الا اغترابا عن العالم المنظور ، اذ « اي شيء لي في السماء ؟ » لا شيء ، « وما الذي ابتغيته في الأرض ما عداك ؟ » لا شيء الا الالتصاق بك في صلاتي كل حين خلوا من التهاء . فالغنى مبتغى عند اناس والشرف عند غيرهم ، وتحقيق الانجازات عند آخرين ، « اما انا فمشتهاي الالتصاق بالله والقاء رجائي عليه »[9] من اجل ملاشاة اهوائي .

٢٦ ـ ان الايمان يعطي اجنحة للصلاة وبدونه لا تستطيع ان ترتفع الى السماء .

٢٧ ـ فلنثابر على الابتهال الى الرب نحن المستعبدين للاهواء لكي يعتقنا منها ، لأن جميع الذين بلغوا اللاهوى قد انطلقوا من اهوائهم ثم توصلوا الى الانعتاق منها .

٢٨ ـ ان القاضي وان كان لا يرهب الله (كونه الله) الا انه لأجل ان النفس التي ترملت منه بخطيئتها وسقطتها تزعجه بصلاتها سينصفها من الجسد خصمها ومن الارواح محاربيها[10] . فمدبرنا الصالح يجتذب النفوس الكريمة الى حبه بالاستجابة السريعة لسؤالها ويترك النفوس الضنينة تصلي لديه طويلا جائعة عطشى الى مطلوبها ، لأن الكلب الشحيح حالما يلتقط كسرة الخبز ينصرف عمن اعطاه اياها .

٢٩ ـ لا تقلْ بعد مداومتك طويلا على الصلاة : « اني لم أنتفع شيئاً » ، لأنك قد انتفعت ، اذ اي خير يضاهي الالتصاق بالله والثبات في الاتحاد به بلا انفصال ؟

٣٠ ـ ان صدور الحكم على المجرم لا يروّعه كما يروع رجل الصلاة وقوفه فيها . فان كان حكيما وفطنا امكنه ان يردّ بذكرها كل إساءة وغضب واهتمام دنيوي وانشغال بال وضيق وشبع وشرود فكر وتجربة .

٣١ ـ تهيأ بصلاة داخلية دائمة للقيام بصلواتك فتتقدم سريعا . فقد رأيت اناسا تلألأوا بطاعتهم ، ولا يتوانون قدر طاقتهم عن ذكر الله في ذهنهم ، حالما يقفون في الصلاة يضبطون عقلهم سريعاً في ذواتهم ويذرفون سيولاً من الدموع ، لأن الطاعة المقدسة قد سبقت فأعدّتهم لذلك .

٣٢ ـ التسبيح مع الجماعة عرضة لسبي الأفكار وشرود الذهن ، وذلك بخلاف

---

(٩) مز ٧٢ : ٢٥ ـ ٢٨ .

(١٠) انظر لو ١٨ : ١ ـ ٧ .

الصلاة على انفراد. ولكن هذه الاخيرة يقاتلها الضجر ، بينما يتعاضد الاخوة في الاولى بحرصهم المشترك .

٣٣ ـ ان الحرب تُظهر مدى حب الجندي لملكه ، اما الوقوف في الصلاة في اوقاتها فيُظهر حب الراهب لإلهه .

٣٤ ـ ان صلاتك تكشف لك حقيقة وضعك لأن المتكلمين باللاهوت قد سلّموا ان صلاة الراهب هي مرآته .

٣٥ ـ من يواصل عملا يقوم به عندما يحين وقت الصلاة تخدعه الشياطين لأن غاية اولئك اللصوص هي ان يسرقوا منا ساعة بعد اخرى .

٣٦ ـ لا تردّ من يسألك ان تصلي من أجل احد وان كنت لم تقتن موهبة الصلاة ، لأن ايمان السائل كثيرا ما اسعف المصلي بانسحاق .

٣٧ ـ متى صليت من أجل آخر وسُمعت صلاتك لا تترفع ، فان ايمان ذاك قد فعل وأيّد صلاتك .

٣٨ ـ كما ان كل صبي يُسأل بدقة عما تعلمه كل يوم من معلمه كذلك من العدل ان يطالَب كل عقل بعد كل صلاة بالقوة التي نالها من الله . ولذا فلنتبه للأمر . لأننا متى صلينا بوعي ويقظة حوربنا بتحرك الغيظ فينا بالاكثر بفعل اعدائنا .

٣٩ ـ لنمارس دائما كل الفضائل بحسّ كثير لا سيما الصلاة . ان النفس تصلي بحسّ متى تغلبت على الغضب .

٤٠ ـ ان المحامد التي نحصل عليها بصلاة كثيرة وخلال زمن طويل تدوم وتثبت .

٤١ ـ من اقتنى الرب لا يعود يحدد لذاته موضوع صلاته ، لأن الروح فيه حينذاك يصلي عنه بأنّات لا توصف[11] .

٤٢ ـ لا تقبل في بصلاتك اي تصور حسي لئلا يصيب عقلك زيغان .

---

(١١) رو ٨ : ٢٦ .

٤٣ ـ ان اليقين باستجابة الله لسؤالنا يحصل لنا في الصلاة . واليقين هو زوال الحيرة والارتياب ، بل هو بداهة ما لا يوضّح بالبرهان .

٤٤ ـ كن رحوماً جداً ان كنت مهتماً باستجابة صلاتك فانه فيها ينال الرهبان المائة ضعف في هذا الدهر ، والحياة الابدية في الدهر الآتي .

٤٥ ـ اذا أقامت النار في قلبنا أذكت صلاتنا ، ومتى ذكت صلاتنا وارتفعت الى السماء أحدرت نار العنصرة وأحلتها فينا .

٤٦ ـ يقول البعض ان الصلاة افضل من ذكر الموت ، اما انا فأسبّح جوهرين في اقنوم واحد .

٤٧ ـ ان الفرس الاصيلة تجود في جريها وتزداد اندفاعا . اما الجري فهو التسبيح واما الفرس فهو العقل الشجاع ، فانه يستنشق رائحة الحرب من بعيد فيستعد لها ويلبث صامدا ولا ينهزم .

٤٨ ـ صعب هو انتزاع الماء من فم العطشان ، وأصعب منه ان تُقطع عن صلاتها النفس التائبة المتوجعة قبل ان تنهي مناجاتها لله .

٤٩ ـ لا تُنهِ صلاتك قبل ان ترى لهيب التوبة وماء الدموع قد انقطعا عنك من عند الله ، فلعلك لا تصادف في كل حياتك وقتا موافقا كهذا لغفران خطاياك .

٥٠ ـ من ذاق الصلاة يدنّس عقله في احيان كثيرة اذا قال كلمة طائشة ، ثم متى وقف يصلي لا يعود يجد مبتغاه كعادته .

٥١ ـ ان مراقبة القلب باستمرار غير مراقبته بواسطة العقل كسيّد ورئيس كهنة يقرّب ضحايا عقلية للمسيح . فان النار المقدسة السماوية كما قال احد « المتكلمين باللاهوت »[١٢] ، تحرق بانحدارها الذين يمارسون الطريقة الاولى وذلك لنقصان نقاوتهم ، بينما تنير ممارسي الطريقة الثانية بمقدار كمالهم . لأن هذه النار عينها تسمّى ناراً محرقة ونوراً منيرا . ولهذا تكون حال البعض عند خروجهم من صلاتهم حال الخارجين من أتون نار وقد أُزيلت عنهم اوساخهم ، وحال غيرهم حال من يخرجون من نور ،

---

(١٢) القديس غريغوريوس النزينزي .

متألقين ومتسربلين حلة التواضع والفرح . لأن الخارجين من صلاتهم دون اختبار احدى هاتين الحالتين قد صلوا جسدانيا ان لم اقل يهوديا ، ولم يصلوا صلاة روحانية .

٥٢ ـ ان كانت بعض الاجسام تتفاعل مع أجسام اخرى اذا لامستها فتتغير ، فكيف اذن لا يتغير من يلامس جسد الله بيدين نقيّتين؟[١٣].

٥٣ ـ اننا نرى ان ملكنا الكلي الصلاح يمنحنا مواهبه على نحو ما يوزع الملك الارضي عطاياه لجنوده ، تارة بذاته وتارة بيد صديق وتارة اخرى بواسطة عبد ، وربما وهبها لهم بطريقة خفية . ولكن عطاءه يكون دائماً بمقدار التواضع الذي نتّشح به .

٥٤ ـ كما ان الملك الارضي يمقت من يكون قائما بحضرته ويحوّل وجهه عنه ليخاطب أعداء سيده ، هكذا يمقت الرب من يكون واقفا في صلاته وهو يتقبل افكارا نجسة .

٥٥ ـ اذا وافاك هذا الشيطان فاطرده كما تطرد كلباً ولا تتساهل معه البتة مهما بلغت وقاحته .

٥٦ ـ إسأل بدموع ، اطلب بطاعة ، اقرع بصبر ، « فان من يسأل بالدموع يأخذ ومن يطلب بالطاعة يجد ومن يقرع بالصبر يفتح له »[١٤]

٥٧ ـ احترس ولا تسرف في الابتهال من اجل انثى في صلاتك لئلا تجرّد من سلاحك من الجانب الايمن[١٥] .

٥٨ ـ لا تعمد الى كشف خطاياك الجسدية تفصيلا في صلاتك الى الله لئلا تنصب فخاً لذاتك .

٥٩ ـ لا تجعل وقت الصلاة وقتا لإمعان النظر في اعتبارات روحية ولو ضرورية والا فتخسر النصيب الصالح[١٦] .

٦٠ ـ من يمسك على الدوام بعكاز الصلاة لن يعثر ، وان عثر فلن يسقط كليا ،

---

(١٣) يقصد المناولة .

(١٤) متى ٧ : ٨ .

(١٥) على اعتبار ان الجانب الايمن غير محمي بالترس .

(١٦) انظر لو ١٠ : ٤٢ .

لأن الصلاة هي اغتصاب لله كريم لديه تعالى[١٧] .

٦١ ـ نستدل على منفعة الصلاة من اتفاق الشياطين على اثارة العوائق لنا في اوقات الصلاة النظامية ، ونستدل على مفعولها من انهزام العدو عنا. «فاني بهذا علمت انك رضيت عني ان عدوي لن يشمت بي»[١٨] في وقت القتال. «صرخت بكل قلبي» يقول المرنم[١٩]، اي من اعماق الجسد والنفس والروح. لأنه «حيث اجتمع الاثنان الأخيران فهناك يكون الله في وسطهما»[٢٠].

٦٢ ـ ليست كل سجايا الجسد كما ليست كل سجايا الروح متشابهة عند كل الناس، فان الإسراع في التسبيح[٢١] يوافق البعض بينما يوافق التباطؤ البعض الآخر. اذ يقول الاولون انهم يقاتلون تشتت الذهن والآخرون بطء الفهم.

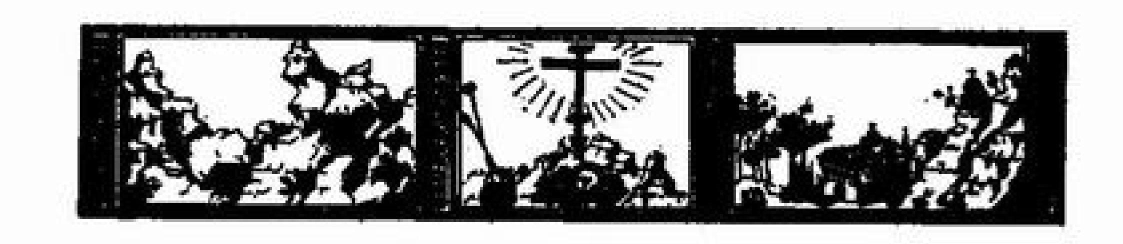
٦٣ ـ إذا كنت تسأل الملك دون انقطاع ان ينصرك على اعدائك تشجع متى اقبلوا عليك. فانك لن تتعب كثيراً لأنهم سينصرفون عنك سريعاً من تلقاء انفسهم. فهؤلاء الانجاس لا يريدون ان يشاهدوك فائزا مكللا من جراء مجاهدتك لهم بصلاتك. فضلا عن انهم سيهربون من صلاتك لأنها تجلدهم كما بنار.

٦٤ ـ كن مقداماً كل الاقدام فيعلّمك الله الصلاة. كما اننا لا نستطيع ان نتعلم النظر بواسطة الكلام لأن امر النظر يعود للطبيعة كذلك لا نستطيع ادراك جمال الصلاة بتعليم الآخرين. فان للصلاة معلمها الخاص هو الله الذي يعلّم الانسان العلم[٢٢]، ويعطي الصلاة للمصلي، ويبارك اعوام الصديقين آمين[٢٣].

هذه درجة ثامنة وعشرون من ارتقى اليها فقد قرب من اللاهوى.

---

(١٧) انظر لو ١٨ : ٥ .
(١٨) مز ٤٠ : ١٢ .
(١٩) مز ١١٨ : ١٤٥ .
(٢٠) انظر متى ١٨ : ٢٠ .
(٢١) في الاصل ترنيم المزامير .
(٢٢) مزمور ٩٣ : ١٠ .
(٢٣) ١ ملوك ٢ : ٩ .



المقالة التاسعة والعشرون

في اللاهوى وهو الكمال المتشبه بالله ، السماء الارضية ، وقيامة النفس قبل القيامة العامة

١ ـ نحن الطريحين في هوة الجهل العميقة ، في ظلمة أهوائنا وظل موت جسدنا الفاسد ، نتجاسر فنتكلم عن السماء الأرضيــة .

٢ ـ جمال السماء الكواكب ، وزينة اللاهوى الفضائل ، لأني أرى أن اللاهوى ليس إلا سماء عقلية في القلب ، نغدو معها نحسب مكايد الشياطين ألعاباً .

٣ ـ يُحسب في اللاهوى إذاً ويكون فيه حقاً من حرر جسده من الفساد ، ورفع عقله فوق الخلائق ، وأخضع له كل حواسه ، وأوقف نفسه في حضرة ربه تمتد إليه تعالى دائماً بما يزيد عن قوتها .

٤ ـ يحدد البعض اللاهوى بأنه قيامة النفس قبل قيامة الجسد ، ويحدده غيرهم بأنه معرفة كاملة لله ، تلي معرفة الملائكة .

٥ ـ إن كمال الكاملين هذا الذي هو في آن واحد كامل وغير كامل (إذ لا يفتأ ينمو الى ما لا نهاية كما وصفه لي شخص قد ذاقه) يقدس العقل ويفصله عن الماديات حتى أن المرء ، بعد ارتقائه الى ميناء سماوي ، غالباً ما يخطف في الجسد الى الثيوريا (١) وكأنه في السماء. وقد قال فيه من اختبره : « إن أعزاء الله قد تعالوا في الارض جداً » (٢)

(١) التأمل العقلي ومعاينة الاسرار الالهية .

(٢) مز ٤٦ : ١٠ .

وعرفنا أحد المتوحدين المصريين متصفاً بذلك، وهو الذي لم يكن يترك يديه مرفوعتين مدة طويلة في صلاته مع الآخرين، خوفاً من أن يُخطف عقله في حضرتهم.

٦ ـ من الكاملين من تحرر من أهوائه ، ومنهم من سما على هذه المرتبة . فالاول يمقت الشر مقتاً شديداً ، والثاني يشتهي أن يستغني بالفضائل دون شبع .

٧ ـ العفة هي الاخرى تدعى بحقٍ لاهوى ، لأنها مقدمة القيامة العامة وبداية عدم الفساد لمن كانوا فاسدين .

٨ ـ لقد أظهر انعتاقه من أهوائه من قال : « إن لي فكر الرب » (٣) . وأظهره أيضاً المصري الكبير (٤) القائل أنه لا يخاف الرب ، وكذلك من ابتهل الى الله أن يُرجع إليه أهواءه (٥). ولكن هل أُهِّل أحد للاهوى قبل المجد المنتظر مثلما أُهِّل له السرياني؟ (٦) لأن داود الذائع الصيت في الانبياء قال للرب: «تغاض عني لكي أستريح» (٧)، أما ذاك المجاهد فقال له: «سكِّنْ عني أمواج نعمتك».

٩ ـ تبلغ النفس الى اللاهوى عندما تترسخ في الفضائل ترسخ الفاسقين في اللذات .

١٠ ـ إن كان منتهى الشراهة أن يغصب المرء نفسه ويتناول المزيد من الطعام وهو غير جائع فإن منتهى الامساك أن يقهر المرء طبيعته ويمتنع عن الطعام وهو جائع . وإن كانت ذروة الشبق أن يهتاج الانسان من شهوته للحيوانات غير الناطقة وللخلائق العادمة النفس فإن ذروة العفة أن لا يهتاج الانسان لأي شخص كان كعدم احتياجه للخلائق العادمة النفس . وإن كان منتهى حب المال أن لا يشبع المرء ولا يكف عن جمعه فإن منتهى الزهد في المقتنيات أن لا يشفق الانسان حتى على جسده . وإن كان تمام الضجر أن يكون المرء في راحة كاملة وينفد صبره فإن تمام الصبر أن يكون المرء في شدة ويحسبها

---

(٣) اكور ٢ : ١٦ و ٧ : ٤٠ .
(٤) انطونيوس الكبير .
(٥) القديس يوحنا كولوبوس .
(٦) افرام السرياني .
(٧) مز ٣٨ : ١٤ .

راحة . وإن كانت لجة الغيظ أن يغضب الانسان وهو على انفراد فإن لجة طول الاناة أن يكون الانسان ساكناً هادئاً في غياب ثالبه كما في حضوره . وإن كان أوج العُجب أن يتلذذ المرء وهو وحده بمدائح وهمية لا يوجهها إليه أحد فمن الجلي أن أوج الانعتاق من العجب أن لا يحس بأي فخر في حضور من يمدحه . وإن كانت علامة الكبرياء ، الذي هو هلاك النفس ، أن يتشامخ الانسان وهو في وضع بائس حقير فإن دلالة الاتضاع ، الذي هو خلاص النفس ، أن يكون فكره ذليلاً متواضعاً في وسط أعمال سامية قد فُوِّضت إليه ومناقب عالية قد أحكمها . وإن كانت دلالة العبودية الكاملة للأهواء أن يذعن المرء سريعاً لكافة الهواجس التي تزرعها الشياطين فيه فإني أعتقد أن احدى علامات اللاهوى أن يستطيع المرء القول بصدق : « عند انصراف الشرير عني لم أكن أبالي » (٨) ولا علمت كيف جاء ولا لماذا جاء ولا كيف ذهب ، لكنني فاقد الاحساس كلياً بهذه العوارض وأمثالها كوني على الدوام متحداً بإلهي بجملتي .

١١ ـ من قد أُهِّل لهذه الحالة الجليلة وهو بعد في جسده احتوى الله ساكناً فيه على الدوام ، ومدبراً له في كافة أقواله وأفعاله وأفكاره . وهو من خلال استنارته الداخلية يدرك مشيئة ربه كصوت في داخله ويسمو على كل تعليم بشري ويقول : « متى أجيء وأظهر قدام الله ؟ » (٩) ، لأني لا أستطيع بعد صبراً على اضطرام شوقي ، وأحنّ الى الجمال الذي أعطيتني قبل أن أستبدله بحمأة جسدي .

١٢ ـ وما حاجتي الى المزيد من الكلام ؟ فإن المتحرر من الأهواء ليس هو حياً بعد بل المسيح يحيا فيه (١٠) ، كما قال ذاك الذي جاهد الجهاد الحسن وأتم السعي وحفظ الايمان (١١) .

١٣ ـ كما أن تاج الملك لا يتركب من جوهرة واحدة كذلك اللاهوى لا يتركب من فضيلة واحدة بل من كل الفضائل .

١٤ ـ تصور أن اللاهوى هو قصر الملك السماوي في السموات ، وأن درجاته

---

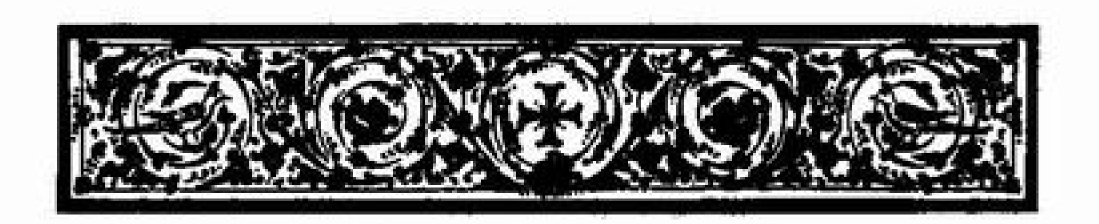
(٨) مز ١٠٠ : ٤ .
(٩) مز ٤١ : ٣ .
(١٠) غلا ٢ : ٢٠ .
(١١) ٢ تي ٤ : ٧ .

الكثيرة هي المنازل (١٢) القائمة داخل القصر ، وأن السور الذي يحيط به كما بأورشليم السموية هو غفران الخطايا . فلنسعَ إذاً يا أخوتي ولنجرِ مسرعين لكي نحظى بالدخول الى الخدر الملكي . وإن أعاقنا عن ذلك ثقل عيوننا السالفة ، أو ضيق الزمان ، (ويا لمصيبتنا !) فلنحاول أن نشغل على الأقل أحد المنازل حول الخدر ، وإنْ توانينا وعجزنا عن ذلك فلنحرص أن نكون على كل حال داخل السور . لأن من لا يدخل السور ، بل من لا يتسلقه ، قبل مماته ، سوف يقيم في وحشة القفر حيث الشياطين والاهواء . ولذا فقد ابتهل داود قائلاً : « بإلهي أقفز من فوق الاسوار » (١٣) ، وقال أشعياء بلسان الله : « أليست خطاياكم هي التي فصلت بيني وبينكم ؟ » (١٤) فينبغي يا أحبائي أن ننقض السياج الذي ابتنيناه بمعصيتنا لكي نحظى بغفران خطايانا لأنه ليس في الجحيم من يقدر على محو ديوننا ، فلنثبت إذاً في الجهاد متمين للأجناد الروحية . إننا لن نستطيع أن نجد عذراً ، لا عن سقطة ، ولا عن إضاعة وقت ، وليس من سبيل للاحتجاج بثقل الوصايا لأن جميع الذين لبسوا المسيح بحميم المعمودية قد أعطاهم الرب سلطاناً أن يصيروا أولاد الله (١٥) ، قائلاً لهم كفوا واعلموا أني أنا هو الإله (١٦) مزيل أهوائكم ، له المجد الى أبد الدهور آمين .

هذه درجة تاسعة وعشرون في اللاهوى المغبوط الذي ينهض العقل الفقير من الأرض الى السماء ويقيم المسكين من مزبلة الاهواء، ولكن المحبة الفائقة المديح تجلسه مع الرؤساء، رؤساء الملائكة ورؤساء شعب الله (١٧).

---

(١٢) يو ١٤ : ٢٠ .
(١٣) مز ١٧ : ٢٩ .
(١٤) أش ٥٩ : ٢ .
(١٥) يو ١ : ١٢ .
(١٦) مز ٤٥ : ١١ .
(١٧) مز ١١٢ : ٧ ـ ٨ .



المقالة الثلاثون

في رباط الثالوث الفريد بين الفضائل ، اعني المحبة والرجاء والايمان

١ ـ واخيرا ، بعد كل ما قلناه ، يبقى ان نتكلم عن الفضائل الثلاث التي هي رباط سائر الفضائل تضمها بعضا الى بعض وتضبطها ، وهي الايمان والرجاء والمحبة ، وأعظمهن المحبة[1] ، لأن الله يسمّى محبة[2] .

٢ ـ ويلوح لي اني ابصر الايمان شعاعاً والرجاء نوراً والمحبة دائرة ، وان للثلاثة بهاءً واحداً واشراقاً واحداً .

٣ ـ فالايمان يستطيع ان يعمل ويبدع كل شيء ، والرجاء تحوطه رحمة الله وتمنع عنه الخزي ، والمحبة لا تسقط ولا تقف في سعيها ولا تتيح الاستراحة للمجروح الولهان بها .

٤ ـ من يعتزم ان يتكلم عن المحبة الالهية يعتزم في الحقيقة ان يتكلم عن الله ، والاسهاب في الكلام عن الله بدون احتراس خطر ويفضي الى العطب .

٥ ـ الكلام عن المحبة مألوف عند الملائكة ، ولكن على قدر استنارتهم فقط .

٦ ـ الله محبة ومن يريد ان يفسر هذا القول يكون بمثابة اعمى يحصي رمل البحر .

٧ ـ المحبة من حيث كيفيتها هي تشبّه بالله على قدر ما يتيسر هذا للبشر ، ومن

---

(١) اكو ١٣ : ١٣ .

(٢) ايو ٤ : ٨ و ١٦

حيث مفعولها نشوة للنفس ، ومن حيث خاصيتها نبع ايمان ولجة صبر وبحر تواضع .

٨ ـ المحبة تبذ لكل مناقضة ، لأنها لا تظن السوء[٣] .

٩ ـ ان المحبة وحالة اللاهوى والبنوة لا تتميز فيما بينها الا بالاسم فقط . كما يجتمع النور والنار واللهب لتأليف فعل واحد كذلك تفعل تلك .

١٠ ـ بمقدار نقصان المحبة ينشأ الخوف ، لأن الخالي من الخوف يكون ممتلئا من المحبة او تكون نفسه مائتة .

١١ ـ ليس من المعيب ان نشبّه بتشابيه بشرية ما في علاقتنا مع الله من تشوق وخوف وحرص وغيرة وخدمة وعشق . فمغبوط من كان حبه لله كعشق المغروم الهائم بمعشوقه . ومغبوط من يخاف الرب كما يخاف الملاحَقون القاضي . مغبوط من صارت امانته للسيد كأمانة العبد الامين المتأهب على الدوام لخدمة سيده . مغبوط من أضحت غيرته في الفضيلة كغيرة الأزواج الغيورين على زوجاتهم . مغبوط من يقف في الصلاة امام الله وقوف الخدم امام الملك . مغبوط من يجتهد ان يرضي الله على الدوام كما يجتهد الآخرون ان يرضوا الناس .

١٢ ـ لا تلتصق الأم برضيعها كما يلتصق ابن المحبة بالرب .

١٣ ـ العاشق الحقيقي يتصور وجه حبيبه على الدوام ويعانقه في قلبه بنشوة ولا يستطيع حتى في نومه ان يسكّن اشتياقه اليه لكنه يواصل في رقاده حديثه اليه . فعلى منوال هذا الحب الجسدي يكون الحب اللاجسدي . وقد انجرح بسهمه احدهم فقال عن نفسه (ويا للعجب) ! : « انا نائم » لحاجة الطبيعة « لكن قلبي مستيقظ »[٤] لكثرة حبي .

١٤ ـ لاحظ ايها المتعجب انه بعد ان يقتل الأيل الافاعي[٥] تشتاق النفس وتتوق الى الرب[٦] وقد جرحها لهيب الحب وكأنه طعنة سهم .

١٥ ـ لا يتبين الجوع بوضوح للناظرين ولا يُستدل عليه ، اما الظمأ فشديد

(٣) اكو ١٣ : ٥ .

(٤) نشيد الانشاد ٥ : ٢ .

(٥) الأيل هي النفس والافاعي الاهواء .

(٦) انظر مز ٨٣ : ٢ .

الوطأة سافر، يدل الجميع على لهيبه . ولذا قال التائق الى الله : « ظمئت نفسي الى الاله الحي »[٧] .

١٦ ـ ان كان وجه حبيبنا يغيّرنا بجملتنا جليا ويجعلنا مشرقين فرحين فاقدي الحزن فكيف بوجه السيد اذا اتى الى نفس طاهرة وسكن فيها بحال غير منظور ؟

١٧ ـ الخوف من كل القلب يذيب الوسخ ويزيله وقد قيل : « سمّر جسدي بخوفك »[٨] . اما المحبة المقدسة فتسلب قلوب البعض احيانا حسب قول القائل : « لقد خلبت قلوبنا لقد خلبت قلوبنا »[٩] ، وتبهج غيرهم احيانا اخرى ، لأنه قيل : « به استجار قلبي فأجارني لذلك ارتاح جسدي »[١٠] وقيل ايضا « القلب الفرح يبهج الوجه »[١١] . فاذا اتحد الانسان بحب الله كليا (على نحو ما) بدا حينئذ بهاء نفسه في جسده كأنه في مرآة . هكذا مُجّد موسى معاين الله[١٢] .

١٨ ـ والذين وصلوا الى هذه الحالة الملائكية كثيرا ما ينسون طعام الجسد ، وفي ظني انهم غالبا ما لا يشتهونه على الاطلاق ، ولا عجب في ذلك اذ كثيرا ما صدّت شهوةَ الطعام شهوةٌ اخرى مضادة .

١٩ ـ ويبدو لي ايضا ان جسد اولئك الاطهار قد اصبح غير معرّض للامراض كونه صار عديم الفساد، اذ انهم تنقوا بلهيب الطهارة فأطفأوا به لهيب الجسد . كما أعتقد انهم يتناولون طعامهم بدون تلذذ ، لأنه كما ان الماء الجاري تحت سطح الارض يغذي اصول النبات كذلك تغذي النار السماوية نفوسهم .

٢٠ ـ تكاثر الخوف ابتداء المحبة ، وكمال الطهارة اساس معرفة الله .

٢١ ـ من اتحد بالله يلقنه الله اسرار اقواله . وبدون هذا الاتحاد يعسر التكلم عنه تعالى .

---

(٧) مز ٤١ : ٣ .

(٨) مز ١١٨ : ١٢٠ .

(٩) نشيد الانشاد ٤ : ٩ .

(١٠) مز ٢٧ : ٧ .

(١١) امثال ١٥ : ١٣ .

(١٢) انظر خروج ٣٤ و ٢ كو ٣ : ١٤ .

٢٢ ـ الكلمة المساوي للآب في الجوهر يأتي بنا الى كمال الطهارة ، وحضوره فينا يميت الموت ، واذا اميت الموت استنار طالب المعرفة الالهية .

٢٣ ـ ان كلمة الرب الصادرة من الله الآب طاهرة وثابتة الى ابد الآبدين ، اما من لم يعرف الله فيكون كلامه عنه من قبيل التخمين .

٢٤ ـ الطهارة تفقه الانسان في اللاهوت فيتيقن بنفسه عقيدة الثالوث .

٢٥ ـ من يحب الرب فقد سبق وأحب اخاه ، لأن الحب الثاني علامة الاول .

٢٦ ـ من يحب قريبه لا يحتمل البتة الذين يعيبونه بل يهرب منهم هربه من النار .

٢٧ ـ من يقول انه يحب الرب ويغضب على أخيه هو كمن يركض في نومه .

٢٨ ـ قوة المحبة في الرجاء ، لأننا بالرجاء نتوقع اجر المحبة .

٢٩ ـ الرجاء ثروة خفية ، الرجاء كنز مضمون مؤمّن قبل اكتنازه .

٣٠ ـ الرجاء نهاية الاتعاب وباب المحبة وبطلان اليأس وصورة النعم المنتظرة .

٣١ ـ نقصان الرجاء يلاشي المحبة ، بالرجاء تنحصر الاتعاب ، به تضمحل المشقات ، والرحمة تحوطه .

٣٢ ـ الراهب الحسن الرجاء يقتني سيفا يطرد الضجر ويقتله .

٣٣ ـ تذوّق مواهب الرب يولّد الرجاء ، ومن لم يختبرها يلازمه الارتياب .

٣٤ ـ الغضب يقصي الرجاء ، لأن الرجاء لا يخزى(١٣) ، بينما الرجل الغضوب يخيب .

٣٥ ـ المحبة ترزق النبوة وتصنع العجائب ، المحبة لجة إشراق ، المحبة ينبوع نار بقدر ما يفيض يُلهب العطشان ، المحبة حال الملائكة ، المحبة إقبال الدهر الآتي .

٣٦ ـ أخبرينا ايتها الجميلة في الفضائل اين ترعين غنمك ؟ اين تربضين عند الظهيرة(١٤) ؟ أنيرينا ، أروينا، أرشدينا ، اقتادينا بيدك ما دمنا نبتغي ان نصعد اليك .

---

(١٣) رو ٥ : ٥ .

(١٤) انظر نشيد الأنشاد ١ : ٦.

لأنك تسودين كل البرايا . والآن فقد جرحت نفسي ولا اقوى على ضبط لهيبك . ولذلك سأجري مسبحا اياك . « انت تسودين قوة البحر وتهدئين امواجه عند التطامها وتلاشيها ، انت اذللت المستكبر كالقتيل ، انت بددت اعداءك بذراع قدرتك »[١٥] وجعلت عاشقيك غير منهزمين .

اني اتشوق ان اعرف كيف رآك يعقوب مثبتة على السلم الصاعدة الى المساء ، اتشوق فأخبريني ما هو نهج ذلك الصعود ، وكيف تُجمع وتُركّب تلك الدرجات التي جعلها عاشقك بمثابة مصاعد في قلبه[١٦] ؟ اني متعطش لمعرفة كم هو عددها وكم يستغرق صعودها من الزمن ، لأن العارف بذلك الصراع وتلك الرؤيا[١٧] قد خبّرنا عن المرشدين الى الصعود[١٨] ، ولكنه لم يشأ وبالاحرى لم يستطع ان يفيدنا اكثر . فقالت لي تلك الملكة (بل ذلك الملك) بعد ان تراءت لي وكأنها من السماء ، وهمست في اذن نفسي : يا عاشقي ، ان لم تنزع عنك كثافة الجسد لا تقدر ان تعرف يومي . فلتعلّمك تلك السلم ترتيب الفضائل ، وأني كائنة في اعلاها حسبما قال العالم بأسراري : « الذي يثبت الآن هو الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة وأعظمهن المحبة »[١٩] .

---

(١٥) انظر مز ٨٨ : ٩ ـ ١٠ .

(١٦) انظر مز ٨٣ : ٤ .

(١٧) هو يعقوب .

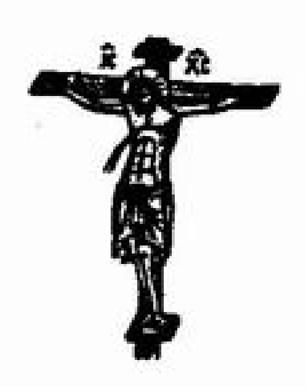
(١٨) للملائكة الصاعدين والنازلين على السلم .

(١٩) ١كو ١٣ : ١٣ .

كلمة تشجيع ختامية تُجمِل كل ما قيل.

اصعدوا ايها الأخوة اصعدوا، ضعوا في قلوبكم مصاعد[٢٠] باجتهاد واسمعوا للقائل: «هلم نصعد الى جبل الرب والى بيت إلهنا»[٢١]، «الذي يثبّت اقدامنا كالايائل ويقيمنا على المشارف»[٢٢]، لكي نغلب في طريقه.

فاني اتوسل إليكم أن تركضوا مع من قال: «لنجدّ في السير الى أن ننتهي جميعنا الى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله، الى انسان كامل، الى قياس قامة ملء المسيح»[٢٣] الذي لما اعتمد في الثلاثين من عمره على الأرض أكمل الدرجة الثلاثين من السلم العقلية، ما دامت المحبة هي الله مصدر كل الصالحات، له السبح والعزة والقوة الآن ومنذ الازل والى ابد الدهور آمين.



(٢٠) انظر مز ٨٣: ٦.
(٢١) انظر اشعيا ٢: ٣.
(٢٢) انظر مز ١٧: ٣٤.
(٢٣) افس ٤: ١٣.

رسالة إلى الراعي

١ ـ لقد رتّبتُك أيها الأب الجليل آخر الجميع في سِفر الأرض هذا، ولكنّي واثق انك تسبقنا جميعاً في سِفر السماء، لأنه صادق هو القول بأن الآخرين في نظر أنفسهم يكونون أوّلين في الكرامة (انظر متى ٢٠ : ١٦).

٢ ـ الراعي الحقيقي هو الذي يستطيع بمحبّته وهمّته وصلاته ان يجري وراء الأغنام الناطقة التي ضلّت ويعيدها الى الطريق القويم.

٣ ـ الرّبان هو من اقتنى بنعمة الله وجهاده الذاتي قوة روحية ينقذ بها السفينة ليس فقط من هياج الأمواج بل من عمق اللجّة.

٤ ـ الطبيب هو الذي امتلك صحة النفس والجسد ولا يُعوزه بعد أيُّ دواء لهما.

٥ ـ المعلّم الحقيقي هو من يحمل في ذاته كتاب المعرفة الروحي المكتوب بإصبع الله أي بالاستنارة الآتية منه تعالى، ولا يعود يحتاج الى كتاب آخر.

٦ ـ كما أنه عارٌ على الرسّامين أن يقتصر فنّهم على نسخ الرسوم القديمة، كذلك عار على الرعاة ان يقلّدوا غيرهم في تعليمهم.

٧ ـ يا من تُهذّبُ من هم دونك علّمْهم ما هو من فوق حين تكون انتَ قد تهذّبتَ من فوق. ولْتعلّمْك رتبتك المنظورة ما هو غير منظور.

٨ ـ لا تنسَ قول من قال: «لم أتسلّم انجيلي ولا تعلّمتهُ من إنسان» (غلا ١ : ١٢)، لأنه يتعذّر على اللاّصقين بالأرض ان يداووا الآخرين.

٩ ـ الرّبان الصالح ينقذ مركبه، والراعي الصالح يُنعش أغنامه العليلة ويشفيها. وبقدر ما تتبع الأغنام راعيها بأمانة وتسير وراءه قُدُماً بهذا المقدار يُجيب عنها أمام ربّ البيت.

١٠ - فليَرْم الراعي بحجارة أقواله الأغنام التي تتخلّف عن القطيع عن توانٍ أو شراهة. فهذه علامة ايضاً للراعي الصالح.

١١ - إذا ما بدأت الأغنام تسترخي بسبب حرارة الشمس أو بالحريّ حرارة الجسد، شَخَصَ الراعي ببصره الى السماء وازداد سهراً عليها، إذ غالباً ما يؤخذ الكثير منها فريسةً للذئاب في أوقات الحرّ الشديد هذه. ولكنْ إذا ما حنت رأسها الى الأرض كما تفعل الخراف عادةً في أوقات الحرّ فسوف نشهد تحقيق قول المرنّم: «القلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله (مز ٥٠: ١٧).

١٢ - إذا ما داهم القطيعَ ليلُ الاهواء وظلامها فليقف الكلب بلا حراك متّجهاً نحو الله، قائماً بحراسة الليل. فاعلمْ ان الكلب هو ذهنك الذي عليه يترتّب ان يهزم الوحوش.

١٣ - من الخصائص التي خصّ بها إلهنا الصالح طبيعتنا أن المريض يشعر بالفرح لمجرّد رؤية الطبيب وإنْ لم يحظَ منه بأي تسكينٍ لأوجاعه.

١٤ - تزوّدْ انت ايضاً أيها الأب الموقّر بلزقات وشربات ومساحيق وقطرات وإسفنجات ومفاصد ومكاوٍ ومراهم ومنوّمات ومباضع وضمّادات، وما يقاوم غثيان النفس. فان كانت تنقصنا هذه كلّها فكيف نُظهر علمنا؟ سيتعذّر علينا ذلك بينما الأجر للأفعال لا للأقوال. فاللزقة هي علاج الأهواء الخارجية أي الجسدية. والشربة معالجة الأهواء الداخلية باستخراج الأوساخ غير المنظورة. المسحوق هو الإذلال الذي يكوي وينظّف تقيّح الكبرياء. القطرة هي تطهير عين النفس المتعكّرة والمظلمة بالغضب، انها توبيخ حادٌ من شأنه ان يشفي سريعاً. المفصد هو استخراج عاجل لنتانةٍ غير منظورة، انه تدخّل حازم وحاسم لإنقاذ المريض. الإسفنجة هي العناية والتعزية اللتان يحيط بهما الطبيبُ مريضه بعد الفصد أو العملية الجراحية بالأقوال المشجّعة العطوفة واللطيفة. المكواة قصاص نفرضه لوقت محدد من قبيل الرحمة. المرهم هو العزاء الموفّر للمريض بعد الكيّ بأقوال مناسبة أو بتسكينٍ خفيف لوجعه. المنوّم هو أن نحمل حِمْلَ التلميذ عنه ونؤمّن له بواسطة طاعته الراحة والنوم اليقظ والعمى المغبوط الذي يجعله لا يرى الصلاح الذي فيه. الضمّادات هي اعتماد الصبر لإعادة تثبيت وتشديد الذين توانوا واسترخوا بدافع المجد الباطل. وأخيراً المبضع هو

الحسم والعزم على قطع جسمٍ قد ماتت النفس فيه وبتر عضوٍ مغنغر فاسد قد ينقل فساده للآخرين.

١٥ ـ طوبى للأطبّاء الذين لا يتعرّضون لغثيان النفس وللرؤساء الذين انعتقوا من الأهواء، لأن الأولين اذ لا يشمئزون من شيء يستطيعون تأمين العناية اللازمة للمريض رغم نتانته الشديدة، والثانين قادرون على بعث النفوس المائتة.

١٦ ـ ليَسأل الرئيس في جملة صلاته أن يُبدي مودّته لجميع الاخوة على قياس استحقاق كل منهم، حاسباً حساب حالهم، وإلاّ فإنه، على غرار يعقوب، قد يُسيء إلى من يفضّله في محبّته وإلى رفاقه معاً (انظر تك ٣٧: ٣ ـ ٤). وهذا قد يعرض لهم إنْ كانت حواسّ نفوسهم غير مدرَّبة بعد كل التدريب على تمييز الخير والشرّ وما بينهما.

١٧ ـ انه لعارٌ جسيم على الرئيس ان يُكيبَ تلميذه بصلاته ما لا يملكه هو بعد.

١٨ ـ ان الذين عاينوا وجه الملك واكتسبوا صداقته يستطيعون ان يُصلحوا بينه وبين ضبّاطه، بل بينه وبين الغرباء والأعداء إذا شاؤوا، وان يحصلوا منه على إشراكهم في مجده، وهذا هو شأن القديسين على ما أظنّ.

١٩ ـ ان الأصدقاء يحترمون أصدقاءهم الحميمين الحقيقيّن ويطيعونهم بل يرضون ان يُقسَروا من قِبَلهم. ولذا فحسنٌ لنا ان نقتني أصدقاء روحيين إذ لا شيء آخر يعيننا مثل هذا على التقدّم في الفضيلة.

٢٠ ـ قال لي أحد أحبّاء الله ان الله تعالى، الذي يغدق عطاياه على عبيده دائماً، يزيد في عطائه في أعياد السيد والأعياد السنوية الأخرى الكبيرة.

٢١ ـ على الطبيب أن يكون مجرّداً من الأهواء كلّياً لكي يستطيع في بعض المناسبات ان يتصنّعها، وخاصةً الغضب، لأنه ان لم يكن قد تحرّر منها كلياً فلا يقدر أن يتظاهر بها دون ان ينفعل.

٢٢ ـ رأيت فرساً غير مروَّض تمام الترويض يسير بهدوء ما دام مشدود اللجام. ولكنه متى أُرخي له اللجام قليلاً يحاول رَمْيَ صاحبه أرضاً، فمن لا يزالون يخضعون

لشيطانَيْن من بين الشياطين يعترضهم عادةً هذا الأمر. من أراد أن يفهم فليجتهد في البحث.

٢٣ ـ يعرف الطبيب ان الله قد وهبه الحكمة حين يتمكّن من شفاء أمراض عُضالة مستعصية على كثيرين غيره.

٢٤ ـ لا ينبغي الإعجاب بمعلّم يُفطّن أولاداً موهوبين، بل بالذي يقود الى الحكمة والكمال أناساً غلاظاً فظّين. فإن مهارة قوّاد العربات تتجلّى فتستجلب لهم المديح عندما يفوزون في السباق بجيادٍ غير مروّضة ويعودون بها سالمين.

٢٥ ـ إن كنت قد وُهبتَ عينين قادرتين على رؤية العاصفة من بعيد فأخطِرْ ركّاب السفينة حسبما تقتضيه الحال. وإلاّ كنت وحدك سبب الغرق ما دام الجميع قد أوكلوا قيادة السفينة اليك وألقوا عنهم كل همّ.

٢٦ ـ رأيتُ أطبّاء لا يعمدون الى تنبيه مرضاهم إلى الخطر فكانوا بذلك يجلبون على المرضى وعلى أنفسهم كثيراً من العناء والعذاب.

٢٧ ـ بقدر ما يرى الرئيس ان ليس أبناؤه فقط بل الغرباء أيضاً يُولونه ثقة كبيرة، بهذا المقدار عليه ان يحترس كل الاحتراس في كل ما يفعل ويقول، عالماً ان الجميع ينظرون إليه كإلى مثالٍ يُحتذى، ويَعدّون أقواله وأفعاله قياساً يُعمل بمقتضاه.

٢٨ ـ المحبة هي التي تُظهر الراعي الحقيقي لأن الراعي العظيم بدافع المحبة شاء ان يُصلب.

٢٩ ـ أُذكرْ في كلامك دائماً انك تخطىء بما يُخطىء به الآخرون، وهكذا لن يُعوزك يوماً اتّضاع عظيم.

٣٠ ـ أحزِنْ المريض إلى حين لئلاّ يصبح مرضه داءً مزمناً أو يموت بسبب صمتك الكريه. فإنّ صمتَ الربّان جعل الكثيرين يظنون انهم يُبحرون حسناً الى أن يصطدموا بصخور البحر.

٣١ ـ لنسمع ما كتبه العظيم بولس الى تيموتاوس: «وبّخهم في وقت مناسب وغير مناسب» (انظر ٢ تي ٤: ٢): في وقت مناسب عند احتمالهم التوبيخ طوعاً، وفي

وقت غير مناسب عند استيائهم له، فالينابيع تترك أيضاً مياهها تسيل بينما ليس من عطشانٍ ليشرب.

٣٢ - إنّ لدى بعض الرؤساء نزوعاً طبيعياً إلى الحياء كثيراً ما يُثنيهم عن قول ما قد ينفع أبناءهم، فينبغي على مثل هؤلاء ان يلجأوا الى عمل المُدرّس مع التلاميذ فيعمدوا الى توجيه نصائحهم كتابة.

٣٣ - لنسمع قول الكتاب عن بعضهم: «إقطعْه لماذا يُعطِّلُ الأرض ايضاً» (لو ١٣: ٧) و «إعزلوا الخبيث من بينكم» (١ كو ٥: ١٣) و «لا تُصلِّ عن هذا الشعب» (إر ٧: ١٦) وقوله أيضاً عن شاول[1] (انظر ١ مل ١٦: ١). فيقتضي على الراعي ان يعرف على من يطبِّق هذه الأقوال وكيف ومتى، اذ ليس أصدق من الله.

٣٤ - ان كان أحد لا يخجل لدى توبيخه على حدة، فسيختتم ايضاً تأديبه علناً ليُبدي وقاحته، ماقتاً خلاص نفسه باختياره.

٣٥ - غير أني لاحظت أمراً آخر لدى مرضى مقدامين صادقين: كانوا يعرفون ما هم عليه من الجبن والضعف فكانوا يتوسّلون الى الأطباء، ولو ضدّ خاطرهم، ان يربطوهم ويداووهم بالقوّة، وهم راضون بذلك لأنه «امّا الروح فنشيط» بسبب الرجاء «وامّا الجسد فضعيف» بسبب نزعاته السالفة (انظر متى ٢٦: ٤١). ولمّا رأيت ذلك رجوت الأطباء أن يستجيبوا لرغبتهم..

٣٦ - لا يناسب ان يقول الدليل لكل أحد أن الطريق ضيّقة كربة، ولا إلى الجميع أنّ النير ليّن والحمل خفيف. بل عليه أن يرقب ويكيّف الأدوية للسقماء حسبما يوافقهم. فإن الرازحين تحت ثقل خطاياهم والجانحين الى اليأس توافقهم الآية الثانية. امّا الميّالون إلى العظمة والكبرياء فالآية الأولى دواء ملائم لهم.

٣٧ - تهيّأ البعض للقيام برحلة طويلة فاستفسروا عن الطريق من يعرفونها فافادوهم بأنها سويّة خالية من الخطر. واستناداً إلى هذا الجواب شرعوا في السفر دون عزم شديد. ولكنهم لمّا بلغوا الى نصف الطريق داهمتهم الأخطار ورجعوا أدراجهم اذ لم يكونوا مستعدّين للمِحَن. غير أني أعرف العكس ايضاً: عندما يمسّ القلبَ العشقُ الإلهي فالخوف الذي قد يثيره فينا كلامُ الآخرين يفقد كل قوة. وعندما يحضرنا الخوف

---

(١) «الى متى تنوح على شاول وانا قد رذلته»

من الجحيم نصبر على كل الأتعاب. وعندما نحسّ برجاء الملكوت نزدري بكل ما على الأرض.

٣٨ ـ على الضابط الصالح ان يعرف بدقّةٍ حالة جنوده ودرجة تقدّمهم في فنّ الحرب. فقد يوجد ضمن الصفّ من يحسنون القتال في الجبهة أو يصلحون للمبارزة أو من يجب ان يوقفهم بجانبه مقدّماً إياهم على رفاقهم في السلاح، أو يقيمهم في هدوء الوحدة.

٣٩ ـ لا يقدر الربّان ان ينقذ السفينة وحده دون مؤازرة البحّارة، ولا يستطيع الطبيب أن يشفي المريض ما لم يأتِ هذا إليه ويُظهر له جراحه بثقة تامّة. أما الذين يمنعهم الخجل عن مراجعة الطبيب فكثيراً ما يصابون بالغنغرينة فيموتون.

٤٠ ـ عندما الأغنام ترعى لا ينقطعنّ الراعي عن النفخ في ناي الكلام، لا سيما حين يُقبل القطيع على النوم، لأن الذئب لا يخشى شيئاً كخشيته لصوت ناي الرعاية.

٤١ ـ لا يضعنّ الرئيس ذاته كل حين بغباوة ولا يرفعنّ ذاته دوماً بحماقة، بل فلينظر الى بولس سالكاً تارةً هذا المسلك وتارةً ذاك (انظر ٢ كو ١١: ١٢).

٤٢ ـ كثيراً ما يضع الرب حجاباً على أعين الإخوة ليستر عنهم بعض نقائص رئيسهم، فإذا عمد هذا الى كشفها لهم ولّد فيهم الارتياب.

٤٣ ـ رأيت رئيساً مدفوعاً بتواضع أقصى يعمد الى استشارة مرؤوسيه ورأيت آخر محرّكاً بالخيلاء يستهزىء بهم، تبجّحاً بحكمته الحمقى.

٤٤ ـ نادراً ما شاهدت ولكني صادفت أحياناً رجالاً خاضعين للأهواء أصبحوا رؤساء لأناس قد انعتقوا من الأهواء، فخجلوا من أنفسهم أمام مرؤوسيهم وقطعوا شيئاً فشيئاً أهواءهم، وكان هذا على ما أعتقد مكافأةً لمن كانوا يتوخّون ان يخلصوا في كنف رئاستهم. وهكذا ما كانوا قد باشروه وهم خاضعون للأهواء صار لهم فرصة للبلوغ الى اللاّهوى.

٤٥ ـ يقتضي الاحتراز كي لا نُضيّع في عرض البحر ما جمعناه في الميناء. يدرك

هذا الذين لم يتمرّسوا بعد في مواجهة الاضطرابات الخارجية.

٤٦ ـ إنه لأمر عظيم حقاً أن نحتمل بشجاعة ومروءة الحرّ اللاّهب والسكون المطبق ووهن العزيمة التي تلازم سيرة التوحّد، وأن لا نبحث خارج سفينة القلاّية عن أي تعويض أو تسلية على مثال البّحارة الخائري الهمّة الذين ينصرفون الى السباحة عند انقطاع الأهوية. ولكنه أمر أعظم بما لا يُقاس ألاّ نخشى الاضطرابات الخارجية وأن نصمد إزاءها بقلب شجاع ثابت، مناجين الله في قلوبنا فيما نخاطب الناس.

٤٧ ـ ليكنْ ما يجري في محاكم هذا الدهر تذكيراً لكَ أيها الاب الجليل بواقع محاكمنا نحن. فالبعض يُقبلون الى محكمتنا الحقيقية الرهيبة ليمثلوا أمامها كمذنبين وخطأة بينما يتوخّى الآخرون ان يعكفوا فيها على عمل الله وخدمته. ان انتماء هؤلاء الى السيرة الرهبانية يختلف كل الاختلاف عن انتماء أولئك، وكلا الفريقين يحتاج الى نهج حياة يلائمه. فيجب ان نستجوب الخاطىء عن طبيعة ذنوبه ـ ولكن على انفراد ـ وذلك لغايتين: الأولى لكي يستنهضه ذكر اعترافه على الدوام الى تحاشي كل دالّة في تصرّفه، والثانية لكي تحثّه على حبّنا معرفته لأية جراحات كان مثخناً بها عند قبولنا إياه.

٤٨ ـ لا يَخفينّ عليك أيها الأب المحترم ـ ولكني متأكّد أنك لا تجهل هذا ـ انه علينا ان نحسب حساب مسقط رأس الخطأة التائبين وكيفيّة اهتدائهم وأنواع عاداتهم، لأن هذه تختلف وتتنوّع للغاية. وكثيراً ما يكون الأضعف والأوهنُ أوفر تواضعاً، فينبغي أن يعامله الأطبّاء الروحيون بأكثر وداعة. والعكس بديهي

٤٩ ـ لا يوافق ان يرعى ذئب غنماً، وكذلك خَطِرٌ ان يسوس انسان خاضع للأهواء أناساً خاضعين للأهواء ايضاً.

٥٠ ـ مُكْربٌ هو مشهد ثعلب بين دجاج، وأكثر كرباً رؤية راعٍ يجنح الى الغضب. فالواحد يأتي بالبلبال والتهلكة بين الدواجن والآخر بين النفوس.

٥١ ـ احترز ألاّ تكون فاحصاً دقيقاً عن أصغر المخالفات: فلن تكون إذ ذاك متشبّهاً بالله.

٥٢ ـ أمّا أنت فاتّخذ لك الله الرّبّان الماهر مدبّراً وقيّماً على جميع دواخلك وظواهرك. إقطعْ مشيئتك لمشيئته فتصير بلا همّ منقاداً لإرادته وحدها.

٥٣ ـ يجب ان نتساءل كسائر الرؤساء عمّا إذا كانت النعمة الإلهية لا ترتضي في كثير من الأحيان أن تعمل من خلالنا بسبب إيمان الذين يأتون إلينا وليس لطهارة سيرتنا. فكثيراً ما صنع العجائبَ على هذا المنوال أناس خاضعون للأهواء. وما دام قد كُتب: «كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبّأنا؟» وبقية القول (متى ٧: ٢٢) فان زعمي ليس ممتنع التصديق.

٥٤ ـ من استرضى الله حقاً يستطيع ان يعزّي المتألمين خفيةً دون ان يدروا به. وينجم عن هذا خيرٌ مضاعَفٌ جسيم: فهو يحفظ نفسه من الغرور حفظها من الصدأ، ثم يحمل الذين يُسعفهم على تقديم الشكر لله وحده.

٥٥ ـ قدّم بسخاء للذين يجرون بحماسةِ الشباب أفضل الأطعمة وأرقاها. أمّا الذين يتبعون متأخّرين بسبب ضعف حالهم أو مزاجهم فأعطهم لبناً كما الى أطفال: إنهم في أوان التعزية بعد. فكثيراً ما يسبب طعام واحد النشاط للبعض والقنوط لآخرين. عليك إذاً قبل رمي البذار الانتباه إلى الظروف، إلى الأوقات والاشخاص والنوع والكمية.

٥٦ ـ لقد أقدم البعض على قيادة النفوس بحماقة غير حاسبين حساباً لعبء هذه المسؤولية. وكانوا يملكون ثروة كبيرة فانتهوا صفر الأيادي بعد أن وزّعوا كل شيء على من تعهدّوهم.

٥٧ ـ كما أن هناك اولاداً شرعيين من زواج أول، وآخرين من زواج ثانٍ، واولاداً أبناءزنى، وغيرهم لقطاء، كذلك هناك اختلاف في مدى تعهّدنا للآخرين: فهناك تعهّد وهو الأصلح، يقضي ببذل النفس عن القريب بذلاً شاملاً، ولكنْ تعهداً آخر لا يشمل سوى الخطايا السابقة، وآخر لا يطال إلاّ الخطايا المستقبلة، وأيضاً آخر لا يتحمّل سوى تبعة الإرشادات التي نعطيها بالذات. وهذا كله ينجم عن عجزٍ في القوة الروحية والافتقار الى اللاّهوى. وحتى في الحالة الاولى، حالة التعهّد الكامل، فإننا في الواقع لا نحمل أثقال القريب إلاّ بقدر إنكارنا لمشيئتنا.

٥٨ ـ يُعرَف الولد الكريم النسب من تصرّفه في غياب ابيه. واعتقد أن الأمر هو كذلك عند رهبان الحياة المشتركة.

٥٩ ـ ليرقب الرئيس ويلاحظ الذين يناقضونه ويقاومونه وليعاقبهم بعقوبات ثقيلة جداً بحضور بعض الشيوخ، حاثّاً الآخرين على الخوف بمثالهم وإن اغتاظوا جداً لإذلالهم. لأن صالح الكثيرين يرجّح على استياء البعض.

٦٠ ـ ان البعض يُلزمون أنفسهم بأثقال الآخرين بما يفوق مقدرتهم، مدفوعين في ذلك بدافع المحبة وذاكرين لهذا القول: «ليس لأحد حبّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبّائه» (يو ١٥: ١٣). والبعض الآخر وإنْ كانوا قد نالوا من الله جليّاً القدرة على تعهّد الآخرين إلاّ انهم لا يرتضون هذه المسؤولية في سبيل خلاص إخوانهم عن طيبة خاطر. إني أشفق على هؤلاء، لأنهم عديمو المحبة. أمّا الأوّلون فأطبّق عليهم القول التالي: «إن أخرجتَ النفيس من الخسيس كنت كفمي» (إر ١٥: ١٩)، والقول الآخر: «كما فعلتَ يُفعل بكَ» (عوبديا ١: ١٥).

٦١ ـ أرجوك ان تلاحظ ايضاً ما يلي: كثيراً ما يُحسَب خطأً داخلي يخطىء به الرئيس أكثر جسامةً من خطيئة فعلية يقترفها أحد الرهبان، وذلك على منوال ما أنّ مخالفة جندي تقلُّ خطورة عن خطأ في التقدير يرتكبه القائد العام.

٦٢ ـ حُثَّ أبناءك على ألاّ يعترفوا تفصيلاً بخطايا الزنى، بل أن يتذكّروا ليلاً نهاراً بالتفصيل بقية الخطايا كافة.

٦٣ ـ درّب تلاميذك على أن يكونوا بسطاء فيما بينهم في كل شيء ولكنْ حذرين جداً بإزاء الشياطين.

٦٤ ـ لا تخفَ عليك عاقبة العلاقات التي تقوم بين خرافك لأن الذئاب إنما يجعلون النشيطين منهم يسترخون بواسطة المتوانين.

٦٥ ـ لا تتردّد في الصلاة، إذا ما سُئلتَ، حتى من أجل المتوانين كل التواني. لا تلتمس لهم الرحمة فإن هذا يتعذّر إطلاقاً إن لم يُسهموا هم فيه، بل اطلب ان يوقظ الله حيّتهم.

٦٦ ـ لا يأكلنّ الضعفاء مع ذوي البدع، كما تنصّ عليه القوانين. أمّا الأقوياء في الرب فإذا ما تحدّاهم الكافرون في شؤون الإيمان وشاؤوا أن يواجهوهم فليفعلوا ذلك لمجد الله.

٦٧ ـ لا تحتجّ بعدم المعرفة لأن من يفعل عن جهل ما يستوجب العقاب سوف يعاقَب على عدم إقباله على المعرفة.

٦٨ ـ عارٌ على الراعي أن يخشى الموت ما دام تعريف الطاعة التحرّر من خشية الموت.

٦٩ ـ إبحث أيها الأب المغبوط عن الفضيلة التي لا يعاين أحد بدونها الرب وزوّدْ بها أبناءك أكثر من أية فضيلة أخرى بوقايتهم كلّياً من كل وجه أمرد أنثوي الصورة.

٧٠ ـ وفقاً للفطنة التي يستوجبها هذا الدهر لا تُعجّلنّ في وضع اليد على أحد، ذلك خوفاً من أن يُقبل الى السيرة الرهبانية جاهلاً ثقلها وحرّها فلا يتحملها متى خبرهما فيرجع الى العالم. فهذا لا يخلو من خطرٍ على الذين وضعوا اليد عليه قبل الأوان.

٧١ ـ من هو ذاك المدبّر المُقام من الله، الذي لا تعوزه دموعه وحسراته وأتعابه، فيستطيع أن يقدّمها إليه تعالى بلا حساب في سبيل تنقية الآخرين؟

٧٢ ـ لا تكفّ عن غسل النفوس وتطهيرها، لا سيما ذات الأجساد الملوّثة، لكي يمكنك ان تطالب الرب رئيس جهادنا بأكاليل النصر بدالّة ليس لك فقط بل لغيرك أيضاً.

٧٣ ـ شاهدتُ مريضاً يشفي بإيمانه عاهة مريض آخر مستخدماً لدى الله في سبيله لجاجةً ممدوحة (انظر لو ١١ : ٨) وباذلاً نفسه عن نفس أخيه باتّضاع كلي. وإذ شفاه شفى ذاته أيضاً معه. وشاهدت آخر يصنع مثله ولكن بدافع الكبرياء، فسمع هذا التأنيب: «أيها الطبيب اشفِ نفسك» (لو ٤ : ٢٣).

٧٤ ـ يجوز أن تتخلّ عن خير في سبيل خير أفضل، كالذي هرب من

الاستشهاد لا عن جبنٍ بل لمنفعة من عمل على خلاصهم فيما بعد.

٧٥ ـ يعرِّض البعض ذواتهم للعار في سبيل كرامة الآخرين، فيحسبهم الكثيرون فاسقين مضلِّين بينما هم صادقون (انظر ٢ كو ٦ : ٨).

٧٦ ـ إن كان الذي يستطيع إفادة الآخرين بكلامه ولا يوزِّعه بسخاء لن ينجو من العقاب، فلأيّ خطر عظيم يعرِّض أنفسهم، أيها الأب العزيز، القادرون على إعانة المتعبين بهمّة وغيرة ولا يشاؤون ان يكابدوا أيّ عناء في سبيلهم؟

٧٧ ـ أنقِذْ الآخرين فإن الله قد أنقذك. خلِّص الذاهبين الى الموت يا من تخلَّصتَ أنتَ منه، ولا تتقاعس عن افتداء من يعتزم الشياطين افتراسهم، فستجني بذلك من لدن الله الجزاء الأعظم الذي يعلو على كل تأمل وكل عمل للناس وللملائكة.

٧٨ ـ ان الذي يغسل ويطهِّر أوساخ الآخرين بفضل النقاوة الممنوحة له من الله، ويقدِّم إليه تعالى كقربان لا عيب فيه ما كان قبلاً دنساً، يكون عاملاً مع القوّات الروحية العادمة الأجساد. فإن هذا هو العمل الأوحد لهؤلاء الإلهيين الذين يقيمون التسبيح الدائم لله، إذ قد كُتب: «قرِّبوا القرابين للإله الرهيب يا من يحيطون به أجمعين»، اي قرِّبوا إليه نفوساً (انظر المزمور ٧٥ : ١١).

٧٩ ـ لا شيء يُظهر محبّة الخالق وعطفه علينا مثل تركه التسعة والتسعين خروفاً ليطلب الخروف الذي ضلّ (انظر لو ١٥ : ٤). فانتبهْ إذاً أيها الأب الجليل وزاولْ كل غيرتك ومحبتك وورعك وعنايتك وكل تضرّعاتك أمام الله في سبيل من ضلّ كلياً وانكسرَ. لأنه حيث خطورة الأسقام والجراحات هناك أيضاً ولا شك الجوائز العظيمة.

٨٠ ـ فلنفكِّر أولاً ونحترز ثم نفعل، إذ لا يوافق دائماً أن يحكم الرئيس بين الإخوة بحسب ما هو عدل وحق، وذلك بسبب ضعف البعض. على هذه الصورة رأيتُ أخوين يحاكمهما قاضٍ كثير الحكمة: فقد صوَّبَ من كان على خطأ لأنه كان أقلّ ثباتاً، وخطَّأ الذي كان على صواب لأنه كان شجاعاً مقداماً. هذا لكي لا تفرِّق بينهما عدالة أكثر دقةً. ولكنه صارح كلاً منهما على حدة بما يوافقه، لا سيما من كان سقيم النفس.

٨١ ـ يوافق الخراف سهلٌ أخضر معشب. ولكنّ الأكثر نفعاً بكثير لجميع الخراف الناطقة هو تعليمهم ذكر الموت الذي يقدر ان يشفي كل جرب.

٨٢ ـ لاحظ ذوي المروءة وذلّلهم دون سببٍ بحضور الضعفاء لكيما تشفي جراح البعض بالدواء المعطى للبعض الآخر وتُعلّمَ المتوانين ان يصيروا مقدامين.

٨٣ ـ ما حدث يوماً ان أفشى الله اعترافاً استمع إليه. هذا الخلّا يُحجم البعض عن الاعتراف بخطاياهم فيصبح داؤهم عادم الشفاء.

٨٤ ـ ولئن اقتنينا موهبة العلم السابق فلا نُفصحنّ للمذنبين عن خطاياهم قبل ان يعترفوا بها. ولكن فلنحثّهم بلباقة على الاعتراف بها.

٨٥ ـ علينا أيضاً أن نقدّم لهم مثال الاتضاع الأقصى، وفي الوقت نفسه إبقاؤهم على مهابتهم لنا. اذ يجب أن تُبدي صبرك عليهم في كل شيء إلّا إذا عصوا أوامرك. فاحرص على الّا تتّضع أكثر من اللازم فتركمَ جمراً على هامة أبنائك (انظر أمثال ٢٥ : ٢٢).

٨٦ ـ إحرصْ أبداً على عدم رؤية أغراسٍ تشغل أرض حقلك باطلاً بينما يمكنها أن تثمر في غيره. تشاورْ مع من يلزم ولا تتردد في قلعها بعطف لنقلها إلى مكان آخر.

٨٧ ـ يستطيع الرئيس في بعض الحالات مزاولة الفضيلة بلا خطر في مواضع غير موافقة، أعني في المدينة وفي أمكنة مُمتعة.

٨٨ ـ إذا كان الطبيب حاوياً في نفسه الهدوء الداخلي فلا يعوزه استخدام العلاجات الخارجية بكثرة لكي يُمدّ به مرضاه. أمّا إذا كان خالياً من الهدوء فليستخدم حينذاك العلاجات.

٨٩ ـ فليتفكّر الرئيس ويتبصّرْ قبل قبوله طلّاباً جدداً: فان الله لا يشجب كل رفض أو امتناع.

٩٠ ـ ان أكثر العطايا إرضاءً لله هي تقديم النفوس إليه بالتوبة. فالعالم بأسره لا يساوي نفساً واحدة لأنه يزول بينما هي باقية غير فاسدة. فلا نغبّط الذين يقدّمون للمسيح كنوزاً أيها الأب المغبوط بل خرافاً ناطقة.

٩١ ـ إجعل ذبيحتك بلا عيب وإلاّ فلن تنتفع منها شيئاً.

٩٢ ـ لا يغبْ عن بالنا القول التالي: «كان ينبغي ان يُسلم ابن البشر، ولكن الويل لمن أسلمه» (انظر مر ١٤: ٢١). وأعتقد أيضاً أنه بالعكس: «ينبغي ان يخلص الكثيرون، وانه سيُكافأ الذين بواسطتهم من بعد الرب يخلصون».

٩٣ ـ تُعوزنا القوة الروحية قبل كل شيء أيها الأب المحترم حتى نستطيع أن نأخذ باليد ونستخلص من بين حشود الأفكار مَنْ عمدنا إلى إدخالهم قدس الأقداس وتعهّدنا بأن نريهم المسيح مستريحاً على المائدة السرّية المقدّسة إذا ما وجدناهم ممتَحنينَ ومعذَّبين من كثرة تلك الأفكار التي تبتغي صدّهم وإيقافهم عند المدخل، لا سيما إذا كانوا قد وصلوا الى العتبة. وان كان البعض لا يزالون أطفالاً صغاراً أو ضعفاء جداً فلا بدّ من رفعهم وحملهم على الأكتاف الى أن يجتازوا الباب الضيّق حقاً الذي يُدخل إلى الأقداس، لأنه هناك يشعر المرء عادة بقلق كبير وجزع عظيم. ولذا قال أحدهم في هذا الصدد: «هذا صعب جدّاً عليّ الى أن أدخل أقداس الله» (مز ٧٢: ١٦ ـ ١٧).

٩٤ ـ سبق لي أن ذكرت لك يا أبا الآباء ذلك الشيخ الجليل، أبا الأبله وإمام العلماء، وقلت لك كم كان متّشحاً كل الاتشاح بالحكمة التي من فوق، عادم الرياء، متطلّباً، صارماً، حصيفاً متساعاً، تطفح نفسه بهجة ونوراً. وأعجب ما كان يتّصف به هو أنه إذا لاحظ إخوة راغبين في إتمام خلاصهم كان يروّضهم بشدّةٍ قصوى. إذا ما رأى بينهم من يصنعون مشيئتهم ويتعلّقون برابطٍ ما، كان يحرمهم من ذلك الرابط بطريقة كانوا يحرصون جميعاً معها على عدم إظهار أيّة مشيئة خاصة لهم إزاء ما كانوا يتمسّكون به.

وكان هذا الرجل الذائع الصيت يقول: «الأفضل أن نطرد أحداً من الدير من أن نتركه يصنع مشيئته. لأننا كثيراً ما نجعل مَنْ نطرد أكثر اتّضاعاً ونأتي به إلى قطع مشيئته. وبالعكس إذا ما تساهلنا مع أمثاله، بمظهر الرحمة والتسامح، فسوف يلعنوننا على نحو مكسف محزن ساعةَ وفاتهم، كوننا أضللناهم عوض أن نعينهم.»

وعند انتهاء صلوات المساء كان ذلك الشيخ الوقور يبدو جالساً كملكٍ على عرش منظور، مصنوعٍ من القصب المتشابك، وفي الوقت نفسه غير منظور مشبوكاً بالنعم

الروحية. وكانت جماعة الشركة الرهبانية الجميلة تُحيط به كما تحيط النحلات الحكيمات بملكتها، وتستمع إلى تعاليمه وأوامره كأنها أوامر الله. فكان يأمر واحداً بتلاوة خمسين مزموراً قبل النوم وآخر ثلاثين، ويفرض على هذا عدداً من السجدات وعلى ذاك أن يرقد وهو جالس، على غيره أن يطالع خلال وقت معينّ وغيره ان يخصّص الوقت نفسه للصلاة.

وكان بالإضافة إلى ذلك قد أقام أخوين مراقبين، عليهما ان يلاحظا ويمنعا المحادثات والبطالة اثناء النهار، والسهر المفرط وما لا يجوز ذكره كتابة أثناء الليل. بل كان هذا الشيخ الكبير قد قرّر لكل أخ نظاماً لأكله، فلم يكن يفرض على الجميع طعاماً واحداً بل كان يعامل كل واحد حسب حاله. للبعض كان هذا المدبّر الصالح يعينّ طعاماً ناشفاً، وللبعض الآخر طعاماً أكثر غذاء. والأعجب من هذا ان تدابيره كانت تنفّذ بدون أيّ تذمّر كأنها صادرة من فم الله. وكان لدى ذلك الأب الطيّب الذكر والكامل في كل شيء مناسك يبعث إليها إخوة الدير القادرين أن يحيوا حياة التوّحد والهدوء.

٩٥ ـ أتوسّل إليك أن لا تجعل المستقيمين من الاخوة محتالين مكاّرين، بل اجتهد بالعكس، لو أمكن، أن تحوّل الأدهياء إلى بسطاء. وما أغرب هذا إنْ تحقق!

٩٦ ـ من بلغ الى نقاوة قصوى بفضل لاهوى أقصى يمكنه استعمال القسوة، على شبه القاضي الإلهي، لأن الهوى يثلم قلب القاضي ولا يتيح له ان يؤدّب ويطهّر كما ينبغي.

٩٧ ـ ورّثْ أبناءك قبل كل شيء إيماناً خالصاً وعقيدة سليمة، وهكذا تقود الى الرب في طريق استقامة الرأي ليس فقط أبناءك بل أبناء أبنائك.

٩٨ ـ لا تردّنّك الشفقة عن أن تُضني الرهبان الشبّان الغضاض وتكسرهم، فإنهم سيحمدونك وقت الرحيل.

٩٩ ـ ليكن لك موسى العظيم مثالاً في هذا أيضاً أيها الأب الغزير الحكمة. فإنه لم يستطع ان يخلّص من قبضة فرعون أتباعه الراضين باللحاق به قبل أن يأكلوا الخبز الفطير والأعشاب المُرّة. فالخبز الفطير هو نفسٌ تجحد مشيئتها، لأن المشيئة الذاتية تجعل

النفس تنتفخ وتختمر، في حين ان الخبز الفطير هو دائماً غير متفخ. والأعشاب المرّة تعني تارة المرارة اللاّصقة بتلقّي الأوامر وتارةً مرارة الصوم العسيرة.

١٠٠ ـ أمّا انا، يا أبا الآباء، فيخيَّل لي اذ أكتب لك ما أكتب أني أسمع القائل: «فأنت الذي تعلّم غيرك أفلا تعلّم نفسك؟» (رو ٢ : ٢١). فالآن اذاً لن أقول بعد، قبل أن أختم مقالي، سوى هذا: إن نفساً متّحدة بالله لفرط نقاوتها لا يُعوزها كلام غيرها لتتعلّم. فإن هذه النفس المغبوطة تحمل في ذاتها الكلمة الأزلي وهو معلّمها ومرشدها ونورها.

١٠١ ـ وهو أنت كذلك ـ انا متأكّد ـ يا ذا الجلال الكلّي القداسة والنور. فإني أعرف نقاوة نفسك ليس فقط لسماعي عنها بل برؤية العين والخبرة. انها تسطع بصورة خاصة من خلال وداعتك التي تبيد الأفاعي وتواضعك، على شبه موسى العظيم كاتب الشريعة. إنك تقتفي آثاره حقاً عن كثب أيها الأب الكلّي الصبر إذ قد ارتقيت مثله نحو القمة دون انقطاع، بل تكاد تساويه، أعني بالنقاوة والإمساك. فإننا بهاتين الفضيلتين أكثر من أيّة فضيلة اخرى نستطيع ان نَقْرُبَ الله الكلي النقاوة، الذي وحده يؤازرنا في اقتناء اللاهوى التام ويهبنا إياه، ووحده ينقلنا به من الأرض الى السماء.

فعلى هاتين الفضيلتين ركبتَ بهمةٍ واجتهاد كأنه على عربة ناريّة على غرار ايليا العفيف. وليس فقط قتلتَ المصري[1] وأخفيت فضلك في رمل التواضعِ بل تسلّقتَ الجبل ايضاً وعاينت الله من خلال عليّقةِ عيشةٍ عسيرةٍ شائكة. وسمعتَ صوت الله ونَعِمتَ ببهائه، وخلعت نعليك من رجليك أي غشاء الوضع البشري الفاني بكامله. وأمسكتَ الملاك المتحوّل الى حيّة بذَنَبه أي حيث ينتهي وينصرم، وأعدته الى عتمات وكْرِهِ في الهاوية العميقة المظلمة، وغلبت فرعون المتكبّر الوقح. وضربتَ المصريين وقتلت أبكارهم، وهذا أكثر الأفعال ثواباً. ولذا عَهِدَ الرب اليك كإلى رجلٍ أمين كل الأمانة قيادة إخوتك. فجعلتَهم يا افضل المرشدين يبارحون فرعون وصنع اللبن المهين دون أي ارتياع، وخلّصتهم. ثم أريتهم بخبرتك الغزيرة نار العفة الإلهية وغمامها اللذين يُطفئان لهيب الشهوة تمام الإطفاء. ولم تكتفِ بذلك بل شققت لهم البحر الأحمر

(١) انظر خروج ٢ : ١٢ وبصورة عامة بقية سِفْر الخروج فيما يتعلق بتشبيه «الراعي» بموسى النبي.

المحرق، البحر الذي كثيراً ما يتعرّض معظمنا فيه للأخطار. وبعصاك وعلمك الرعائيين سرت بهم الى النصر والغلبة مغرّقاً جميع مطارديهم في المياه.

وبعد ذلك هزمت مرّة أخرى عماليق الكبرياء الذي اعتاد أن يعترض الظافرين وقد استظهرت عليه بإبقاء يديك ممدودتين الى كلٍ من العمل والتأمّل. ولأجل شعبك الذي كان يهديه الله بنوره غلبت الأمم، وأخذت سائر الذين يتبعونك إلى جبل اللاّهوى وأقمتهم كهنة. وفرضت عليهم الختان لأن الذين لا يتطهّرون به لا يقدرون ان يعاينوا الله.

ثم صعدت الى العلاء مبدّداً كل الظلمات والغيوم والعواصف بطرحك عتمات الجهل الثلاث. واقتربت من نورٍ أكثر لمعاناً وسموّاً وجلالاً من نور العلّيقة بكثير. واستأهلت ان تسمع صوت الله وتعاينه وتتنبّأ عنه. وشاهدت، إذا صحّ القول، خيرات العالم الآتي فيما أنت بعد على الأرض، أعني استنارة المعرفة الأخيرة التي سيُسبغها الله علينا حينذاك. ثم سمعت الصوت الإلهي يقول: «لا يستطيع انسان أن يراني»، ولذا أفبعد ان عاينت الله عدت فنزلت إلى وادي الاتّضاع السحيق، إلى حوريب، حاملاً معك لوحَيْ الصعود نحو المعاينة الإلهية، ووجهك مشرق، مستنيرا نفساً وجسداً.

ولكن ما أكرب مشهد صنع العجل الذهبي! ومن قِبَلِ جماعتنا أيضاً! وما أكرب مشهد كسر لوحَيْ الشريعة!.. ماذا جرى بعدها؟ أمسكتَ الشعب بيده وسرت به الى البرّية، وربّما أيضاً، اذ كان يلتهب بالنار التي أضرمها لنفسه، أنبعت له ينبوع دموع بضربك الصخرة بالعود - أعني بصلبك الجسد مع أهوائه وشهواته.

وقاتلت الأمم العدوة مبيداً اياها بنار الرب. ثم أتيت الأردن - إذ ليس ما يمنع اختصار رواية التاريخ قليلاً - وكيشوع آخر عبرت بالشعب بأقوالك تاركاً المياه السفلية تجري صوب البحر الميّت المالح وحابساً المياه العالية - مياه المحبة - أمام عيونه[1].

ثم أمرتَ بجلب اثني عشر حجراً لتنبيء برسالة الرسل الإثني عشر، أو لترمز الى الغلبة على الشعوب الثمانية التي هي الأهواء الثمانية، مع الفوز بالفضائل الأساسية الأربع. وإذ تركت وراءك البحر الميّت والعديم الثمر مشيت على مدينة العدوّ وبوقت

(١) انظر سِفر يشوع الاصحاح الثالث وما بعده فيما يتعلق بالتشبيه بيشوع..

بوق الصلاة دالاً بالدورات السبع حولها على دورة الحياة البشرية، فقوّضت أسوارها وقضيت عليها كيا تستطيع أن تنشد لحليفك اللاّهيولي وغير المنظور: «فنيتْ سيوف العدوّ كل الفناء، دمّرتَ مدنهم» (مز ٩ : ٦).

أمّا الآن فسآتي، إذا شئتَ، إلى الأمر الجَلَلَ: صعدت الى أورشليم القدس، الى رؤية سلام النفس الكامل[١]. وهناك عاينت المسيح إله السلام، بعد ان تألّمت معه كجندي صالح وصُلبتَ الجسد مع الأهواء والشهوات. وهذا عدل لأنك صرت انت ذاتك إلهاً لفرعون ولسائر جيوشه المعادية لنا. ثم لمّا دُفنت مع المسيح ونزلت معه الى أعماق اللاهوت والأسرار التي لا توصف، مسحتَك بالمرّ وطيّبتْك بالطيوب النساء نسياتك وخليلاتك أعني بهنّ الفضائل.

ثم انبعثتَ ـ إذ من يمنعني أن أقول هذا ايضاً ما دمتَ جالساً عن يمين الآب في السموات[٢]؟ ولكنه خلطٌ مدهش في التعابير! ـ انبعثت إذا انت أيضاً بعد ثلاثة أيام، بعد أن قهرت جبابرةً ثلاثة، وبتعبير أوضح بعد أن انتصرت على الجسد والنفس والعقل، أي بعد تطهيرك لأجزاء النفس الثلاثة الجانحة الى الشهوة والغضب والتفكير العقلاني.

وصعدت الى جبل الزيتون ـ إذ ينبغي أن أختم مقالي ولا أسترسل في التظاهر بالحكمة، لا سيّما وأنا أكتب الى حكيم يفوقنا جميعاً في المعرفة ـ الى ذلك الجبل الذي عظّمه سائح كريم قائلاً: «الجبال العالية للأيلة» (مز ١٠٣ : ١٨) أي للنفوس التي تبيد الأفاعي. فسعيتَ اذاً انت أيضاً اليه ووصلت الى سفحه. ورفعتَ عينيك إلى السماء ـ ها أنا من جديد أنقل وقائع التاريخ الى إطار الاستعارة ـ وباركتنا نحن تلاميذك. وشاهدتَ سلّم الفضائل قد نُصبتْ متينةً، تلك السلّم التي وضعتَ انت أساسها بالنعمة المعطاة لك كمهندس حكيم، بل إنّ وَضْعَها بكامله يعود لك طالما قد تحايلتَ فأخرجتَ سذاجتي من خلوة الاتضاع وألزمتني بإعارتك شفتيّ الدنستين لتخاطب شعبك. ولا غرابة في ذلك ما دام موسى أيضاً قد تذرّع بتلعثمه ولسانه الألثغ حسب رواية التاريخ. ولكنه وجد هارون خادماً وناطقاً بلسانه فاضلاً. أمّا انت، يا متلقّن الأسرار التي لا ينطق

(١) نذكّر بأن اورشليم تعني «مدينة السلام».
(٢) اي على عرش الرئاسة نيابة عن المسيح.

بها، فقد توجّهتَ بالعكس، لستُ أدري لماذا، الى نبعٍ قد نضب ماؤه وطفح بضفادع مصر بل بفحمٍ أسود.

ولكن إذْ لا يليق الانصراف دون استكمال سياق الكلام، يا من تُسرع نحو السماء، سوف أنسج ايضاً مديحي لفضيلتك بقولي انك تقدّمتَ نحو الجبل المقدس وتطلّعت الى السماء، واقتربت من سفحه وتقدّمت وتسلّقته، وركبت على شاروبيم الفضائل وطرت وبلغت العلاء، على صوت الهتاف والتهليل، بعد انتصارك على الأعداء، وايضاً انك سرت في المقدّمة وكنت دليلاً ومرشداً ولا تزال الآن أيضاً تتقدّمنا وترشدنا جميعاً فيما ترتقي الى أعلى السلّم المقدسة وتتّحد بالمحبة التي هي الله، له المجد الى الأدهار آمين.



فهرس

تم طبع هذا الكتاب في شهر تشرين الثاني ١٩٨٥

في مطبعة النور – تلفون ٢٨٦٩٨٩

ولحساب منشورات النور

بيروت – لبنان